



فكر

تربية

جهاد

دعوة

علم

الفهرس

الموضوع الصفحة

3	مقدمة
9	الفصل الأول : أزمة الحركات الإسلامية
23	الفصل الثاني : تيارات إسلامية بين الشُّبهات والشهوات
32	الفصل الثالث : الفقه الحركي والانتقال من الجماعة إلى فقه الأمة
77	الفصل الرابع : السياسة الشرعية الرشيدة
89	الفصل الخامس : خارطة الطريق للمنهج الحركي الرشيد
110	الخاتمة والنتائج

قال تعالى

وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ

(فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) المؤمنون (53)

وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْلَبْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۗ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

عَظِيمٌ (105)

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۗ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۗ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (153) (الأنعام)

وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ

(32) [سورة الروم]

(إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ

يَتَوَلَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) المائدة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة البحث

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً .

اللهم صلي على سيدنا وأسوتنا وقودتنا وقائدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد :

فهذه دراسة متواضعة لمعالجة الحالة الحزبية المستشرية في ساحة العمل الإسلامي .

الحزبية التي غدت أفيون الشعوب الذي يُخدر الأمة عن إزاحة الطغاة بانشغالها في ترجيح مناهجها وافتعال خصومات بينية يكون الطغيان هو المستفيد الوحيد منها. لم تعد الحزبية تخدم إلا مصالح الأنظمة الاستبدادية في تأبيد حكمها وإضعاف الأمة المستعبدة لكي لا تقوى على الانعتاق والتحرر ولتبقى رازحةً تحت نير العبودية ، بل إن كثيراً من الطغاة عمل على تغذيتها وتأجيج سُعارها ليدوم بذلك مُلكه ويطول ليل الإذلال على الأمة المستضعفة . قال تعالى : (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يذَّبُحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (4) الْقَصَص .

ما أخشاه بداية أن يجير هذا الكتاب لصالح الانتصار للقوى العلمانية الرابضة على ثغور اغتنام أخطاء العاملين للمشروع الإسلامي المتصيدين في الماء العكر ليحصدوا بذلك مكاسب سياسية وليطعنوا بالإسلام من خلال أخطاء أهله .

أو أن يقوم أصحاب الطبع الذبابي بالتقاط الهفوات ويعموا عن حسنات الإخوة العاملين للمشروع الإسلامي . كان شيخ الإسلام رحمه الله يقول : " العلماء كالبحار ، وإذا بلغ الماء القلنئين لم يحمل الخبث " . لذلك أقرّر بداية أن هذا العمل موجّه للإخوة العاملين لخدمة الإسلام وهو يتناول تصحيح المسار والتنبية للمطبّات المتكرّرة وفوقنا بها .

فهو عتابٌ موجّه للبيت الداخلي لمن نوالهم بالله ولا تشكُّ بإخلاصهم .

يَجِبُ على الحركات الإسلامية أن تُصَيِّحَ السَّمْعَ لأصوات النّاقدين المُشفقين ، لأنّ كَثْرَةَ الإِستماع للإطراءِ والتّزكية والمديح يُورثُ حالةً من الاسترخاء والاعتياش على الأمجاد والتاريخ بعد أن يَجِفَّ نهر العطاء .
مشكلة النّاقدين الإسلاميين أنهم يُحاكمون الجماعات والرّموزَ خارجين عن خصوصيّة الظّرفِ الزّمانيّ والمكانيّ لدعوتهم فيَقَعُ منهم الإجحاف .

ومشكلة المعجّبين بالجماعات والرّموز أنهم يريدون تعميمَ أفكار مَنْ يُحِبُّون على كل الظّروفِ الزّمانيّة والمكانيّة فيقعون في التّعصّب الممّوج ، والإنصاف أن تُحاكِمَ الأفكار في سياقِ خصوصيّة الظّرف .
بات من المُلِحِّ إنهاء حالة الاستقطاب بين الجماعات الإسلاميّة وأيقاف الجيوبِ النّاريّة والاستنزافِ الحاصل لطاقتها في مواجهةٍ جانبيّة تُعزّزُ حالة الانقسام والاحترابِ الدّاخلِيّ وتُبقي الأنظمة الاستبداديّة والقوى الاستعمارية مُعْتَاشَةً على هذا النّزيف .

إنّ الحركات الإسلاميّة أمام خيارين في سعيها الحثيث لإخراج الأمة من ربة التبعيّة :

1_ تحقيقُ الانعتاق الكُلِّيّ من قُوى الهيمنة العالميّة يحتاج إلى امتلاكِ لأدوات الحضارة الماديّة ، وهذا ما لم يُسعى إليه إلى الآن .

2_ تحقيقُ الانعتاق الجزئيّ يحتاجُ إلى سياسةٍ شرعيّةٍ صحيحةٍ ورؤيةٍ شرعيّةٍ واضحةٍ وتعبئةٍ شعبيةٍ وبناءٍ جبهةٍ من الحُلَفَاءِ الأقوياءِ واصطفافِ متينٍ .

وغير ذلك ستبقى الأمة في دائرة التّبعيّة المطلقة والاستنزاف إذا ما كان السّعي نحو الانعتاق الكُلِّيّ بدون امتلاكِ لناصرية التكنولوجيا المتطورة والعلم الماديّ الدّاخلِ في الفروض الكفائية والنظر إلى ذلك أنّه جزءٌ من الإعداد الماديّ الدّاخلِ في دائرة التّكليف .

المتأملُ في نشوء التيارات الإسلاميّة يجد أنّها أو في غالبها إفرزاتٌ للمشاكل التي عصفت بالأمة ، فحركة الإخوان المسلمين الحركة الأم للجماعات الإسلاميّة ترافق تأسيسها مع سقوط الخلافة الإسلاميّة ، والسلفيّة الجهاديّة ترافقت مع احتلال أفغانستان ، والجهاد الأفغانيّ وحزب التحرير جاء بعد ضياع فلسطين ، والصوفيّة نشطت بعد إغراق أبناء الأمة بالتّرفِ والملاذات . تكاد تكون هذه الحركات إفرزاً لأزمات مرّت بها الأمة ، لذلك كانت استراتيجيّتها العامّة موصومةً ومشبعةً ومتأثرةً بشكل واضحٍ بالأزمة التي جاءت هي كردّة فعلٍ لعلاجها ، ممّا غيّبَ عنها النظرة الشموليّة والبحث في جذور الأزمات التي تسببت بقيام هذه الحركات ، وغلب على مناهجها خُطّة علاج الأزمات بدلاً من خُطّة البناء والنظرة الاستعابية للمنهج والتاريخ والواقع ، فهي حركات موصومة بعقدة الأزمة .

في رأيي المتواضع أنّ أيّ تيارٍ إسلاميٍّ جديدٍ حتى يَخْرُجَ من مسألة القياس على التّجارب السّالفة يجبُ أن يلتزم بضوابطٍ شرعيّةٍ واضحةٍ في تحديد الأولويّات ، فمسألة الخروج على الإمام الكافر أو الجائر ونصب الخليفة وإقامة الشريعة وجهاد الطّلبِ وتولّي الولاية في الدولة الكافرة هي مسائل مَنوطةٌ بالقُدرة والمكّنة ، وتحديد ما إذا كُنّا ممكّنين من عدمه هي مسألة خاضعةٌ للاجتهاد المَحْضِ ليس لها مُحدّدٌ شرعيٌّ ، ومن الطبيعي أن يقع فيها الاختلاف والتّباين . ولكن حتى تنضبط المسألة هنا ، يجب على هذا التيار الجديد أن ينضبط باجتهاده بقواعد أصول الفقه ، وهو الشيء الذي طالما كان غائباً عن أدبيّات الجماعات الإسلاميّة لأنّ الفكر والمفكّر هو معنًى مرادفٌ للاجتهاد والمجتهد ، ومن الضروريّ أن يمتلك هذا المفكّر أدوات التّفكير ليكون تفكيره مؤصلاً .

أغلب الاجتهادات التي أخرجها المنظرون كانت مبنية على أصول جماعتهم ومتماشية مع مخرجات أحزابهم ومتماشية في تبرير السياسة لا في ضبطها .

ولا بد لهذا التيار أن يدرس الواقع بعناية لأن اضطراب الفتوى واضطراب الموقف السياسي يأتي دائماً من تضخيم الواقع أو التّهوين منه مما يؤدي لاتخاذ مواقف واجتهادات مضطربة كان من نتائجها حصاد المزيد من الهزائم والانتكاسات والقرارات الاعتباطية .

كذلك على هذا التيار الجديد أن يوسع من دائرة الفقه لديه ويعمل على رؤية الواقع من زوايا فقهية عديدة . ونحن إذ نبشر بهذا التيار لا نقصد بالضرورة أن يكون حزباً جديداً يُضمّ إلى قائمة الأحزاب التي تعجّ بها الساحة ، وإنما نقصد به حركة اجتماعية تتوظّف من خلالها كلّ طاقة الأمة في سبيل حمل المشروع الإسلاميّ دون إقصاء لأيّ طاقة مفيدة فيكون اقرب لورش العمل بين كفاءات ربما تختلف بالفكر .

وهنا لا بدّ من مراكز الأبحاث التي تزوّدها بذلك ، إذ كيف للفقيه أن يفتي في واقعٍ نراه من خلال عيون الغربيين المدجّجين بمراكز الأبحاث والإحصاء؟!

وللأسف نحن أمة لُغَةُ الرِّقْمِ عندها مَهْدورَةٌ ، وتقيّمنا للواقع يخضع للرغبات والأهواء والانطباعات المفتقرة للموضوعية . في هذا البحث المتواضع طرحُ لأسئلةٍ كبيرةٍ لم أشأُ إجابةً عليها بمفردٍ ، فإن إحدى أزمات الأمة هو كثرة من يتكلمون بمشاكلها حتى كثُرَت الأدوية التي زادت من إعيائها ، ولظني أنّ الحلّ لن يكون إلا من خلال العصفِ الذّهنيّ لمجموع الأمة قد تصل إليه الأمة من أتون المحنّ ومن تحت ركام الألم وخطب المصاب وكثرة الجراح ، ذلك أن التجارب الذاتية والابتلاءات العامّة هي التي تُرسّخ المفاهيم والحقائق وتجمع الأمة على كلمة سواء بعيداً عن التنظير الذي يطلّ إلينا من الترف الفقهية والبروج العاجية للأحزاب التي تمارس دور الوصاية على أمة يرونها قاصرة لم تبلغ سنّ الرشد . ولعلها حركة تجديدية تنهياً للأمة للانضواء تحتها تقودها طائفة الحقّ المنصورة التي لا أرها تتمثل بجماعة أو حزب أو تنظيم . كثيراً ما تقع الأحزاب الإسلاميّة ضحية بين خطاب الإطراء الذي يُغفلُ المعايير ويظهرُ المثالب وبين خطاب العداء الذي يضخّم المثالب ويغمط الحسنات ، فيتسبّب ذلك بإحجامها عن أي خطوة نحو الإصلاح بسبب غياب منطق النصيحة المشفقة وشيوع الجلد والنقد والاستئصال .

وهنا لا أنسى أن أتوجّه بالشكر الموصول للإخوة الذين تحاورت معهم في مركز الدراسات الاستراتيجيّة ، وكان للحوار معهم ثمار كثيرة فرّعت في هذا البحث . نسأل الله تعالى أن يكون في ميزان حسناتهم

ثغراتٌ في الفكر والتنظيم والممارسة والاستراتيجية يجب أن تتداركها الجماعات الإسلامية :

- قيام الجماعات الإسلامية منفصلة عن الأمة بحمل مشاريع الأمة والدُّود عن حقوقها والتفرد بالواجهة مع العالم المتغطرس يُسهِّلُ على الغرب المواجهة معها والالتفافَ عليها وإجهاضَ أيِّ محاولة للأمة للانعتاق من برائث العبودية ونير الاستعباد بعد أن يُحَيِّدَ الغرب قُطَاعاً واسعاً من الأمة عن هذه الأحزاب فتفقد بذلك عمقها الاستراتيجيِّ الرافد لها بكلِّ عوامل القوَّة والثبات ، لذلك كان على هذه الجماعات لزاماً تحميلُ المشروع للأمة وأن تكتفي بدور الموجِّه والمُعِين دون الريادة ، ولا تكن أولَ شعرةٍ في الرأس ولا آخر شعرةٍ في الذنب ، بذلك يتمُّ تشتيت ذهنيَّة العدوِّ وتوسيع نطاق المواجهة على العدو بدلاً من اختزالها في جماعة أو حزب .
- الجماعات الإسلامية بثتى راياتها ومُسمِّياتها أضحت مستهدفة دولياً وإقليمياً ، ولو كُنت مكانها لُقمتُ بمراجعةٍ شاملةٍ جسورةٍ لبلورة حسة استراتيجية جديدة .
- الفصل بين عصمة النصِّ واجتهادات البشر ، الإسلام هو دين الله الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه ، أما مناهج الجماعات فهي اجتهادات البشر ويعتريها ما يعتري الجهد البشريِّ من الخطأ والصواب والانحراف .
- عندما تناقش أصحاب التجارب الفاشلة كانوا يدافعون عن منهجهم بحُجَّة أن الفشل في التجربة لا يدلُّ على عدم صوابيَّة المنهج بحُجَّة أن كثير من دعوات الأنبياء لم تنجح !
- ولكن نقول لهم أن تكرار الفشل يدلُّ على أن الخطأ هو في المنهج وليس في التطبيق ، لأنَّ خطأ التطبيق كالخطأ في الوزن لا يتكرَّر ، أما إن كان الخللُ في الميزان نفسه فلن يُصحَّحَ أن ظاهريَّة الفهم للنصوص تحول بينهم وبين مراجعة الثغرات وتجعل من التجربة شيئاً توقيفياً معصوماً .
- أول شيءٍ في الحسبة الجديدة أن تتحاشى الجماعات الإسلامية هذه المواجهات غير المتكافئة التي أدمنتها مع قوَى ونظمٍ راسخةٍ على الأرض لها شرعية دولية ، والتحاشي لا يعني الرُّكون وعدم الإعداد .
- المُطلِّع على مكتبة الجماعات الإسلامية يجد لهم مئات الكتب في الجهاد والعمل والحركة ، ويجد الضَّحالة في الكتب التي تتناول قضية الإعداد .
- من أهمِّ مبادئ الحرب (الاقتصاد في هدر القوة) ، والجماعات تبدد قواها وتترخَّصُ بذلِّ دماء شبابها ! يجب صيانة الخزين الاستراتيجيِّ للجماعات والحفاظ عليه .
- الجماعات مخترقة أمنياً في قياداتها إلا ما ندر، وصار من السهل توظيفها في حروب وكالة (WAR BY PROXY) تخدم في نهاية الأمر أعداء الإسلام وأعدائها.
- يجب أن تدرك هذه الجماعات أننا نعيش ضمن (نظام) دوليٍّ يقوم على احتكار السلاح والخامات (نפט وقمح) والتحكم بالأعلام (الإقمار الصناعية) وقبولٍ دولي . من الخطأ حصرُ المعركة مع الغرب بالقتال فقط لأنَّ الصراع مع الغرب صراع حضاري بين حضارة بازغة وحضارة غاربة والهزيمة الحضارية للغرب تحتم علينا أن ننتهياً لورايتها .
- ولدى هذا النظام الدولي مؤسساتٌ (صلبة) : جيوش وسلاح ومال وفير واقتصادات متطورة ومزدهرة ، والمطلوبُ دراسة المشهد بآناً قبل الانخراط في مواجهة خاسرة . يجب على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أن لا ترمي بكلِّ أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما :

{أنهم إن يَظْهَرُوا عَلَیْكُمْ یَرْجُمُوكُمْ أَوْ یُعِیدُوكُمْ فِی مَلَّتْهُمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْدَأُ} (20) ، إمّا هلاك النفس أو ضیاع الدین وكلاهما من الضروریات الخمس قد تهدر لضعف التدابیر الأمتیة فی الحركة

- هل هذه الجماعات فی حالة مواجهة مع (النظام الدولی)؟ أم قادرة على التاعیش معه؟ المواجهة فی ظنّی خاسرة والتاعیش لا یتضح من خطاب هذه الجماعات .

- الجماعات الإسلامیة تعمل بعفویة مفرطة ولبس وفق خارطة طریق ، ولذا صار من السهل استدراجها واستنزافها فی معارك جانبیة تستهلك خزینها الاستراتیجیة .

- تقوم الأحزاب الأوروبیة بتعیین (المدقق الداخلي INTERNAL AUDITOR) وتمنحه راتباً دسماً ومهمته نقد أداء

الحزب ، فلماذا لا یكون مثل ذلك عندنا ؟ وغالب أحزابنا تضیق ذرعاً بأصلوات الناقدین وتفرح بمدیح المترلفین !

- تعقد الأحزاب الأوروبیة ورش عمل WORKSHOPS مهمتها النقد الذاتی ، وتدعوا ضیوفاً ومراقبین من خارج الحزب

لممارسة ذلك ، فلماذا لا یكون ذلك عندنا ؟ بینما یصل الأمر عند بعض الجماعات إلى تكمیم الأفواه وتجریم المنتقد وتصویر

المنتقد للجماعة منتقد للإسلام نفسه ليقطع الطریق على كل رأی مخالف .

أبو بكر رضی الله عنه فی أول خطاب له بعد تولیه الخلافة أرسى مبدأ النقد الذاتی وجعل من انتقاد مسیرة الحاكم وتقویمه

ومحاسبتة حقاً للأمة .

أغلب عناصر الأحزاب الإسلامیة یتعامل مع الآخر بمسطرة المقدّس والمُدنّس ، من كان من جماعتی فهو مقدّس ومن كان من

غیرها فهو مدنّس .

- الفرد فی الجماعة مسلوب التفكير لصالح قطعیة الإیدیولوجیا فهو متدرب على تلقی الأوامر بمطلقیة مفرعة مما یقتل روح

المبادرة والإبداع عند الفرد . والتي تحرص علیه الأحزاب خوفاً من نموّ اللویبیاة داخلها مما ینتهي غالباً بحالة من الانشقاق

والتصدع .

الفصل الأول :

أزمات الحركة الإسلاميّة

فقه الأزممة وأزممة الفقه

وقوع الأزممة يُحتّم على الجماعة أن تتعامل بفقه خاصّ غير ما كان عليه الأمر في أحوال الاستقرار يتناسب مع طبيعة الظرف والقدرة وكميّات التحدي ، وقد كتّب في ذلك الفقهاء فقهاً خاصاً : مثل نظريّة الظروف الطارئة في الفقه الإسلاميّ ، وفقه النّوازل التي تقوم على أحكام الضرورة ورفع الحرّج وحفظ المقاصد والاقتصاد في العزائم والتوسع بالرّخص .

الخلل في عمل بعض الجماعات الإسلاميّة أنهم يتعاملون مع الظرف الطارئ بالفقه المستقر لا بفقه النوازل ومنهم من يُنزّل فقه النوازل على الحال المستقر.

من أهمّ الجوانب التي يجب مراعاتها في الأزممة :

- 1_ إرجاء مسائل الخلاف وتعطيل الجدل والاشتغال بالعمل .
 - 2_ ترتيب الأولويّات في المواجهة ، وتقديم الضروريات على الحاجيات ، والحاجيات على التحسينيات .
 - 3_ تكثير جبهة الحلفاء وتحييد أكبر قدرٍ من الخصوم (إدارة الصراع) والاستفادة من سنّة المدافعة .
 - 4_ الابتعاد عن مُحاصِبة الأحزاب وتقديم أهل الاختصاص والكفاءات (إدارة التكنوقراط) ،
مَنطق : منّا أمير ومنكم أمير مرفوض شرعاً (مبدأ المُحاصِبة) ،
إنّ خير من استأجرت القوي الأمين (مبدأ اعتبار الكفاءة) واجب شرعاً .
 - 5_ توسيع صلاحيات المُتأمّرين وتضييق نطاق الشورى لأجل سرعة اتخاذ الإجراءات والحفاظ على السرية .
 - 6_ تحديد دائرة المناورة وتحديد الخطوط الحمراء (الثابت والمتغير) .
 - 7_ ترك وإرجاء المنذوبات وحتى السنن ريثما يتمّ إقامة الفروض الغائبة .
 - 8_ التوسّع في الرّخص والاقتصاد في العزيمة (إنّ الله يُحبُّ أن تُؤتى رُخصه كما يُحبُّ أن تُؤتى عزائمُه) .
 - 9_ استثمار الطاقات المعطلة ، وإيقاف الطاقات النازفة ، وتوظيف الطاقات العشوائية .
- عندما نتحدث عن أزممة عند الحركة الإسلاميّة فنقصد بذلك الأزمات الذاتية ولا نقصد التّحدّيات والمؤامرات التي تُنسج لتحيط بها من خارجها .

أهمّ الأزمات التي تعاني منها الجماعات الإسلامية عموماً

وهنا نتكلم عن الأزمات الذاتية للجماعات بعيداً عن نظرية المؤامرة والشعور بالمظلومية الذي يشيع في الدعاية الحزبية للجماعات

1_ أزمة فقدان التوازن واتخاذ الرسالة عِضِينَ والخطاب المجتزء :

مشكلة الحركات الإسلامية المعاصرة أنّها تركّز على جانب واحد من جوانب الإسلام فتتحرف ، مثل السيارة إن جعلت دولاباً يدور أسرع من غيره ، ستتحرف عن الطريق .

لذلك نلاحظ أن كثيراً من أزمات الجماعات هو ناتج عن تضخم جانب من جوانب الدين في عمله على حساب الجوانب الأخرى ينتهي هذا التضخم إلى التآزم .

فالصوفية أصلّحت حاضنة فكرية للقبورية وللاتحادية (أي من يقول بعقيدة الحلول الكفرية) ،

والسلفية العلمية أصبحت حاضنة فكرية للمرجئة وللجاميّة المشرعنة للطواغيت ،

والسلفية الجهادية أصبحت حاضنة فكرية للخوارج والدواعش .

والمخرج من هذا كلّهُ أن تركّز على كل جوانب الإسلام كافة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ

الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. السِّلْمُ يعني الإسلام، كما فسرها السلف ، وقول الطبري في تفسيرها: "إن الله جلّ ثناؤه أمر الذين

آمَنوا بالدخول في العمل بشرائع الإسلام كلها." وقد بينت الآية أنّ عدم الدخول في الإسلام كافة والتعامل الاجتزائي في أخذ

الفرائض هو اتباع لخطوات الشيطان .

يقول الشيخ محمد أبو يزن الشامي : أخذ بعض شرائع الإسلام وترك الباقي أو التقصير فيها ، اتباع لخطوات الشيطان فيما يقابلها.

ألا ترى كيف تضخم مفهوم الذّكر عند المتصوّفة على حساب بقية الشرائع؟

و تضخّم مفهوم الهدى الظاهر والبدعة عند السلفية؟

و تضخّم مفهوم الجهاد عند التنظيمات الجهادية؟

و تضخم مفهوم المصلحة والسياسة الشرعية عند الإخوان؟

و مفهوم الخلافة عند التحرير؟

و بالمقابل ضمور الجوانب الأخرى من الإسلام ، أدّى إلى اتباع خطوات الشيطان لدى كل جماعة مما سبق في بقية أمورها ،

فوقعت في مزالق خطيرة لا تُحمد عقباها. كل هذا يتطلب التركيز على إعادة مفهوم البعث الإسلاميّ الشامل في الأمة ، فالغائب

ليس فريضة بل فرائض ، والغربة ليست وصفاً لبعض الإسلام ، بل لكّله ، والله أعلم .

2_ (السلامية والقتال) أزمة الدعوة بلا جهاد والجهاد بلا دعوة :

تقف الحركات الإسلامية اليوم على معادلة صعبة الحلّ ولكنها غير مستحيلة :

- 1- المسار السلمي في الدعوة يجعل من هذه الجماعات لقمّة سائغة للقوى الوظيفية والدولة العميقة المؤتمرة بأوامر الخارج لإجهاض أي صحوة إسلامية تسير نحو التمكين والاستغلاظ ، فسرعان ما تجدّ من ينقضّ عليها ويرميّ بنخبها في السجون ويقتل من يواجهها من شبابها ، مما يدفع أتباعها إلى الغلو أو الانكفاء على النفس كردة فعلٍ على اليأس والإحباط ، لا سيّما أننا نواجه عدواً متسلحاً بمراكزٍ بحثٍ يستشعر من خلالها خطر التنظيمات الإسلامية على نظامه العالمي وهي في طور التشكل ، ويبادر إلى ضربها في مهدها استباقياً .
- 2- المسار الجهادي يضعها في الغالب أمام تحالفاتٍ عالمية مزودةٍ بأعتى أنواع الأسلحة الفتاكة ومواجهاتٍ غير متكافئة تنتهي بهم إلى الكهوف والجبال بعد خسارة خزائنها الاستراتيجية من شبابها المجاهدين .
لو كانت الحركات الإسلامية متفاهمة مع بعضها لتحوّل العمل السياسي إلى جناحٍ مشاغلةٍ للأعداء وفصل الساحات الجهادية إلى ساحاتٍ مناطقية بدلاً من ممارسة الجهاد العالمي العابر للحدود ، الأمر الذي يؤدي إلى إيجاد تحالفٍ عالميٍّ لمواجهة عدوٍّ مشتركٍ من قبل الدول وتخلي الأمة عن من يسلك معها مسلك التوريط بالمواجهة .
الأحزاب التي تمارس الأسلوب الجهادي تجد في المشاركات السياسية الفاشلة دليلاً دامغاً على صحّة مسلكها ، كما أنّ الأحزاب التي تمارس أسلوب المشاركة السياسية تجد في التجارب الجهادية الفاشلة دليلاً على صحة مسلكها ، وغالباً يقع هذا الحكم بسبب عدم دراسة طبيعة الساحة وإدراك خصوصيتها والرغبة في تعميم التجربة التي نتعصب لها ، لا لصحتها ونجاحتها ، بل لأنّها منسوبة إلينا .
لذلك فليكن دعاة السلمية عن توجيه اللوم لمن يحملون السلاح وليكن حملة السلاح لدعاة السلمية وليتجهوا إلى إيجاد المساحة المشتركة في تبادل الأدور في مواجهة عدو لم يعد يميز بينهم فالخلاف ليس خلاف حجة وبرهان وإنما خلاف ظرف وزمان

3_ أزمة المواجهة مع الدولة العميقة المتجذرة :

- الدولة العميقة هي مؤسسات غير مرئية ، تُدير الدولة من أسفل بعيداً عن سلطات الرئيس أو الحكومة أو البرلمان . استخدمت تركيا تعبير «الدولة العميقة» لوصف الدولة التي لا يراها الناس ويسمعون عنها ، وتُعني الجيش والقضاء والإدارة والمخابرات والأعلام والضغط الاقتصادي والمؤسسات العلمانية القوية ، وهي تدير شؤون البلاد بصرف النظر عن الحزب أو الرئيس الذي يحكم ، ف«الدولة العميقة» كقيلة بإجهاض أو إضعاف تأثير الأحزاب والحكومات لأنّها مترسّخة منذ أن أسس مصطفى كمال الجمهورية التركية في عام 1924 .
والمؤكد أنّ العلاقة بين «الدولة العميقة» والديمقراطية لم تكن دائماً «يبدأ واحدة» ، فقد أجهضت الدولة العميقة تجارب الأحزاب التي لم ترض عنها مثلما جرى عام 1997 مع حزب الرفاه التركي بقيادة الرّاحل نجم الدين أربكان ، حين كشرت «الدولة العميقة» عن أنيابها وأقالت الحكومة فيما عرف بـ«انقلاب الجيش الأبيض» الذي نجح عبر قوته السياسية وليس بحركة ألياته _ أن يُقيل الحكومة.

في المقابل نجح حزب العدالة والتنمية في تحقيق المعجزة التركيبية المتمثلة ليس فقط في معدلات التنمية الاقتصادية المرتفعة ، ولا في حجم الإصلاحات السياسية والديمقراطية ، إنما في ترويض جانب من هذه «الدولة العميقة» حين قدم تجربة مدنية وديمقراطية خرجت من رحم المرجعية الحضارية الإسلامية ، وتجاوزت الاستقطاب الإسلامي العلماني الذي استنفر الدولة التركيبية العميقة على مدار عقود .

وكان الأمر ملاحظاً بشكل واضح في حالة الثورة المصرية إسقاط رأس الهرم ولكن بقيت جذور النظام ضاربة أطناها في كل المؤسسات المهمة (إعلام ، قضاء ، أمن ، جيش ، شركات) الأمر الذي سهّل على الدولة العميقة الالتفاف على الثورة وإعادة الشعب إلى حظيرة الطّاعة ، فلم تكن الدولة العميقة عميقة إلا بمقدار سطحيّتنا وسداجة الشعوب . وقد ساهمت الحالة الحزبيّة في تسهيل الالتفاف على الثورة فصوروا الأمر أنّه تحرّك ضد الإخوان وليس ضد الثورة ، وخُدع الكثير بذلك ، وهذا كان من الأخطاء الفادحة للإخوان عندما تفرّدوا بالمواجهة ولم يُحسنوا المجابهة الشعبية التي تخفف حالة الاستقطاب وتشتت ذهنيّة الذئاب المستشرسة بتفريغ الضغط من رأس الطليعة الثورية وتوزعها على مساحة الحاضنة الشعبية .

لقد خسر الثوار جولتهم الأولى في الربيع العربي مع الأنظمة العربية لأنهم اتجهوا إلى مواجهة النتائج دون اجتناب للأسباب وإلى تسكين العرض دون علاج المرض ، وبقيت كل الأدوات تعمل على إعادة إنتاج الطغاة لتدخل على ثورة الشعوب من الثغرات الخلفية .

4_ أزمة هُدْرِ الطّاقات في الصراعات الجانيّة والمعجزة وتركك التحديات الممكنة :

نُقسم التحديات التي تواجهها الجماعات الإسلاميّة إلى ثلاث أنواع :

- 1_ تحدّي تافهٍ يواجهه أصحاب الهمم القاصرة وعشاق الاستعراضات (قتل ابن سلول تحدّي تافه) ، الدخول به ينتج عنه تلقي اللوم ونتائج عكسية ومفاسده أكثر من مصالحه غالباً .
- 2_ التحدي الممكن يواجهه أصحاب الهمم العالية والنظرة العقلانيّة (قطع الطريق على القافلة في بدر تحدّي ممكن) ينتهي بالنصر وغالباً غالباً .
- 3_ التحدي المعجز يواجهه المُنبئون والمُنتظّمون (إعلان الحرب على المشركين في مكة تحدّي معجز) ينتهي غالباً إلى اليأس والتنازل والقنوط .

هناك بعض الجماعات لم تبلغ من التنظيم عدد الكف الواحدة ويرفع شعار فتح أمريكا وإسقاط البيت الأبيض ! يجب أن تتصافر جهود الأمة لرسم خارطة استراتيجية تحدّد الرؤية وتدرس الإمكانيات والمراحل الذي سيمرّ بها العمل ، والتحديات التي تحول دون تحقيق الأهداف وكيفية تجاوز المعوّقات وتجهيز خطة بديلة عند اللزوم ، وتحديد الأهداف مرحليّة والأهداف الاستراتيجية ضمن فقهٍ للسُننِ دون مغالبةٍ أو قفزٍ أو حرقٍ للمراحل وتحديد دائرة الثوابت والمتغيرات وأن تتحوّل هذه الدراسة إلى مشروعٍ أمةٍ وليس فصيلٍ أو تيّارٍ بتبسيطها وتقريبها للأذهان وللعوام من أجل أن يكون تبنيها من الأمة واستثمار كلّ الطاقات الساكنة والمعطّلة والمهدرة في مواجهات بينيّة ، وتوجيهها إلى معركة نهوضٍ حضاريٍّ لا تستثني أي جانبٍ من جوانب الصّراع ، ولا تستثني أي طاقةٍ من طاقات الأمة ، ويتم ذلك من خلال توظيف كلّ جماعةٍ في الشّعْر الذي تتميزُ به ، واعتبار ما غالت به هو تميّز بحيث يتم ذلك بتحريكٍ منسجمٍ ومتناغمٍ ويترك للتفاعل الحركي موازنة هذه الجوانب التي تطرفت بها كل جماعة حتى تعيدها إلى نصاب الاعتدال والوسطية ، فقد ثبتت بالتجربة والبرهان أنّ الخطاب البسيط والواضح هو الأكثر تأثيراً في الرأي العام وحشد التأييد الشعبي .

5- أزمة الحلول الإلهامية والافتقار لمراكز الأبحاث :

العقلية القياسية في مثل هذه الأحوال لا تُجدي نفعاً ، لأنها تعطي حلاً واحداً لمشاكل مُتعددة تخالفاً متشابهةً دون أن تُلاحظ الفروق الدقيقة ، فيكون كالعطار الذي يصف دواءً واحداً لمئات العُلال لأنَّ الحرارة مرتفعة وهو يجهل منشأها فينتج لعلاج العَرَض دون المرض ، ويجعل من الجسد حقلاً للتجريب ، لذلك لا يمكن طرح أي حلٍّ قبل تشخيص المشكلة بشكل علمي معتمد على الدراسات والأرقام والمعطيات وبمنظرة شمولية ، أما الانطباعات والرَّجْم بالغيب والافتئات على الأمة فلا ينفَع في المسائل العظام ، بل قد يُضاعف المشكلة .

بعض الجماعات ممن ليس لديها مرجعية علمية راسخة تتعامل في علاج النوازل بالهواجس والقياس على تجاربها الفاشلة الخاصة بها .

هناك نقص حاد في مراكز الأبحاث والدراسات التي تزود الحركة الإسلامية بتصويرٍ دقيقٍ للواقع المفعم بالنوازل حيث القضايا المستجدة ، ناهيك أننا لا نتعامل مع لغة الرقم ، ونكتفي بالانطباع الشخصي في التقدير بعيداً عن الإحصاء واستطلاعات الرأي ، وبالهامات الفقيه والسياسي المغامر !

6- أزمة انحراف البوصلة عن المسار وتضييع الهدف المقدر إلى الهدف المُعجز :

بدأت الثورة السورية بشعار بسيطٍ ومُجمعٍ عليه من السوريين : "إسقط النظام" . حتى جاء المزادون والمنبئون ليحرفوا المسار عن الهدف المتفق عليه إلى أهدافٍ تتناسب مع مشاريعهم السياسية والأيدلوجية ، وأفهموا البسطاء منّا أنّ هدف إسقاط النظام هدفٌ تافهٌ مخالفٌ لشرع الله ، وطرحوا البديل وهو أهداف متعددة تبعاً لتعدد الأحزاب التي تطرحها ، من إقامة الدولة الإسلامية وتبني الجهاد العالمي ، وإسقاط طواغيت العالم وقيام الخلافة الراشدة ، وغالباً ما كانت تُطرح هذه الأمور من المخترقين ، وبذلك تمّ القفز على الهدف المرحلي والممكن ، إلى الأهداف الاستراتيجية المعجزة في حدود الإمكانيات ، الأمر الذي أوجد بذور الصراع بين أبناء الثورة الواحدة ، وانتهى بالافتتال .

إنّ انعدام الرؤية لدى هذه الأحزاب جعلتها تنظر إلى إسقاط النظام على أنه هدف غير شرعي ، وبذلك تقوم هذه الأحزاب بممارسة الابتزاز الديني على شعوبٍ مسلمة تنساق لكل ما يثير فيها الحسّ الديني ، فأعطوا لوجهة نظرهم بُعداً شرعياً ، وليت الأمر يتوقف هنا ، بل بُعداً عقدياً بحيث يكون المخالف منزلقاً في مزالق الكفر والمروق !

ولو تأملوا قليلاً لعلموا أنّ إسقاط النظام ليس إسقاط حاكم ، إنّ إسقاط النظام هو إسقاط منظومته الأمنية والإعلامية والمشيخية والاقتصادية والفكرية ، وذلك لا يتم إلا بإرجاع الهوية المسلوبة للسوريين وعودة الإسلام بدون مزادات ، وهذا يتوقف على مدى استيعاب هذه الأحزاب لأبعاد الصراع ، كان من الممكن لهؤلاء الممنهجين أن يُعزّزوا هدف إسقاط النظام بإعطائه بُعداً حضارياً وفكرياً ، ولكن شهوة التشبّع بما لم نعطي تأبى علينا أن نتصور صوابية مسار العامّة وخطأ ما عندنا نحن النخبة .

ضبابية الرؤية لأصول الشريعة ومقاصدها العليا وانعدام الحدّ الفاصل بين الثوابت والمتغيرات تجعل المواقف مضطربة وغير منضبطة في تحديد الأهداف ، وغياب مبدأ الأولويات في اختيار الهدف القريب المرحلي وتمييزه عن الهدف البعيد والاستراتيجي وعدم التمييز بين المهم والأهم والممكن والمعجز ، هذه العوامل وغيرها كفيلة بصناعة حالة غنائية يتضخم فيها الكم على حساب النوع ، ويسري إليها الوهن وفوضى عارمة يصعب على النخب حلّلتها بدون بناء رأي عام يدعم رؤية هذه النخبة ويوليها ثقته

ويقف معها لإزاحة هذه الحالة الغثائية وتحويل الحالة الغثائية إلى مرحلة تدافع سُنيّ يُمهّد لمرحلة تمكين سنني وفق ضوابط الشريعة والنواميس الرّبانيّة في الوراثة والتمكين والاستخلاف .

7- أزمة فقد الحاضنة بين الفعل ورد الفعل :

احتقار الإرادة الشعبية مقدّمة لاستعدادها

تعامل أغلب الحركات الإسلاميّة مع الحاضنة هو تعامل الوصيّ على القاصر ، أو تتعامل على أنّها صاحبة حق إلهيّ في اقتياد الأمة ، مما يكرّس مفهوم الطبقية لا بالمفهوم الاقتصاديّ وإنّما بالمفهوم التمايز النخبويّ .

للأسف تعامل الجهاديون مع قضية كسب الحاضنة الشعبية ضمن منطق الفعل ورد الفعل المبالغ فيه ، ففي حين انبثحت بعض القوى المحسوبة على الإسلام السياسيّ لحملة الديمقراطية واستسلموا بشكل كامل لرياحها الهوجاء التي عصفت بالعالم منذ قرن وحتى الآن ، كان رد فعل الجهاديين هو الرفض الكامل للاعتراف بأهميّة البُعد الشعبي وتماسك الصف الداخلي في إقامة الدولة التي ينشدونها ، واعتبروا مجرد الحديث عن الحاضنة ضرباً من الانبطاح لفكرة الديمقراطية ، وبدؤوا يؤسسون لفكر سياسي وفقه غريب يقوم على "إمارة المتغلّب" و"إدارة التوحش" ، وصارت التنظيمات هي إطار عملهم المفضل الذي حافظوا عليه حتى في زمن الثورات والربيع العربي على الرغم من ضرره البالغ وربّما القاتل على الثورات ذات الطابع الشعبي الجماهيري ، مع أنّ إمارة المتغلّب تعامل الفقهاء الذين أطروا لها كأمر واقع فُرِضَ على المسلمين ، ولم تكن أبداً من صفات الدولة الراشدة على منهاج النبوة التي ينبغي السعي إليها ، بل نصّ الفقهاء الذين صححوا إمارة المتغلّب أنّه متى تم تيسر خلع المتغلّب بدون فساد ودماء والإتيان بخليفة عن طريق الشورى فإنّه يجب نزع المتغلّب حينها ، فكيف يكون المتغلّب هو ما يصبو إليه الجهاديون ويحلمون به، وأما "إدارة التوحش" فهو عبارة عن أدبيات الحرب الشيوعية بصبغة إسلاميّة ولا تحمل فكراً ينيّر لدولة راشدة .

الذي أراه أنّ مكان كسب الحاضنة الشعبيّة في العمل الإسلاميّ ليس كونها مصدراً للشرعية كما في الديمقراطية ، بل أراها سبباً مادياً لا يمكن الاستغناء عنه شأنها في ذلك شأن السلاح والمال الذي لا تستغني عنه حركة جهادية ، بل أراها أهمّ من ذلك كله .

الحاضنة الشعبية مثل الجسم البشري ، الجماعات هي أعضاء منها ، فالمتجانس يذوب في منظومته ويعتبر أصلياً ، والذي يأبى الدخول في منظومة الجسم مع عدم الإصرار على تسييره وفق قانونه هو فحسب ، يُعتبر جسيماً دخيلاً يُلْفُظُه بعنف أو يحصل انقلاب غير صحي يُفضي إلى خسائر كبيرة على الكل !

هذا من تشابه السنن الكونيّة في المواد والأمم ، لا يمكن أن نتوقع من جماعة إسلاميّة منظومة الفقه السياسي لديها قائمة على إمارة المتغلّب وبيعة الإكراه وتهزيل الشورى وتضييق نطاق أهل الحلّ والعقد وتأييد السلطة ودمج السلطات أن تصطلح مع الحاضنة الشعبية وأن لا تكون إقصائية ، وأن لا تزرع بذور الاقتتال الداخلي في الصف الإسلاميّ .

من هنا نعلم أن ليس كل من حمل السلاح على المجاهدين يحمله على الإسلام ، وهذا ما يحاول البعض تصويره ، بل تسبب بذلك أقوام أجزموا بحق الناس باسم الجهاد وسكت عنهم الآخرون بحجّة عدم شقّ الصّف ، فنتج عن هذا السكوت أنّ شرعوا لهم تجاوزاتهم ، حتى تحولت التجاوزات إلى مناهج يستدل لها .

8_ أزمة المصطلحات

استعمال المصطلحات الإسلامية الكبرى على معطيات فارغة المضمون هزلٌ مرفوض .
إنّ الحضارات الغالبة هي من تقوم بإنتاج المصطلحات وتصديرها وفرضها على الأمم المغلوبة
دون أن يدرك المهزومون مضامين هذه المصطلحات .

بدأ سرّ الاستخلاف لآدم عليه السلام بضبط المصطلحات ، قال تعالى :

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)

إنّ ضبط الاسماء في دلالتها على التسميات مفتاح ضبط العلوم والمعارف ، ولا يُمكن لعلمٍ أن يستقيم إلا بضبط مصطلحاته ،
وكثير من الأحكام الشرعية تندّد عن الصواب بسبب الخلط في هذا الأمر .

لقد بدأ بنو إسرائيل بتزوير حقائق الدين بإنزال أسماء جديدة على مسميات منضبطة للتندُّع إلى تحليل الحرام وتحريم الحلال ،
سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ ، يَقُولُ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ قَالَ : " قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ، إِنَّ اللَّهَ لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا ، أَجْمَلُوهَ ،
ثُمَّ بَاعُوهَ فَأَكَلُوهَا تَمَنَّهُ "

ولو كانت تسمية الأوهام بالحقائق يعطيها الشرعية لكان عبادة الأصنام محقين في عبادتها بعدما سموها آلهة ، ولكن الله تعالى
أبطل زيفهم :

{ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى (21) تِلْكَ إِذْ قَسَمَ صَبْرَى (22) إِنَّ هِيَ إِلَّا
أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى {
(النجم)

لم يستعمل القرآن الكريم مسمى يثرب إلا مرّة واحدة على لسان المنافقين :

{ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ
يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا { الأحزاب .

مما يدلُّ أن المنافقين يتحاشون استعمال المفاهيم والإسلامية والاستعاضة عنها بمفاهيم جاهلية .

أمرنا تبارك وتعالى بمخالفة أهل الكتاب باستخدام كلمة "أنظرننا" بدلاً من كلمتهم "راعنا" ، بالرغم من أنّ المعنى اللغوي المحض
مشترك بين الكلمتين ، فقد قال عز من قائل : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ {

(البقرة:104)

فكيف بالله عليكم ، حين يتناقض المدلول كلياً ، بين المصطلح المؤصل شرعاً ولغة ، والمصطلح الوافد من بيئة لا ترجو الله
وقاراً ، بل من مناخ تخصّص في صكّ مفاهيم ومصطلحات لتزوير الحقائق والعقول؟

الاعتبار من التجارب السابقة يُرشدنا إلى الحكم في المواقف الحاضرة ، ولكننا أمة مصابة في ذاكرتها .

وهنا يبدو خلطٌ آخر عند الكثير في فهم القاعدة التي تعارف عليها العلماء (لا مُشاحّة في الاصطلاح) .

فهل فهم هذه القاعدة على إطلاقها فهل يُجوز لنا أن نستعير عن المصطلحات الشرعية المنصوص عليها بأسماء من عندنا

نصطلح عليها ونقول لا مشاحّة في الأمر ، مع المخالفة للوضع اللغويّ أو العرف العام والأصول الشرعية ؟

فبِئْسَ طَائِفَةٌ بَدِيعَةٌ مَارِقَةٌ سَمَّتْ نَفْسَهَا بَدُولَةَ الْخِلاَفَةِ وَإِمَارَةَ الْمُؤْمِنِينَ مُخَالَفَةً شَرِيعَةً .

وهنا لا بدّ لنا أن نميّز بين الاسم الشرعيّ والوجود الكوني ، الخلافة والدولة الإسلامية اسم شرعي ، ولكن هل وُجِدَ المسمى

الكونيّ حتى ينزل عليه الحكم بشروطه وخصائصه المادية؟

هل تسمية الشجر جبلاً يُغيّر من حقيقتها؟ وما يُعني حزب الشيطان أن ادّعى نفسه حزب الله! إنّه لا يعدوا تشويهاً للحقيقة وقلباً للمفاهيم فحسب. لقد جاء في السنة النبوية النَّهي عن التلاعب بالمسمّيات: عن أبي هريرة (لا يقل أحدكم للعنب الكرم ، إنّما الكرم قلب المسلم) .

إنّ خلاصة خلافنا مع مُدّعي الخلافة أنهم سمّوا أو هامهم بتسمياتٍ شرعية ، وأرادوا أن يُلزمونا بلوازم وجود الخلافة من الطّاعة والبيعة وإقامة الحدود وتنفيذ أحكام الإمامة على باقي الفصائل .
وأما دعوى التمكين التي يدّعونها فزيفٌ باطلٌ ، وقياسٌ دولتهم على دولة المدينة من حيث الجغرافيا والعدد والعُدّة التي بحوزتهم فمُغالطةٌ باطلةٌ لاتنطلي إلا على أحمق ، لأنّ الأصل في التمكين أن تُقارن بين ما تمتلك من قوّة وأسباب وبين المحيط المصارع لك ، وهذا هو فحوى التّمكين ، فالتّمكين ليس محدداً شرعيّاً ، وإنّما معطياتٌ واقعيةٌ .
إنّ تلاعبهم بالمصطلحات يُذكّرُك بذلك الطالب المُحتال الذي أراد أن يتقدّم لامتحان الرسم وهو لا يُحسنه ، فطلى الصفحة بالسواد القاتم ، فلما سأله المدرّس عن معنى رسمته قال له أنّه غرابٌ يطير في الليل!
نُتوّهُ أنّ كثيراً من الأحزاب الإسلاميّة بات يُعطي للمفاهيم الإسلاميّة مضامين ما يتعارف عليه العوام ، مثل توصيف حدّ الفساد في الأرض على ما يطلقه العوام على الفساد ، وكما يُفسّر بعض الأحزاب الراية العميّة بالخرقة القماشية الخاصّة بالفصائل ، ولكنها عند العلماء الغاية من القتال ، أو كَتَوْصِيفِ المداراة والثّقفة السياسية ممن يُخاف منهم ضرر على المسلمين ولاءً للكفار ثم يترنّب عليه التكفير .

9_ عُقْدَةُ الْحَزْبِيَّةِ وَأَزْمَةُ التَّحَرُّبِ (عُقْدَةُ الْعُقَدِ وَمَوْلِدُ الْأَزْمَاتِ)

العُقْدَةُ الْحَزْبِيَّةِ وَالْحَمِيَّةُ الْحَزْبِيَّةُ لا تختلف كثيراً عن الحميّة الجاهليّة والعشائريّة ، المتحرّبون قبائلهم اليوم هي أحزابهم ، لذلك نجدها تنتج كل ما تنتجه العصبية الجاهليّة من التناصر على الباطل والنّد عن الإنصاف للمُخالف والشّعور بالاستعلاء على الغير .
الحزبيّة أم الأمراض ومولّد الأزّمات .

التحرّب على جزء من الدين وهدر الأجزاء الأخرى من سنن الأمم البائدة ومدعاة للاحتراب الداخلي بين الجماعات المتحرّبة ، قال تعالى : { فَانْسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ } .
وهذا من معنى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :

"لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، شَبِيراً بِشَبِيرٍ ، وَذِرَاعاً بِذِرَاعٍ ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَاتَّبَعْتُمُوهُمْ" فَلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيْهَذَا وَالنَّصَارَى؟ قَالَ "فَمَنْ؟" [البخاري] .

الحزبيّة هي من أهمّ الأمراض التي سرت إلينا من الأمم السالفة ، وبعدها تظهر الآفات الناتجة عن علّة التحرّب من التمنهج والتعصّب والإقصاء وحصر الحق بالحزب وادّعاء الحق المطلق وتبرير الأخطاء بالمسحة الكربلائية .

أول حالات الخصومة بين المجتمع المسلم والجماعات الإسلاميّة تبدأ من تسمية الجماعة :

إذا كنت من الإخوان المسلمين لا يعني أن غيرك من إخوان الشياطين!

وإذا كنت من أنصار الشريعة لا يعني أنّ غيركم أعداء للشريعة!

وإذا كنت من جماعة التوحيد لا يعني أنّ غيركم من جماعة الشرك!

وإذا كنت من جماعة الجهاد فلا يعني أن غيركم من جماعة الخذلان!

إنَّ التربية الحزبيَّة تتضخم في بداية إنشاء التنظيم لكسب الولاء وترسيخ القاعدة الصلبة ، ولكن عندما تتجذَّر تصبح من أكبر العوائق في مشروع توحيد الأمة .

حالة الوعي في الأمة تبقى هي حالات فردية وحالات اللاوعي هي الحالات الجمعية .

لذلك على الأمة أن تبحث عن عُلمائها قبل أن تبحث عن أحزابها .

سقوف الأحزاب متدنية لا يمكن أن تستوعب القامات العالية لذلك ، لم يتعايش كثير من العلماء في الأجواء الحزبيَّة وأثروا العمل خارجها ، فكان المجال للمنظرين المتعصِّبين الذين يُتقنون فنَّ الدعاية السياسيَّة والتبشير بمبادئ الحزب ، في هذه الأجواء التعصبية يتعملق الأقرام ويُقرَّم العمالقة ويسقط الرَّموز . لو كان المنظرون للجماعات الإسلاميَّة يُرتجى منهم حلّ مشاكل الأمة لحلّوا مشاكل الأحزاب الإسلاميَّة فيما بينها البين .

منشأ التحزّب :

قال تعالى : { إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ } [المؤمنون : 52]

وقال تعالى : { فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } [53 المؤمنون]

جاء بقاء التعقيب لإفادة أنَّ الأمم لم يترَيثوا عقب تبليغ الرّسل إليهم أن تقطعوا أمرهم بينهم .

المعنى : قطعوا أمرهم بينهم قطعاً كثيرة ، أي تفرقوا على نحَلٍ كثيرة فجعل كلَّ فريقٍ منهم لنفسه ديناً مجتزأً من أصل الدِّين أو بالتحريف والتبديل .

{ أمرهم } : دينهم الذي أمرهم الله تعالى به .

{ زُبُرًا } : بضم الزاء وفتح الموحدة وهو جمع زُبرة بمعنى قطعة .

جملة { كلَّ حزبٍ بما لديهم فرحون } : تذييلٌ لما قبلها ، لأنَّ التقطع يقتضي التحزّب ، فذَيَّلَ بأنَّ كلَّ فريقٍ منهم فرحٌ بدينه ، ففي الكلام صفة محذوفة لـ {حزب} ، أي كل حزب منهم ، بدلالة المقام .

والفرح : شدة المسرّة ، أي راضون جَدَلون بأنهم اتخذوا طريقتهم في الدِّين . والمعنى : أنهم فرحون بدينهم عن غير دليلٍ ولا تبصّر بل لمجرد العُكوفِ على المعتاد . وذلك يُؤمى إليه {لديهم} المُقتضى أَنه متقرّرٌ بينهم من قبل _ أي بالدين الذي هو لديهم _ فهم لا يرضون على من خالفهم ويُعادونه ، وذلك يُفضي إلى التفريق والتخاذل بين الأمة الواحدة وهو خلاف مراد الله ، ولذلك ذَيَّلَ به قوله : { وإنَّ هذه أُمَّةٌ واحدةٌ } .

الأمة في مفهوم المتحزبين قد لا تتجاوز الأعضاء المنتسبين لحزبهم ، لذلك ترى في أدبياتهم أنه لا زال للأحاديث التي تحضّر على الاتصام بالجماعة وفضلها واجتماع الأمة والتناصر والموالات كلها يُنزلونها على جماعتهم .

10_ أزمة التنظيم والاختراق الفكري لأيديولوجيا الأحزاب :

الاختراق الذي أصاب أمّتنا لم يتوقف عند صفوف القيادات بل تعدّاه إلى المناهج الفكرية والعقدية ، فظهور الفتاوى المخابراتية هي نتيجة طبيعية للاختراق التنظيمي والفكري .

غالباً ما يعتمد المخترقون في إفسادنا على تأصيل الفتاوى الشاذة واستحياء الفقه الميّت وجعله الأصل لتأجيج النزاعات الخادمة .

كانت ظاهرة عبد الله بن سبأ أول حالة اختراق للفكر الإسلامي ، وقد نَفَذَ من قضيةٍ تُثيرُ عاطفة المسلمين ، الغلو في محبة آل البيت ، كما يَنفَذُ الغلاة من قضية العقيدة الصافية وتصحيح العقيدة الباطلة .

لذلك عند الإصابة بالاختراق الفكري لن يجدي الإصلاح التنظيمي نفعاً ، لأن أدوات إنتاج الخلل موصولة وخفية .

مِيزةُ الإسلام أنّ الاختراق الفكري لا يمتدّ إلى نصوصه ولكنه يبقى في دائرة الفهم ، وغالباً ما تتشكل منه طائفة مبتدعة ، لذلك تجد أنّ أصول تشكّل الفرق الضّالة هو اختراق فكري ، رغم كلّ السريّة التي تحيط نفسها بها بعض الجماعات الإسلاميّة تظلّ مكشوفة للغرب وغامضة بالنسبة لنا ، وهذا يعكس خلل في طريقة التجنيد والانضمام وتبوء المراكز القيادية ، ويعكس مدى تغلغل الغرب في هذه التنظيمات .

الاختراق الفكري عندما تتلقى منه الدين والفقهِ ويتصدر مركز التوجيه والارشاد يجعلك تُنفذُ العمالة للخصوم دون أن تعرف أنّك عميل ، بل تعتقد أنّك تدينُ الله تعالى بذلك ، ولرُبَّ فكرٍ فاق فتكهُ أسلحة الدمار الشامل .

وغالباً ما تجد أنّ العناصر المخترقة للتنظيم تتبنى خطاباً متشديداً أو متعصباً للأيديولوجية الحزبية ومُزاودةً بها ، مما يُكسبها ثقة العاطفين ويُسهّل مرورها للصفوف الأولى ومركز اتخاذ القرار من التنظيم وصولاً إلى اختطاف التنظيم إلى المسار المجهول .

عندما يستطيع أصحاب المصالح المتعارضة اختراق تنظيمٍ ما تبدأ الصراعات الداخلية في التنظيم تبعاً لتناقض الأجنادات المتبوعة إلى أن ينتهي أمرها بالفناء بعد أن يتحول إلى شركة مخابرات متعددة الجنسيات ، وينتهي من حرق الطاقات الفتية للشباب المسلم في أتون المشروع الإسلامي الموهوم بعد صرفهم عن المشروع الرشيد ، ذلك أنّ الأغرار كلما رأوا مجسماً مغفلاً بمشروع إسلامي قالوا (هذا ربي هذا أكبر) فإذا أقل قالوا لا نحبّ الأفلين .

11_ اختراق القاعدة الصلبة في التنظيمات ومن ثم خطفها :

أي تنظيم حتى يضمن استمراره يجب أن يتشكل من القاعدة الصلبة أولاً ، والدائرة المرنة ، ولبناء القاعدة الصلبة وسائل لا بُدّ منها من توحيد مصدر التلقّي وتكثيف التربية والإعداد الإيماني والعزلة عن الآبار التربويّة المسمّمة لأجل توحيد مصدر التلقّي والتوقّي من التهوّك والصبر على الابتلاءات وتحقيق اللّحمة والأخوة بين أفرادها ، لا بُدّ من التربية ، والتربية غالباً ما تكون في أتون المحن في فرن الابتلاء ؛ لأنّ الإنسان عندما يدخل هذا الدين أو يبدأ يكون لينةً لينةً لا بُدّ أن توضع هذه اللبنة في الفرن حتى تجفّ ، وإلا لا يمكن وضعها في بناء كبير عظيم لأنّ فوقها سيكون ثقلٌ كبير ، فلا بُدّ أن تكون صلبة خاصّة أحوار الزوايا والأعمدة ، والطلائع الأولى دائماً هي الأعمدة للدعوات والمجتمعات ، ولكن تحت ضغط المنافسة بين الحركات الإسلاميّة في حشد الأتباع وسرعة الانتشار وتكثير الأعداد استعاض كثيرٌ منها عن تربية العلماء والتأصيل العلمي بالمشافهة والتلقّي وخوض التجارب التي تصقل النفس والقلب ، الأمر الذي يأخذ وقتاً طويلاً ، إلى تربية الإصدارات المرئية والصوتية التي تعتمد على المؤثرات الصوتية والإثارة البصرية وتُهيجُ العواطف لتلبية الوجبات السريعة للمُنبتئين على حساب التربية والإعداد ، هذه النوعيّة من الاتباع لا يمكن أن تشكل القاعدة الصلبة التي تقوم عليها الأمّة والتي تثبت أمام فتن الشهوات أو الشبهات ، بل ربّما يتحوّل الكثير منها إلى خنجرٍ في خاصرة الأمّة ، وما حلت مصيبة على كاهل الأمّة إلا من هؤلاء .

والمصيبة الكبرى عندما يصل أمثال هؤلاء إلى الصّف الأول بعد تحية الأباء المؤسسين وخطف التنظيم ، لتتحوّل الجماعة إلى كتلة مرينة قابلة للاختراق حتى من الخصوم بعد أن فقدت جهازها المناعي بالانفصال عن العلماء والعلم .

12_ أزمة الفكر :

الأحزاب تشكل تُلجّات فكرية لأنّها تعمل ضمن إطارات محددة ومناهج تصل إلى القداسة ، فكل محاولة للمناقشة تنظر إليها بعين الرّيبة والسّمح بذلك سيخلق جماعات داخل الجماعة الواحدة لذلك نجد فيها أنواع من هذه العقليّات :

1_ العقلية القياسيّة :

عقبة كبيرة أمام الحلول الإبداعية لأنّها تبحث دائماً عن نقاط التشابه بين التجارب ، فحالها يشبه حال العطار الذي يَصِفُ دواءً واحداً لكل العِلَلِ لمظاهر التشابه بينها من ارتفاع الحرارة وغيرها ، لأنّ القياس الأصوليّ مبنيٌّ على فرع وأصل وحكم وعلّة مشتركة ، فيلحق الفرع بالأصل للعلّة المشتركة ، هذا النوع من العقلية جيدة للتعايش في الأجواء الحزبيّة التي تسعى إلى تعميم الصبغة واللون بفكر واحد. ولكنها لا تنفع في مواجهات التحديات ذات المنشأ المركب ومعرفة النّسب التي تتشكل منها الأزمة الكلية من اجل ان نحدد نسب العلاج على ضوء معرفة مركب الأزمة فلا نتطرف في مواجهة أزمة وترك أخرى لما نتوهم انها أحادية التركيب العقلية القياسية ليست سوى أحد مقومات النظر ولعلها آخرها ترتيباً ما يعكس فهم السلف لحجمها دون استغراقها نظر الباحث . ولعلها في النظر للعبارة تصبح متفكّة وطبيعة التاريخ الذي يكرر نفسه وإلا ماكانت دعوة القرآن للسير في الأرض حجراً وبشراً للاعتبار والعظة ما يؤكد التشابه والتكرار في التجارب والطبائع وحقائق السنن .في مشهدها العام مع بعض الخصوصيات المستخفية

2_ وهناك العقلية الفروقية :

التي تغرق في التماس نقاط الاختلاف بين التجارب والحوادث فيتعذر عند ذلك الاستفادة من التجارب السالفة ، وهذا خللٌ واضح لأنّ البيان القرآنيّ يسرد الكثير من القصص التي هي محلّ اعتبار . وقد أطنب بهذا العلم _ علم الفروق _ الإمام القرافي المالكي (في كتابه الفروق) ، مثل هذه العقلية لا يمكن أن تعيش في الأجواء الحزبيّة ابداً ولا يمكن الاستفادة منها الا في لفت الانظار لأوجه الاختلاف بين مشكلة واخرى حتى لا نقع في خطأ تعميم العلاج والحكم . دائماً الجماعة المنتفعة من التجربة تميل إلى القياس عليها والمتضررة منها تميل إلى تبين الفروق والاختلاف في الثورات العربية كانت عقلية الشعوب عقلية قياسية في ثوراتها ومحركاتها للثورة التونسية وظنوا ان الأمر سينتهي في كل الدول كما هو في تونس وكانت عقلية الأنظمة عقلية فروقية (مصر ليست تونس وليبيا ليست مصر وسوريا ليست ليبيا) هذه كلمات شاعت في خطابات الأنظمة في مواجهة الثورات ولكن سرعان ما تبين لاصحاب البصائر نقاط تشابه ونقاط اختلاف خصوصاً في البعد الجيو سياسي وهذا ما تدركه العقلية الاستحسانية على طريقة الاصوليين

3_ هناك العقلية الاستحسانية :

التي رفضها أهل القياس وقالوا من استحسّن فقد شرّع ، ولعلمهم قصدوا الاستحسان الذي لا يشهد له دليل . العقلية الاستحسانية تقوم على حصر أوجه الشبه مع أوجه الاختلاف في القضية وبناء الحكم بموجب هذه المقارنة . الأصوليون يعرفون الاستحسان بأنّه : " العُدولُ عن مُقتضى قياسٍ جليٍّ إلى مُقتضى قياسٍ خفيٍّ لعلّةٍ تُصَرِّفُ القياس عن ظاهره " فلا هي تبني حكمها على القياس والشبه ولا على الاختلاف والفرق .

لذلك جاءت الشريعة بالعدل ، الشريعة لا تجمع بين مختلفين ولا تفرق بين متشابهين .

العقلية الاستحسانية تنظر إلى الجزء المخفي من الحقيقة أكثر من الجزء الظاهر منها ،

العقلية الاستحسانية تنقب عن العناصر التي تشكل الأزمة وفق تحديد نسبي .

هذه العقلية ممكن أن نستفيد منها في مشروع الاصطفاف السنّي الذي لا يعني بالضرورة غمط كل حسنة للأحزاب وتضخيم كل

سيئة ، ولكن ننظر إليها بنظرة متوازنة تقارب بين الميزات التي يعمل على تعزيزها وبين العلل التي يعمل على تلافئها .

- وعندما تكتمل للمجتهد أو الباحث ميزة كل عقلية فقد اكتملت له أدوات النظر والترجيح ومؤهلات ترتيب الأولويات وتقدير

الموازنات وبالتالي النظر في المآلات ، فإذا توفر لأمة ذلك أفراداً وجماعات فإن منطق تغليب المصلحة المعتبرة يصبح حاكماً

دون اصطدام يُجَلِّ بَغَاية الشريعة انتلافاً لا اختلافاً ، اعتصاماً لا تفرقاً .

وهنا تصبح العقلية الاستحسانية هي ما ينبغي تربية الأمة عليها حساً وعقلاً ، جمعاً بين ميزات وتحصلاً لامتيازات كل عقلية ،

تأهيلاً للأمة نحو الصعود يترتب عليه إن شاء الله شهود حضاري .

ضوابط للتفكير تضبط فهم الواقع :

الخطأ القاتل في تفكيرنا يأتي من :

1_ نسف القاعدة بالمثل الشاذ (ترك الجهاد لوجود مجاهدين سيئين).

2_ تأصيل القاعدة بمثل شاذ (الخوارج على حق لأنهم يخشعون في صلاتهم أو لأنهم شجعان في قتالهم) .

الالتزام بقواعد التفكير الشرعية .

إذا كنت مدّعياً فالدليل ، أو كنت ناقلاً فالصحة .

لا يستلزم من عدم الوجدان عدم الوجود .

ما ثبت بعلة يزول بزوالها ، فالحكم يدور مع علته (الجهاد عبادة معللة ، وليست تعبدية لا حكمة ولا علة فيها)

لذلك تجد أنّ الظاهرية سمة للتفكير الخارجي فهم أبعد الناس عن التعليل والقياس .

أخطر ما تمارسه الأحزاب هو التصلب الفكري وإعطاء المنهج المستخلص من اجتهادات المنظرين درجة القطع وإدخاله في دائرة

العقيدة ، والتبرّم والتسفيه لكل رأي مخالف ، لذلك على هذه الأحزاب أن تحذر على نفسها من مطّبين خطيرين في تقرير

مناهجها:

1- القطع حيث أن الأدلة لا تسعف إلا للشك أو للظن على أقصى تقدير (لذلك يجعلون من اجتهاداتهم ثوابت يقينية)

2- الشك والظن حيث يجب القطع وإعطاء المتيقن حكم المظنون .

3- تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية .

عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفريعية المغرقة بالفروع ، تسبب في تفتيت الوحدة

الثقافية للعاملين في الحركة الإسلامية فهم عرضة للاختصاص أمام أتفه اختلاف فرعي

الأمر الذي أدخلنا في فوضى التنظير والإسقاط .

12- أزمة في غياب الرؤية :

حتى تعود الأمة الإسلامية إلى مقام الأستاذية يجب أن تمتلك الرؤية ، والرؤية تتشكل من ثلاث قراءات :
وقد ابتليت هذه الأمة بالرؤية :

- الحولاء ، كمن تركوا أعداء الأمة ودخلوا في صراعات داخلية .
 - والرؤية الفاصرة التي ترى المكسب الآنية وتغفل عن الخسارة الاستراتيجية .
 - والرؤية العمياء التي تعتمد على حواس غيرها في رؤية طريقها كمن يرى قضايا الأمة بعيون الغربيين .
- هذا الحول والقصور والعمى الفكري لا بد من علاجه ب :

1_ قراءة السنن الثابتة في النهوض والانحطاط الحضاري ، قال تعالى (فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأُولَيْنِ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا) (فاطر 43) ، والسنن قوانين صارمة لا تجامل ولا تتبدل ، تعطيك تصور حتمياً وواضحاً عن نهوض الحضارات والدول وأولها بسببية متلازمة لا تنفك أبداً بين مقدماتها ونتائجها ، فالدول والحضارات لا تبنى بالسنن الخارقة وإنما بالسنن الجارية .

2_ قراءة التجارب السابقة والاعتبار منها ، قال تعالى (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ). [يوسف:111]

الغالب من الأمة لا يعتبر من التجربة ، لذلك تلاحظ أن الاعتبار من التجربة السابقة هو من صفات أولي الألباب ، { لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب } ، أما عوام الأمة فلا يعتبرون إلا من التجربة الذاتية ولا يتعلمون إلا من رصيدهم الخاص ، هنا مهمة أولي الألباب إرشادهم إلى هذه الفريضة المغيبة ، فريضة الاعتبار التي غطت أمام اهتمام المفسرين بالسرد القصصي للقصص القرآني ونقل ترقيعات إسرائيلية ليكملوا بناء القصة وتغيب الاعتبار والعبور من تجارب التاريخ إلى فهم الواقع .

3_ قراءة النصوص التي تتكلم عن عودة الإسلام وظهوره ونصره بعد الغربة والانزواء واستنباط المواقف منها ، لكن الأمة اليوم تهدر السنن بالمغالبة تارةً وبالقفز عليها تارةً أخرى لتحرق المراحل ، وتقرأ القصص القرآني للتسلية والوقوف على الغرائب، ونسأل: ما لون كلب أهل الكهف مثلاً ، دون اعتبار من التجارب ، وهناك من يهدر الفائدة بقوله: شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا .

أما أحاديث الفتن فقراءتنا لها أشبه بالشعوذة ومحاولة التكهّن بالغيب عندما نعجز عن فهم واقعنا دون وضعها في مسارها الصحيح وتميز الثابت منها مما لم يثبت أو صريح المعنى من غيره ، فصارت كثير من الجماعات تستدل على صحة مسلكها بإنزال أحاديث الغيب والفتن على جماعتها .

الفصل الثاني

تيارات إسلامية بين الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ

كل من ينحرف عن جادة الصراط المستقيم ينحرف إما بشهوة أو بشبهة .

انحرافات الجماعات الإسلامية على ثلاث ضروب :

1- انحراف نحو الاعلى (كتحريف الغالين)

2- انحراف نحو الاسفل (كتأويل الجاهلين)

3- وانحراف تجانب (كانتحال المبطلين)

ومَرَدُ ذلك إلى غياب التقوى عن القلوب التي تلجم جموح الشهوة ، ونقص في الإدراك والعلم الذي يعصم من مزلق الشبهة . مشكلتنا أننا عندما أتينا لنحارب الإرجاء أصلنا لفكر الخوارج ونسبناه لمعتقد أهل السنة ظناً منا أننا بذلك نكون قد قضينا على الإرجاء ، ولم ندرك أن الإرجاء هو أحد منعكسات الفكر الخارجي ومتولد عنها بردة فعل عكسية إذ لكل فعل رد فعل مساوٍ له بالقوة ومعاكس له بالاتجاه ، ولو أبطلنا شُبه الخوارج لهدأت ثورة التكفير تلقائياً ، ولتجففت مستنقعات الإرجاء التي تتغذى من مفرزات الغلو . ومن الملاحظ أنّ أغلب الجماعات الإسلامية التي اتجهت في مسار الجهاد كانت حاضنة لشبه الغلاة ، وأغلب الجماعات الإسلامية التي اتجهت في مسار السياسة كانت حاضنة للارجاء . ما يجب أن نجزم به بداية أن نعلم أنّ ليس المجاهدين كلهم غلاة ، وليس كل المرجئة عبيداً للطواغيت .

أولاً : الشبهات

منشأ الشبهات هو عدم الرسوخ في العلم وشيوع الشبهة بين العامة عندما يتصدر من لم يرسخ في العلم للتعليم والإرشاد واتخاذ الرؤوس الجهال .

لا يمكن للأمة أن تنعيق من التبعية والخضوع إلا بكسر شوكة اليهود الضاربين بأطنابهم في مفاصل القوة العالمية، ولن يكون ذلك إلا برفع راية الجهاد الرباني (غير المتحزب) والدعوة الربانية (التي لا تدعو إلى حزبية) ، لذلك كان بقاء إسرائيل مرتبطاً بكسر راية الجهاد ، المرجئة نكسوا الراية والغلاة شوها صفاها . في التاريخ اقتران مطرد بين افتراق المسلمين وخروج المارقة ، وبين اجتماع المسلمين وانحجارها . الجامع المشترك لشُبه الخوارج أنها خلل في التأصيل وأخطاء في التنزيل .

1_ شُبْهَةٌ يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْخَوَارِجُ :

يذكرون في قواعد التكفير (من لم يكفر الكافر أو شك في كفره فقد كفر) [1] هو مثال للتخبط والجهل في هذا الباب ، فظاهر القاعدة تكفير من لم يُكفِّرِ الكافر ، مع أن بعض المُكفِّرات تنازع العلماء في كونها مكفِّرة _ كَتَرَكِ الصلاة مثلاً_ ، فهل يلزم تكفير من لم يُكفر تارك الصلاة وهم جمهور العلماء؟! جاء المرقِّعون أصحاب التأصيل ليحلُّوا المشكلة ، وضعوا قيد الكفر المجمع عليه أو الكفر القطعي ! وهذا الكلام يجعل من القاعدة بأقل تقدير لغوياً لأنَّ إنكار أيِّ شيء من قطعيات الدين كُفْرٌ مهما كان هذا القطعي ، سواءً كان حرفاً من حروف القرآن ، أو تكفيراً لكافر ، مما يجعل عدم تكفير الكافر وصفاً غير مؤثر في المسألة ، ووضع الوصف غير المؤثر في الضابط لغوً عند أهل الأصول ، وأيضاً يُعني عنه قاعدة "من أنكر قطعياً من الدين فقد كفر" ، فبينها وبين تلك القاعدة بالضابط الذي ذكروا عموم وخصوص وجهي ، فصار أصل القاعدة لغوياً ، والقيد هو الأصل ، ويُعني عنه قاعدة أخرى!
كتبه (أبو أيمن الحموي)

2_ شُبْهَةٌ خَارِجِيَّةٌ :

يأتي البعض إلى أحاديث الطائفة المنصورة والفرقة الناجية واعتبروها منهجاً ونبراساً لهم وصاروا يستدلون بها على واقعهم ، ويجدر هنا التنبيه إلى أنَّ من العلماء كالشاطبي رحمه الله ذكر أن الخوارج هم أكثر الناس استدلالاً بأحاديث الطائفة المنصورة!! الغريب في الأمور أنهم أسأوا فهُم سيقاها واعتبروا العلامات التي فيها شروطاً وموجبات وخلطوا بين الأمر الشرعي والأمر الكوني . وبيان الأمر أنَّ ما يرد في كلام الشارع أحياناً يكون من باب العلامات وأحياناً يكون من باب الموجبات ، فوضع هذي مكان تلك يَجْرُ للخطأ ، فإخبار الشارع للنبي صلى الله عليه وسلم أنَّ قومه سيخرجونه مثلاً ، هذا أمر قدري لكنه شرعاً غير مطلوب ، بل إنَّ عليه أن يعمل على عكسه وهو البقاء في مكة ودعوة أهلها فلا ينبغي أن يخرج منها تحقيقاً للخبر ! والمتأمل في نصوص الطائفة المنصورة يجد مفارقة بين النصِّ وما يُنزَلونه عليه من واقع .
(لاتزال) تفيد الاستمرارية ، أي أنها كانت ولا زالت ، والتاريخ يشهد أنَّ الذين حملوا راية الجهاد في كثير من حقب التاريخ من الصوفيَّة وليسوا من السلفيَّة الجهادية . فلن تستطيع جماعة ما أن تدعي لنفسها أنها حاملة لواء الجهاد في كل التاريخ الإسلامي .
(من أمتي) ولم يقل لا تزال أمتي طائفة ، فالطائفة المنصورة من الأمة وليست كل الأمة . فهل يعقل أن تختزل الأمة بجماعة ثم تدعي هذه الجماعة لنفسها أنها هي من تمثل جماعة المسلمين؟!
(ظاهرين على الحق) فحكموا لتنظيماتهم بالعصمة بناء على هذه الجملة من أنَّ الحق ملازم لطائفتهم ، الأمر الذي صدَّهم عن

مراجعة مناهجهم .

فما قولك في قوم يعتبرون التصنيف على لوائح الإرهاب العالمية مأثرةً يتفاخرون بها ويوزعون الحلوى لأجلها ، بدل أن يوزعوا على أفرادهم أذكار الهمِّ والكرب ويعلموهم أن يفزعوا للصلاة ويسألوا الله أن يكفيهم شر أعدائه !! بل ويعتبرها كثير منهم دليل صلاح منهجهم أن الأمم تكالبت عليهم !!

(لا يضرهم من خالفهم) فجعلوا كل من يخالفهم من الجماعات الإسلاميَّة الاخرى هو ممن خذل الحق وحاد عن الجادة والصواب.

3_ إسقاط أصل من الأصول الكلية :

عندما نُحدّث السلفية الجهادية أنّكم توجدون الذرائع وأمريكا والغرب للتدخل في بلاد المسلمين ، يأتيك الرد: أمريكا لا تحتاج للذرائع ، والذريعة هي أمر غير ممنوع في نفسه ، ولكن يُخافُ في ارتكابه الوقوعُ في ممنوع .
وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على اعتبار الذرائع ، قال الله تعالى: { **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** } (الأنعام: 108) ، فمنع من سبّ آلهتهم مخافة مقابلتهم بمثل ذلك .
ومن السنة نهية - صلى الله عليه وسلم - عن تصوير من مات من الصالحين وبناء المساجد عليهم خشية أن يعبدوا .
وقد جعل الأئمة هذا المبدأ من القواعد الكلية التي يُرجع إليها لاستنباط الأحكام الشرعية .
عند الإمام مالك وأحمد بن حنبل.

4_ شبهة خارجية :

تُروج بين الخوارج مقولة "لا يفتي في الجهاد إلا من جاهد" أو "لا يفتي قاعد لمجاهد"
الأثر الذي يعتمد عليه سفهاء الأحلام في تسوّر الإفتاء : إذا اختلف الناس فانظروا ما عليه أهل الثغر، أو فاسألوا أهل الثغر، فإن الله يقول: { **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** } ، اختلف في نسبته ولكن كلّ أسانيده لا تصحُّ أبداً .
هذه الشبهة تقضي إلى إسقاط المذاهب الأربعة كون الأئمة الأربعة لم يكونوا من المجاهدين ، ومن الأمثلة على شبهة حصر الفتوى بالمجاهدين ونسف علماء الأمة أنهم - أي الخوارج - يفتون برِدّة الجاسوس المسلم ، وهذه الفتوى مخالفة لما عليه المذاهب الأربعة عند أهل السنة ، لذلك تجد للخوارج تعامل مزدوج مع النصوص الشرعية بطريقتين :
1_ النصوص التي يفيد ظاهرها التكفير تبقى على ظاهرها ولا يقبلون بفهم السلف إذا كان هذا الفهم يصرفها عن ظاهرها ، ويُعملون معول الطعن في صحة الرواية كما ضَعَفُوا أثر ابن عباس في تفسير { **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** }
2_ الروايات والأحاديث التي تعذر من وقع في الكفر أو الكبيرة يعملون معها مسلك التأويل لصرفها عن ظاهرها وإن لم يكن لهم بذلك سلف ، كصرفهم لحديث حاطب عن ظاهره وإبطال الاستدلال به بحُجّة أنّها خصوصية لحاطب ، وكحديث الرجل الذي أوصى أبناءه أن يحرقوه بعد موته خشية لقاء الله .
هناك مقولات تعتاش عليها الأقزام وإن قالها أئمة أعلام :
مثل (نحن رجال وهم رجال) (لا يُعرَف الحق بالرجال) (كل الناس يؤخذ منها ويرد عليها) (إذا صح الحديث فهو مذهبي)
(أنت الأمة ولو كنت وحدك)
هذه الكلمات صرنا نسمعها حتى ممن لا يحفظ متناً واحداً في العلم .

5_ شبهة خارجية :

عمد البعض إلى تسفيه آراء الأغلبية المسلمة وحصر الشورى في أهل الحلّ والعقد ، وهو يقصد بأهل الحلّ والعقد في جماعته طالما أنّها هي بعينها تمثل جماعة المسلمين ، وقد حشد لذلك أدلة يظن أنّها تسعفه بما يبغى ظناً منه أنه قد ألقم مخالفه الحجر ، وبالنظر إلى ما استدلل به تجد أنّه عمد لآيات نزلت في الكفار فجعلها على المسلمين ، مثل قوله تعالى :
{ **وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّلْمَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ** } [الأنعام:116].

{ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } [يوسف : 103] .

المتتبع لهذه الآيات يجدها تتناول الكفار وليس المسلمين فضلاً أن تتناول الطليعة المؤمنة .
صدق ابن عمر إذ قال (أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في المشركين فجعلوها على المؤمنين).

6_ الاحتجاج بالحكم الكوني على تجويز الحكم الشرعي :

شبهة خارجية في الخلط بين الحكم الكوني والحكم الشرعي .

دأب كثير من أبناء الجماعات الإسلامية إلى تبرير تصرفاته بالحكم الكوني لكسب الشرعية .

إنّ الخلط بين الحكم الشرعي والحكم الكوني مطبّ خطير يقع فيه كلّ من لم يرسخ بالعلم في أحد كتب فقه الجهاد .

أتى المؤلف واسمه أبو عبد الله المهاجر على دليل من السنة على جواز القيام بأعمال تفجيرية ولو اختلط الكفار بالمسلمين وقُتِلَ من الطرفين ثم يحشرون على نيّاتهم ، ولم نر له سلف في ما جاء به من فهم .

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يغزو جيش الكعبة ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض يُخسف بأولهم وآخرهم ، قالت : قلت يا رسول الله : كيف يُخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : يُخسف بأولهم

وآخرهم ثم يبعثون على نيّاتهم" صحيح البخاري .

فإن الحكم الكوني هو ما قدر الله تعالى أنّه سيحصل وقوعه فعلاً ، فإذا حكم كوناً بوقوع شيء فلا بد أن يقع ولا يستلزم ذلك

محبه، فقد يحكم الله كوناً بوقوع ما لا يرضاه لحكمة يعلمها سبحانه وتعالى .

وأما الحكم الشرعي فهو ما طلب الله من العباد تطبيقه والعمل به من الأحكام الشرعية ، وهذا لا يستلزم الوقوع ، إذ قد يقع وقد لا

يقع ، فقد أمر الله أبا جهل بالإيمان ولم يؤمن .

ثانياً - الشهوات :

شهووات نفسية تقع فيها الجماعات الإسلامية

هَوسُ السلطة وإقامة الدولة في مرحلة ردِّ العَدُوِّ الصائل سيجعل الجماعات الإسلاميَّة تدخل في صراع بينيَّ ، وتعكف على مشاريعها الخاصَّة ويبقى شعار رد الصائل مطية . والنتيجة ، لا هي للصائل ردت ، ولا لدولة الإسلام أقامت ، { ولاتنازعوا فتفشلوا } .

الحكم والسلطة هو الوسيلة وليس الغاية (أغلب الحركات الإسلاميَّة وصل إلى السياسة الميكافيلية - الغاية تبرر الوسيلة) ، وتغليب شهوة الحكم بِمُسُوْح تطبيق الشريعة صارت خدعة لا تنطلي على أحد ، وُحْجَّة يتذرع بها العلمانيون للطعن في العاملين الصادقين للمشروع الإسلاميَّ فهناك علاقة تخادم بين العلمانيين والغلاة في السعي إلى السلطة . الغلاة يستعملون بعبع العلمانية للاستبداد بالسلطة ، والعلمانيون يستعملون بعبع الغلاة للاستبداد بالسلطة . إخلاف وعد واحد من تنظيم إسلاميَّ كافية لإسقاط كل الإنجازات التي غالباً مدرجة الصحيح التي يحققونها على الأرض لأنك تتعامل مع شعب عاطفي سريع النسيان للحسنات .

وفي سبيل ذلك استعملت كل التجاوزات الشرعية لتثبيت الحكم وبررت أنَّها للمصلحة الشرعية ، فوقعوا بطاغوت المصلحة الذي كانوا ينكرونه على غيرهم .

حتى الحسنات التي تنجزها الجماعات الإسلاميَّة تُنحوا منحىً الدعاية السياسية ، فتجد أنهم يحرصون على حسنة بين كل سيئتين تبرّر ما قبلها وتمهد لما بعدها .

شهوة الاستكبار على العامَّة بما لديهم من علم واغترارهم أنهم الطائفة المنصورة المحققة وأنَّ اجتهاداتها هي دائماً الصواب جعلتها تعيش في برج عاجي .

الفكرة السلطويَّة بذاتها أشغلت العقول ، فالكل يبحث عن دولته التي يستطيع أن يقيم فيها أيديولوجيته ويصارع المنافسين له .

الذي يريد أن يقيم الإسلام لا يُفكر بالدولة بل يُفكر بالأمة لتقيم هي الدولة .

الدولة هي البيت الجامع للأمة وليست شقة خاصَّة للحزب والجماعة .

تقييمُ التجارب السابقة :

التجارب الخاصَّة للجماعات الإسلاميَّة إنَّ كُنَّا نختلف على فشلها أو نجاحها هي بالتأكيد ليست مصدر للتشريع يجب الاحتكام إليها .

نحن نذكر هذه الأخطاء لتفاديها وإصلاحها ، ونذكر الأساليب البالية المستهلكة من أجل تبديلها ، كما نذكر تلك المفاهيم الخاطئة كي يتم تصحيحها .

ليس المقصود من البحث في التجارب تبين عور الجماعات التي نختلف معها ، إنما هو تصحيح مفاهيم وتصويب أخطاء وتلافي ثغرات وترتيب أوراق وتنسيق الأولويات .

لأبدٍ من غرس مفهوم أنَّ مَسِيرَ أيِّ جماعة إسلاميَّة هو مسيرٌ اجتهادي يعتريه الصواب والخطأ ، وقبل ذلك مسير بشري قد يعتريه الهوى ونقص العلم ، وإلا ستتحول الجماعات لأصنام على المصلحين تحطيمها .

تُحجّم كثير من الجماعات عن الاعتراف بأخطائها وتخشى من استغلال هذا الاعتراف في تفكّك تنظيماتها ، لذلك تجدها تدافع بطريقة تبريرية مضحكة لأخطائها ، بل وتجعل منها إنجازات تريد أن تُمدح بها وتتغنى بها .
إنّ العلاج من الأمراض يُمرّ بثلاث مراحل أساسية ، بعد التوكل على الله وطلب العافية والشفاء منه .
أولها : الاعتراف بحالة المرض ونية العلاج .

وثانيها : مراجعة الطبيب الثقة الأمين المؤمن ، وكشف العيوب والعلل والنقائص عليه ، بلا وَجَلٍ ولا استحياء منها ، حتى ولو كانت فيما يُستحيا منه من العورات .

وثالثها : تناول الدواء ولو كان مرأ ، بهمة وصدق وعزيمة على بلوغ العافية .

وقد يكون لفت النظر إلى العيوب والنقائص من خارج الصف مزعجاً ، فلو تيسّر الإصلاح من داخل هذه الأحزاب لكان أكثر نفعاً ، ولكن نحن أمام مشكلة أخرى وهي أن المتحزب لا يرى الآخر إلا بعيون حزبه .

هناك من الأخطاء ما هو منهجيّ ، وهذا يكون من صُلب المنهج يصعب تصحيحه إلا بمراجعة لأخطاء المنهج والشبهات الذي تسير عليه الجماعة ، ويتّسم هذا الخطأ بالتركرار والارتكاب له يكون جماعياً .

وهناك من الأخطاء ما هو سلوكي ينتج عن خطأ في الاجتهاد ، أو نتيجة شهوة نفسية من فرد من الأفراد يتصف هذا الخطأ أنّه فردي غالباً وغير متكرر ويمكن علاجه بمزيد من التربية السلوكية والتوعية العلمية .

لكن في أجواء العصبية الحزبية كثيراً ما يتحول الخطأ السلوكي إلى خطأ منهجي .

أحياناً تقع الجماعة في خطأ سلوكي فتكون طريقة الحل غير شرعية ، تبدأ بالإخفاء له عن عيون الناقدین بحُجّة عدم الكلام بأخطاء المجاهدين ، فإذا انكشف الأمر وكان في طور الشك بادرت الجماعة إلى النفي والتكذيب ، فإذا وُجّهوا بالأدلة يبدؤون بالتبرير بالأدلة الشرعية حتى يُشَرَعَنَ الخطأ ثم يتحول الخطأ إلى منهج .

أنواع الأخطاء والثغرات التي طرأت خلال مسار هذه الجماعات :

1- أخطاء في التفكير والتأصيل 2- أخطاء في التنظيم والتكوين 3- أخطاء في الممارسة والتنفيذ

1_ خطأ في طريقة التفكير وتصوره للمسار (خلل التفكير) :

(نمو الفكر الخارجي في الجماعات الجهادية ونمو فكر الإرجاء في الجماعات السياسية)

1_ تَسْرُبُ أفكار التشدد إلى مناهج بعض الجهاديين : الأمر الذي انعكس في الترخص بالدماء والأموال بعد التكفير .

2_ غلُو بعض الجهاديين المتأخرين في التعصب المذهبي لمفهومهم عن (السلفية) وإبطال المذاهب الأربعة والتقليد المذهبي ، الأمر الذي انعكس على الممارسة بحيث يجرأ الصغار على الرد والترجيح والإفتاء .

ظهور ما يسمى أخوة المنهج بدلاً من أخوة الدين يُدلل على تنامي النظرة الحزبية لدى التيار ، وأخوة المنهج نظرية تقوم على (أن الجهاد يجب أن يكون سلفي الراية ، وأن تكون قيادته سلفية التركيب ، وأحكامه سلفية المنهج ، وأن يكون كل شيء بالدليل ، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفياً فمن باب الحاجة ، ولكن ليس لهم أن يكون لهم من القيادة شيء وإتّما نقودهم لأداء فريضة الجهاد ، طبعاً وليس كل السلفيات تصلح لذلك ، حتى ليس كل السلفيات الجهادية تصلح ، ولا يزالون يُضَيِّقون حتى يقتصر الأمر على فئة بعينها ومرجعيتها بعينها وراية بعينها) .

2_ أخطاء واخل في بنية جسمه وقصوره عن الأداء الصحيح (خلل البنية) :

1_ المشاكل التي تآتت عن السرية :

لا يمكن إنكار مبدأ السرية في العمل الإسلامي ، وقد مرّ في كثير من التجارب التاريخية والسيرة النبوية خصوصاً الاجتماع في دار الأرقم والأمنيات المتبعة في الأعمال العسكرية ، ولكنها سرية تُمارس على العدو المتربص وتعمية الأخبار عن عيونه ، لكننا اليوم نلاحظ أنّها سرية تمارس على المسلمين بل حتى على أبناء التنظيم نفسه ، مما يُضعف الثقة بين أبنائه ، حتى وصل الأمر أن الدروس الشرعية تلقى بشكل سري على أبناء التنظيم .

اليوم نجد أنّ العدو المسلح بوسائل الاتصال التي يستعملها القادة يستطيع اختراق السرية بسهولة وتنفيذ عمليات اغتيال من خلالها. الإغراق في السرية في عمل الجماعات يفسح المجال أمام نسج الخيال وبث الشائعات المغرضة عن تلك الجماعات ، وهذا الأمر يدفع الجمهور للتصديق لكل الأساطير والشائعات .

يجب ألا تكون المرحلة السرية في الدعوة ممتدة إلى ماشاء الله ، ولا بأس بسرية العمل والتنظيم عن عين العدو مع الجهر بالدعوة.

2_ المشاكل التي تآتت عن البنية الهرمية والإشكالية الأمنية :

بُنيت جميع التنظيمات الإسلامية السياسية والجهادية وما شابهها بأسلوب هرمي .

إن هذا الأسلوب في البناء الحركي يتمتع بصفة القوة من حيث الأحكام والسيطرة ، لأنّ الأوامر تصدر والبرامج تقرر ، وتنزل من الأعلى للأسفل ، ثم تتابع بعض الطريقة ، وترجع التقارير أو النصائح والمقترحات وغير ذلك بالعكس بمرونة وسرعة .

ولكن مثل هذا البناء يتميز بالضعف الأمني ، وبعدم صموده للمواجهات الأمنية الاستخباراتية ، خصوصاً بعد ما أثبتت أجهزة الأمن والحكومات الطاغوتية ، ثم قوى الكفر ، المحاربة للظاهرة الجهادية واستعدادها لكل أشكال البطش والتعذيب الجسدي والنفسي ، وحتى لاستخدام المخدرات والعقاقير لاستخراج المعلومات ! وهكذا لم يصمد معظم المعتقلين عن الاعتراف بأكثر ما لديهم من معلومات أو بأكملها ، أو بالإضافة عليها لإرضاء الذئاب الضارية من الجلاديين المتحفرين لانتراع ذرات المعلومات من قعر ذاكرة المعتقل ، بل من تحت أظافره لو احتاج الأمر وبسلخ جلده إن لم يكف ذلك .

3_ أخطاء في أسلوب السير ورسم الخطوات غير المتناسب مع الطريق (خلل الأسلوب والعمل) .

1_ العجز عن إمكانية وضع استراتيجيات عمل نتيجة عدم توفر معطيات ذلك لأسباب إمّا خارجية وإمّا داخلية ، وتحول العمل لمجموعة من اليوميات والقرارات العشوائية أحياناً .

2_ فتح معارك جانبية مع شرائح من مدارس الصحوة الإسلامية أوقع قطاعات مختلفة من الشعب ومكوناتها السياسية أو الاجتماعية دون ضرورة لذلك ، معارك جانبية من قبيل الإشكالات المذهبية والعقدية والسياسية ، وعدم التحكم في وحدة اتجاه المعركة تجاه العدو الأساسي المتمثل في الحكومات الطاغوتية والصائل الخارجي المتحالف معها .

- 3_ الفشل في صياغة خطاب إسلاميّ يحشد التأييد الشعبي للقضايا الإسلاميّة والافتقار لفنّ الإقناع والافتقار في عملية الإقناع على تصنيف الناس على أساس الولاء والبراء بين مُرجئٍ ومنافقٍ ومبتدعٍ وصحواتٍ ومرتدٍ ومشروعٍ مرتدٍ .
- 4_ ممارسة البراء والولاء في حدود التنظيم الحزبيّ وليس في حدود الانتساب للأمة مما يتسبب في حفر الأخاديد الفاصلة بين الجماعات والأمة والعيش في غربة الانتماء والهوية .
- إنّ التجارب الجهادية والسياسية الفاشلة والمتكررة تدعونا إلى أن نُزيحَ السفهاء عن إدارة دفة القافلة الإسلاميّة في مسيرتها نحو التحرر والخلّاص ، والذي كان للحزبية حصة الأسد من أسباب فشلها .

الفصل الثالث

الفقه الحركي والانتقال من فقه الجماعة إلى فقه الأمة

لقد حُوِّرَ معنى الفقه في الدين الذي دلَّت عليه الأدلة المتضاربة على عظيم فضله لينحصر في زاوية فقه الأحكام ، وهذا لم يكن شائعاً عند السلف الصالح ، بل هو يشمل الفقه الشمولي ، وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم في حديث معاوية في الصحيحين : **{من يُردِ الله بهِ خَيْراً يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ}** ، فليس المعنى في هذا الحديث : أن يُفَقِّهُهُ فِي الدِّينِ ، أي : أن يجعله عالماً بالحلال والحرام فقط ، كلا ! بل المعنى أشمل من ذلك ، فالمعنى أنّ من أراد الله به خيراً جعله عالماً في الدين كل الدين ، ومن ذلك ، الفقه الحركي للجماعة الذي يتناول التكاليف الجماعية من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الشرع وعقد الإمامة والقيام بالفروض الكفائية من عمارة الدنيا لتصل الجماعة به إلى التمكين وسيادة الشريعة .

سعة الفقه وأوجه الاجتهاد المعتمدة فيها متسع لتبني رؤية تستند إلى وجه من الوجوه . والخيارات الفقهية مما يميز الإسلام السني . وليس عيباً تلك السعة ، إنما العيب أن تتضارب فيما بينها ، وأن تغيب إرادة التعاون والتكامل بما لا يفوت على الأمة مصلحة . وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر ، وتحمله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لما تنته بعد .

وفيما بين ابن المبارك والفضيل بن عياض درس ونموذج للاقتداء دون نكير أو تبكيت كل في مساره يدعم الآخر . آفة الحكم على المواقف والخيارات رغبة محمومة لدى كل الأطراف في التنقيص والتبخيس ، وليس الوقوف على قواسم مشتركة .

ولعل حالة التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مسارات واتجاهات دون محاولات لتفهم الدوافع والأسباب .

ولعل أيضاً حالة التسيّب من تصدر كل أحد للرأي والنظر هو ما يشغب على أكابر العلماء في إشاعة وإعلان ونشر آراء واجتهادات معتبرة لو تحقق لها ذلك ، لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد . وتحقيق معنى الاستخلاف يتشكل من استيعاب عشرة أنواع للفقه :

- 1- **فقه المرحلة** : وهذا يحتاج للمقارنة بين الإمكانيات والتحديات لتحديد المرحلة ومتطلباتها واتخاذ الموقف المناسب ، والتميز بين مرحلة القوة ومرحلة الضعف ، وساحة الدعوة وساحة الجهاد .
- 2- **فقه المال** : وهذا يحتاج إلى النظر في النتائج التي تُفضي إليها المواقف والأعمال المشروعة في أصلها ، ولكنها قد تؤدي إلى نتائج ومفاسد تفوق المصالح المبتغاة منها ، فيكون تحريمها ليس لذاتها وإنما لمآلاتها والتي تدرك من خلال الاطراد والعادة .
- 3- **فقه المصلحة** : وهذه يجب أن تنضبط بضوابط المصلحة المرسلة في أصول الفقه التي لم يدل الدليل على اعتبارها ولا على إلغائها بنصّ ، وجعل مسلك النظر والاستنباط هو المسلك في تحديدها .
- 4- **فقه التأليف** : وهو تابع للمصلحة ، فاجتماع الأمة وتآلفها مصلحة لا تفوقها أي مصلحة ، وفي ذلك قد يجوز لنا السكوت عن بعض المنكرات وتأجيل بعض السنن التي ربما تؤثر على التآلف بين المسلمين الذي يشكل لنا فريضة متقدمة على كثير من السنن فلا يجوز ان نهدر اجتماع الأمة من اجل سنة او مندوب .

5- **فقه التغيير** : وهذا أيضاً له قواعده، لا يجوز تغيير مُنكّر يؤدي لمنكّر أكبر منه أو أنكر ما اختلف فيه العلماء أو البحث عن منكر مستخف ، وعلى العامل به أن يتسلح بالعلم قبله والرفق فيه والصبر بعده ، ويجب أن يبدأ من عالم الأفكار والعواطف قبل السلوك .

6- **فقه الأولويات** : من أين نبدأ ومتى نبدأ ، كذلك يحدده سلم الأولويات في أصول الفقه .

ولدى النظر في احوال الجماعات الإسلامية نرى أن غالب اختلافهم هو اختلاف في تحديد الأولويات ،
منها من يولي الجهاد الأولوية الأولى ،
ومنهم من يجعل التمسك بالهدي الظاهر أولوية تُقدّم على غيرها ،
ومنهم من يرى الدعوة وتزكية النفس على رأس الأولويات ،
ومنهم من يرى مشروع الخلافة والنظام السياسي الإسلامي تاج الفروض .

7- **فقه التمكين** : وذلك بتحديد نقاط القوة عندنا ونقاط الضعف وقياس ذلك على المحيط المصارع بعد تحييد أكبر عدد من الخصوم ثم الخروج بالنتيجة .

8- وهناك **فقه الموازنات**

الموازنة بين المصالح والمفاسد ،
والموازنة بين المصالح والمفاسد ،
والموازنة بين المفساد والمفاسد، ثم الترجيح بينها باختيار أصلح المصلحتين وأخف المفسدتين .

9- **فقه المقاصد**: وهذه هي الأهداف العامة للاستراتيجية التي يجب أن يتبنّاها هذا التيار، وهي ضابطٌ للتحرك في إنزال أحكام الفروع على الواقع، والإمام الشاطبي علم في هذا المضمار، وهذه الضروريات هي: (حفظ الدين والنفس والعقل والنسب والمال).
حفظ مقاصد الشريعة يكون بأمرين :
أ_ من جهة الإيجاد بإقامة أركانها وقواعدها .

ب_ من ناحية منع انعدامها وما يدرأ عنها خلال الواقع والمتوقّع ، فحفظ النفس من الضروريات الخمسة، حافظت الشريعة عليه من جهة الإيجاد بتشريع الزواج ومن جهة الاستمرار ومقاومة العدم من خلال إمداد النفس بالغذاء ومقومات البقاء .
المسارُ الصحيح في إقامة الشريعة هو ربطُ الأحكام بالمقاصد، وهذه الثغرة التي أتت منها الجماعات الإسلامية التي تنظر إلى الأحكام الجزئية منفصلةً عن مقاصدها، الأمر الذي يوقعها في هدرٍ أصل كُليّ لتحقيق فرعٍ من الفروع والسير في تطبيق الشريعة مسير الاصطدام والتنطع.

في فقه المقاصد قد يَرْتئي الفقيه إلغاء فرع أو تأخيره وتقديم آخر أو ارتكاب محظورٍ بناءً على نظره في المال، أو المقارنة بين المصالح والمفاسد المترتبة على هذا الفرع وما قد يضر الإتيان به من خللٍ في المقاصد الكلية .
لم يكن قيام الدولة الإسلامية والإمامة مقصداً شرعياً بحدّ ذاته إلا لرعاية وحفظ مقاصد الشريعة من الأنفس والأعراض والدين والمال، فإذا تسبّب إيجاد هذه الدولة بهدرٍ الأعراض والدين والأنفس فيبطلُ المُكْمَلُ لاختلال الأصل كما ذكر الإمام الشاطبي في أول باب المقاصد (الموافقات) .

10- **فقه السنن الربانية** في نهوض الأمم وهلاكها التي تتسم بسمتين : الثبات والاطراد .

11- **فقه النفس والتزكية**، والاجتهاد في ذلك ضاع بين الإفراط والتفريط ، وسنتحدث عن هذا الفقه بإسهاب في الفصول الآتية.

غياب المرجعية العلمية الربانية وتصدر الرؤوس الجهال من المنظرين المتحزبين :

تكاد تكون علاقة الحركات الإسلامية مع علماء الأمة علاقة انفصال تام ، الأمر الذي يجعلهم في عزلة تامة عن الأمة التي ترتبط بعلمائها أكثر من أي شيء آخر ، ناهيك عن أنّ العلماء لا يمكن أن يتعيشوا في الأجواء الحزبية القائمة على تلقي الأوامر وتنفيذ الأعمال . إنّ السقوف المتدنية لا يمكن أن تستوعب القامات الطويلة ، وحتى يعود الأمر إلى نصابه وجب على الحركات الإسلامية أن تتبّع العلماء وليس العكس ، هذا الأمر دفع الكثير من الأحزاب أن يصنعوا مرجعية علمية مصطنعة على أذواقهم تُغذي العصبية الحزبية وتقوم على سدانها وحراستها وتأصيلها في نفوس الأتباع ، لذلك فقدت هذه الجماعات صمام أمانها فهي عرضة للانفجار في أي لحظة في وجه الأمة .

ولأنّ المنظر المتحزب يرى الحقائق من خلال عيون من يحب ، فيندّد عن الإنصاف ويفقد ثقة قطاع كبير من الأمة بسبب تحزبه، فصارت تنظيراته المتحزبين سبباً لدخول الجماعة في صراع مع أمتهم بعد أن صارت عقيدة الولاء والبراء مقتصرة على أبناء التنظيم لا تتعداهم ، ويعبرون عن ذلك بإخوة المنهج .

وما صنمئة المنهج هذه إلا فتنة سامريّ يفرقون بها بين المرء وأمته .

هذا ما دفع البعض للطعن في علماء الأمة الحريصين على اجتماع الكلمة الحاملين للواء الإصلاح ووآد الفتن لكي يُمرّر منهجه الحزبيّ ، ولجأ البعض إلى تفصيل مرجعيات متناسبة مع مقتضيات المصلحة الحزبية .

بعض الأحزاب الإسلامية تشابه اليهود ببهتانها ، لو وافقهم طالب علم بهواهم قالوا عالمنا وابن عالمنا ، ولو خالفهم بمسألة واحدة قالوا جاهلنا وابن جاهلنا ، فمن يبحث عن العالم الربانيّ بين المتحزبين هو كمن يبحث عنه بين علماء السلاطين ، حتى أنّ بعض الأحزاب شابّهت وزارة الأوقاف لدى الطغاة ، حتى في كتابة ما يُراد من العالم أن يتكلم عنه وما يُراد له أن يسكت عنه ، وما أسهل من قرار الطرد إن حادّ عن المطلوب والمسار المحدّد .

قال الإمام أحمد رحمه الله : " إذا سكت العالم تقيّةً وتكلم الجاهل بجهله ، فمتى يظهر الحق؟ "

يلتجئ الناس إلى العلماء في الفتن لأنّ العلماء يُبصرون الفتنة قبل أن تقع ،

أما العوام فيدركون الفتنة عند وقوعها ،

وأما الحمقى فيدركون الفتنة بعد وقوعها ،

وأما المتكبرون فلا يعترفون بوجودها ،

هنا لا بدّ من توجيه كلمة للمدارس المنتجة لطلبة العلم .

إنّ العقلية المنتجة في كل المدارس الشرعية هي مدارس تصنع طلاب علم تنتظر التلقّي وترديد ما تتلقاه ، فأغلبها عقلية تقليدية لا شأن لها بالإبداع والاستنباط ودراسة الحالات الطارئة والمستجدة ، لذلك تجد أنّ موقفهم في كثير من القضايا المستجدة موقف مرتبك ومتردد ، وغالباً يتشكل بعد فوات الأوان وانسياقاً لرأي العوام الذين يدركون الموقف ببساطة الفطرة .

يجب أن لا يدفعنا الخروج من الصنمية إلى إسقاط الرموز ، ولا يصل بنا تقديس الرموز إلى نصب أصنام جديدة .

الدعوة الربّانية والدعوة الحزبيّة

لا يمكن القضاء على الدعوات الحزبيّة إلا بتجذير الدعوة الربّانية .

يُراد برّبانيّة الإسلام انتسابُ الإسلام و أحكامه وتشريعاته المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية .
الربّانيّة شيء مغايرٌ تماماً للحزبيّة .

الانتساب والاستمداد والدعوة والجهاد المنتفي عن الإطارات الحزبيّة الضيقة التي تُأزّم علاقة الأمة ببعضها وتسمح بوجود
ثغراتٍ ينفذ منها الأعداء والحكومات الوظيفية .

يجب أن تدرك الأمة أنّ قيام جماعة من الأمة لتحمل قضية الإسلام من دون الأمة يستتبع بتحييد قسم كبير من الأمة وترك هذه
الجماعة تواجه تحديات الأمة بمفردها .
سفهاء الغلاة نسخوا الدعوة إلى الله :

1- بين المسلمين بإسقاط العذر بالجهل فنصبوا انفسهم قضاة يتربصون بالمكلفين الزلل

2- وبين الكفار بإسقاط فهم الحجة والاكْتفاء ببلوغها ، فجعلوا من هذا الأمر بوابة لبدأ القتال دون بيان .

من الجماعات الإسلاميّة من يسلك مع الأمة مسلك التوريط لِزَجّها في الصراع بدلاً من منطق الإقناع والتشديد والخطاب
الربّانيّ الذي لا يقوم بفرز الأمة إلى جماعات وأحزاب بالتنقيب عن مَمْسِكٍ لِيَتَبَنَّى الاختلاف وتأصيله وخلق الصراعات الجانبية
بين جماعاتها ، وإنما يُعزّز الانتماء للأمة والاجتماع على أصول الإسلام .

نحتاج قبل ذلك إلى إيجاد الدعوة الربّانية والجهاد الربّانيّ والفهم الربّانيّ والحركة الربّانية ، لذلك نجد القرآن الكريم يتحدث عن
الربّانية في مقامين : مقام الفهم والدعوة ، ومقام الجهاد والحركة .

الدعوة الربّانية وليس الدعوة الحزبيّة والمسميات البدعية للأحزاب التي صارت شارة واضحة عن مسمى الإسلام الذي برأى هو
مسمّى وقفيّ لا يجوز الحيّد عنه لأسماءٍ ابتدعوها وما رَعَوْها حق رعايتها .

قال تعالى : { مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُوتِيَهِ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا
كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ } .

وكذلك نحتاج إلى الجهاد الربّانيّ الذي يُستمدّد من كلّ الأمة وليس من جماعة بعينها ، ويصب حصادها في مكاسب الأمة وليس
لمكاسب جماعة بعينها ، ويسير وفق المنهج الربّانيّ وليس وفق منهج الجماعات ، وهنا لا بد من تفعيل المدارس الفقهيّة المجمع
عليها كالمذاهب الأربعة مثلاً ، قال تعالى :

{ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ }
(146) آل عمران .

من هنا تصل الأمة إلى التمكين لتنتقل إلى بداية التحرّر والانعتاق ، ولن تصل إلى التمكين ما لم توجد الدعوة والفهم الربّانيّ
والجهاد والحركة الربّانية بالفهم الشموليّ والوسطيّ والمرونة والثبات والتوازن والخطاب العالميّ الموسوم بخصائص الإسلام
العامّة .

استنهاض الأمة بالدعوة الربّانية مقدمة لا بدّ منها للوصول إلى التمكين والسيادة .

هنا لا بدّ أن ندخل بما يسمى فقه التمكين وبناء الشوكة والمنعة للأمة الإسلاميّة قبل الحديث عن الخلافة والدولة .

أولاً _ فقه التمكين :

كثير من الجماعات ما إن يجتمع حوله ثلَّة من الرجال وخرده من السلاح في مساحة من الأرض حتى يعلن عن نفسه إماماً وعن أرضه دولةً وعن حزبه جماعة المسلمين ، وهم لا يقدرّون أن يظهرّوا أسماءهم ظناً منهم أنهم صاروا من المُمكنين في الأرض وأنّ واجب قيام الخلافة صار على عاتقهم ، وهذا من تسمية الأوهام بالحقائق دون إدراك لمعادلة التمكين المعقدة خصوصاً في هذا العصر .

معادلة التمكين :

(القوة) =

1_ المعطيات الثابتة في القوة = التاريخ + الجغرافيا + عدد السكان + الثقافة

2_ المعطيات المتغيرة في القوة = القدرة الاقتصادية + القدرة التكنولوجية + القدرة العسكرية

نتوصل إلى معادلة التمكين :

القوة = (المعطيات الثابتة + المعطيات المتغيرة) (الذهنية الاستراتيجية + التخطيط الاستراتيجي + الإرادة السياسية)
وبذلك تصبح المعادلة :

التمكين = { (التاريخ + الجغرافيا + عدد السكان + الثقافة) + (القدرة الاقتصادية + القدرة التكنولوجية + القدرة العسكرية) }
مضروبة في (الذهنية الاستراتيجية + التخطيط الاستراتيجي + الإرادة السياسية)
"كتاب العمق الاستراتيجي"

يقول الشيخ المجاهد أبو يزن الشامي رحمه الله تحت عنوان التمكين في الوهم والعقلية الاحتفالية :

المكاسب في علم السياسة إمّا صلبة (ذات طابع استراتيجي) أو هشة (ذات طابع احتفالي) ، صلح الحديبية مكسب صلب ، تحرير أبو جندل مكسب هش .

صلح الحديبية فترة استقرار وبناء عشر سنوات لدولة النبوة الصاعدة ، اعتراف المحيط بها كدولة قائمة بعد أن كانت عصابة بنظرهم و قلع لخنجر اليهود في خيبر وو... .

التخلي عن مكاسب الحديبية السياسية مقابل أسير هو مكسب للاحتفال أكثر منه مكسب لبناء الدولة ، لذلك تركه عليه الصلاة والسلام لأنّه رجل بيني دولة .

استدعاء العاطفة من ابن الخطاب كان سيولد أزمة داخلية ويؤدي لخسارة مكاسب الحديبية ، لذا ندم عمر أشدّ الندم وقال : " عملت له أعمالاً " ، فقول عمر : (ألسنا على الحق؟ بلى ، قال : أليس عدونا على الباطل؟ بلى ، قال : فلم نعطي الدنّية في ديننا؟)مقتل سياسي أنجانا عليه الصلاة والسلام منه .

العقلية الاحتفالية تجعل العمل الاستراتيجي من الصعوبة بمكان ، فتريبة الإصدارات والأناشيد لا تولّد عقلية احتفالية فقط بل مهرجانية .

العقلية الاحتفالية طغت على المشهد الجهادي بسبب الغلو وأهله ، وهذا الطغيان لا يعالج للأسف إلا بضربات الواقع المؤلم . يبدو أنّ قدرنا في الشام أنّ نخوض كل الجولات بانتظار الجولة الأخيرة ، فإنّ للوعي في زمن الاحتفالات ثمناً أعظم مما كنّا نظن .

مراحل التمكين في السيرة النبوية

1- مرت الدعوة الإسلامية بمرحلة الاستضعاف التي قاسى بها الرّعيّل الأول أصناف البلاء مع امتناع البعض بعشيرتهم أو الدخول بحماية كافر مجير ، وانتهت هذه المرحلة بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ،
جاء في البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : ((ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر))
لتبدأ :

2_ مرحلة تمكين النكاية أو التمكين الجزئي الذي كفت أذى قريش عن أغلب المسلمين ، ولكن لم يُعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم قيام الدولة وكانت جُلّ البيعات التي تُؤخذ هي بيعة على الإسلام فحسب .
إنّ إعلان الدولة في هذه المرحلة ليس أكثر من إدخال القاعدة الصلبة في مواجهة غير متكافئة ربما تنتهي بإجهاض المشروع الإسلامي برمته ، وهذا ما تُكرّره الحركات الإسلامية من حصد للفشل تلو الآخر تحت ضغط الاستعجال وحماس الصدق والجهل بفقهِ المرحلة وحرق للمراحل وقفز على الأسباب .
ثم جاءت :

3- المرحلة الثالثة وهي تمكين الحماية والمنعة ، وبدأت ببيعة العقبة الكبرى فكانت بيعة على القتال والحماية والنصرة ، وهي التي تُوجت بقيام دولة المدينة ، وبدأ الجهاد الدفاعي والذي استمر إلى :

4-المرحلة الرابعة : غزوة الخندق حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها : "اليوم نغزوهم ولا يغزونا" .

وهذا موضع الخلل عند أغلب الجماعات الجهادية التي لاتزال في تمكين النكاية ، وتريد أن تقطف لوازم تمكين الحماية فتقع في الانتكاس وتبديد طاقاتها وإفناء شبابها في مواجهاتٍ تنتهي بطليعتها إلى الجبال والكهوف ، ثم يفسرون ذلك أنّه الابتلاء من أجل التمحيص ، مستدلين بمثلٍ لم يتكرّر في السيرة إلا مرةً ويتكرر في عمل الجماعات الإسلامية في كل مرةً ، ويتهمون كلّ من لم يسر معهم بهذا الاجتهاد بالخيانة والعودة عن الجهاد والتخذيل .

هل انتقلت الحركات الإسلامية من السفه إلى الرشد ؟

لقد نهى البيان الإلهي وليّ اليتيم أشدّ النهي عن إيتاء السفهاء أموالهم قبل الاختبار لهم على جزء منه ، فإن التمسنا منهم رُشداً دفعنا إليهم المال ، وإن كانوا يراهقون في السفه بقي الحجر عليهم ملازماً . قال تعالى : { وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً } ، وقال تعالى : { وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ } .

وما ينطبق على سفّه فرّد ينسحب على سفه أمة . إذا أراد الله تعالى أن ينشل الأمة من حال الاستضعاف إلى التمكين اختبرها بشيء من التمكين الجزئي ، فإن أثبتت من نفسها رُشداً نقلها من التمكين الجزئي إلى التمكين الكلي ، وإن بقيت تراهق في السفه أرُكسها في الضعف وحجّر عليها خلافة الأرض إلى حين ، فهل يخالف الله ما ينهانا عنه؟ هيهات .

من فقه التمكين عبر المسارات الخمسة :

- 1- مكن الله تعالى لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنصرة المؤمنين ، قال تعالى :
{ هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم } الأنفال
- 2- ومكن لداوود عليه السلام بالجهاد والصناعات الحربية ، قال تعالى :
{ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ }
3- ومكن لسليمان عليه السلام بوراثه الملك ، قال تعالى :
{ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ } (16)
- 4- ومكن لذي القرنين بالعلم ، قال تعالى :
{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا } (84) قال ابن عباس : السَّبَبُ الْعِلْمُ
- 5- ومكن ليوسف بالولاية الاقتصادية على خزائن الأرض ، قال تعالى :
{ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ }
يجب على الحركة الإسلامية أن تتجه في هذه المسارات الخمسة نحو التمكين .

من فقه التمكين

قال الله تعالى: { لقد أرسلنا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ، وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ، وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } (الحديد: 25).

لقد بينت الآية القاعدة التي يقوم عليها الإسلام ، بل كل الرسائل ، وهي الكتاب ، والقوة . وقد قال ابن تيمية رحمه الله : " قوام الدين : كتاب يهدي وسيف ينصر " ، جهاد ودعوة لا ينحصران ولا يتأطران في مضيق الحزبية ، لا يمكن أن تقوم دولة إسلامية بدون مجتمع إسلامي ، ولا يمكن إيجاد مجتمع إسلامي بدون دعوة ربانية ، والدعوة الربانية تحتاج إلى دعاة ربانيين يسلكون في دعوتهم التصفية والتربية :

تصفية الإسلام من بدع الزيادة والنقصان ، التربية والتركية الربانية للمجتمع على هذا المنهج الرباني الذي لم تفسده مزاولات الجماعات الإسلامية واجتهاداتهم الحزبية ، فعود لأصول الإسلام وليس لأصول الجماعات .

الإعداد والتربية

المناهج الإعدادية التربوية لا تكفي بدون تحقيق الشوكة والناكبة وإلا ستتحول الطليعة إلى خرفان مسمنة يزجها الطواغيت متى أرادوا في السجون ويسوقونهم إلى حبال المشنقة ولن يجدوا لأنفسهم حتى البواقي .

والناكبة لا يمكن أن تكون بدون إعداد ، والإعداد يجب أن يكون بالقوة المتاحة لا المكافئة ، ولكن أغلب الجماعات تصرف أكثر جهدها للإنجاز وقليل من الجهد التافه يصرف إلى الإعداد .

لن يكون لدى الإسلاميين دولة ظاهرة إذا لم يكن لهم دولة عميقة ، ولن يكون لهم دولة عميقة إلا بالتغلغل في مفاصل القوة وخوض معركة لا هوادة فيها في تفكيك الدول العميقة للطغاة واستبدالها بكوادرات تكون الطابور الخامس لنصرة المشروع الإسلامي

وتمكينه. قال تعالى :

{ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ } { الأنفال

نتيجة الإعداد لإحداث الرهبة للأعداء والمنافقين ، فإذا كان إعدادنا لا يُرهبهم ، فما قمنا بالأمر حقاً .

جهاد الأمة وجهاد العصابة في طريق التمكين

استراتيجية جهاد العصابة ، لا تعرف الثبات ولا الاستقرار في مكان دون مكان ، تعتمد أسلوب الكرّ والفرّ ، ومن ثم التخفي والموارة ، لا تبالي لو رمت بسهامها في أكثر من اتجاه وعلى أكثر من جبهة ، لا تحسب للعواقب والمآلات حساباً ذا بالٍ إلا فيم يتعلق بسلامة وحركة العصابة ذاتها .

استراتيجية جهاد العصابة هي الخيار الأسهل بالنسبة للمقاتلين والمجاهدين ؛ لأنه لا يترتب عليها مسؤوليات ومهام كبيرة يلتزمون بها نحو الشعوب ، والمجتمع المسلم ومؤسساته ، ونحو قيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها وأهدافها ، وبالتالي فهي - أي استراتيجية جهاد العصابة - لا تصلح لقيام مشاريع كبيرة ومهمة - حتى لو رفعتها كشعار - كقيام دولة إسلامية تحكم بما أنزل الله ، لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والاجتماعية ، ولو حاولت ستفشل ، كما فشلت في أكثر من موقع في واقعنا المعاصر .

استراتيجية جهاد العصابة قد تترك آثاراً ، لكنها لا تُزيل عروشاً ، ولا تقيم دولاً .

استراتيجية جهاد العصابة لا تكثرث للحاضنة الشعبية كثيراً ، فهي لا يهّمها من هذه الحاضنة الواسعة والضخمة سوى أن تنتقي لنفسها منها بضعة أفراد ، تنطلق بهم نحو أهدافها ، وتُسَنِّتُهُمْ بحسب تشنّتِ سهامها ، وعدد جبهاتها ! وهذا بخلاف ما عليه استراتيجية جهاد الأمة ، فاستراتيجية جهاد الأمة تعتمد على الجهاد بالأمة ضد أعداء الأمة ، الجهاد بالشعوب المسلمة - كل الشعوب المسلمة - ضد الطغاة الظالمين ، وأنظمتهم الفاسدة الفاجرة .

استراتيجية جهاد الأمة تعتمد على تشكيل الجيوش المسلمة المعلنة ، تستمد عناصرها من مجموع القادرين من الشعوب المسلمة ، والمنظمة تنظيمياً حديثاً ومتطوراً ، لتقوم بمهامها في الذود عن الدين والديار والحرّات ، لا تعرف أسلوب الكرّ والفرّ ، ومن ثم التخفي عن الأنظار !

استراتيجية جهاد الأمة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمطالب وأمال الشعوب وما تصبو إليه ، كقيام دولة راشدة عادلة قوية لها مؤسساتها ومرافقها المدنية والعسكرية ، وبالتالي فإن هذا البُعد معتبر جداً - في استراتيجية جهاد الأمة - في كل خطوة من خطواتها ، وفي كل مرحلة من مراحلها ، تحسب للعواقب والمآلات حساباتها الجيدة والمُحَكِّمَة .

استراتيجية جهاد الأمة لها مسؤولياتها الجسام نحو مجموع أبنائها ومصالحهم وديارهم وبلدانهم ومقدساتهم ، كما تتحمل مسؤولياتها الأخلاقية والشرعية نحو جميع شعوب العالم ، وبالتالي فهي - أي استراتيجية جهاد الأمة - من هذا الوجه صعبة جداً تحتاج إلى جهد كبير ، وإلى كوادر كبيرة وكثيرة تتضافر عليها مجموع قوى أبناء الأمة .

استراتيجية جهاد الأمة والشعوب معنيّة بإزالة عروش الطغاة الظالمين وإقامة دولة العدل والحق ، فمهمّتها لا تقتصر على المناوشات أو الهدم وحسب ، ومن ثم بعد ذلك فليكن ما يكون من دون الالتفات إلى العنصر الأهمّ ، عنصر البناء ، بناء الدولة العادلة الراشدة القوية .

استراتيجية جهاد الأمة والشعوب ، قائمة على ترتيب الأولويات في تحديد العدو الأشد خطراً ، ومن ثم دفعه ودفع خطره عن البلاد والعباد ، وهذا قد يستدعي منها نوع تحالف أو تصالح مع فريق دون فريق ، لتتفرغ للعدو الأشد شراسة وخطراً ، فهي - أي استراتيجية جهاد الأمة - لا تنهج سياسة استعداء العالم ، كل العالم ، وتجعلهم جميعاً في مصاف واحد من العداوة ، ومن ثم تخوض معهم مجتمعين معركة - في وقت واحد - تعرف نتائجها المدمرة على دولة الإسلام ومؤسساتها وعلى الشعوب المسلمة مسبقاً .

والسنة قد أشارت لشيء من هذا الفقه الهام ، كما في قوله صلى الله عليه وسلم : " ستصالحون الروم صلحاً آمناً ، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائهم ، فتسلمون وتغنون " ، وفي رواية : " ستصالحون الروم صلحاً آمناً ، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم ، فتنتصرون ، وتغنون ، وتسلمون " صحيح سنن أبي داود .

فهناك عدو من وراء الروم - ويحتمل أن يكون جزءاً منه من وراء المسلمين كما أفادت بذلك الرواية الأخرى - شديد الخطر والعداوة لا يمكن الوصول إليه ومن ثم دفعه ودفع شره ، إلا بعد نوع تصالح وتنسيق مع نصارى الروم . وفي غزوة الخندق ، انتشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ، في أن يشاطر بعض الأحزاب التي شاركت في تطويق المدينة وحصارها ، تمر المدينة ، مقابل أن يفكوا ارتباطهم وتحالفهم مع مشركي قريش ، وينفضوا عن القتال ومحاصرة المدينة ، وهذا كله من قبيل العمل بالفقه المشار إليه أعلاه .

فإن قيل : هل يُفهم مما تقدم أعلاه أنّ استراتيجية جهاد العصابة مرفوضة أو مستهجنة على الإطلاق؟

أقول : لا ، بل قد تتواجد - في مرحلة من المراحل - ظروف موضوعية تبرّر وجود من يُقاتل على طريقة حرب العصابات ، معتمداً استراتيجية جهاد العصابة ، وقد تواجد في التاريخ الإسلامي شيء من ذلك كما في جهاد الصحابي الجليل أبي بصير ومن معه ، لما اضطرتهم الظروف الناجمة عن صلح الحديبية أن يشكلوا بأنفسهم جبهة مستقلة ومتنقلة ، تعتمد أسلوب الكر والفر بعيداً عن دولة الإسلام والتزاماتها ، المتمثلة في المدينة المنورة ، والتي كانت تمثل استراتيجية جهاد الأمة .

لكن ما إن تزول تلك الظروف الموضوعية التي أفرزت تلك المجموعة التي تقاتل على طريقة استراتيجية جهاد العصابة ، إلا ويتعين على تلك المجموعة أن تتخبط وتتدخل في المشروع الأضخم والأشمل ، مشروع استراتيجية جهاد الأمة والشعوب ، وهذا الذي حصل مع الصحابي أبي بصير رضي الله عنه ومن معه ، فما أن زالت تلك الظروف الموضوعية التي أفرزتهم وأبعدتهم عن استراتيجية جهاد الأمة ، إلا وسرعان ما انضموا إلى الجسد الأكبر للأمة ، ليجاهدوا معها جهادها الأكبر وفق استراتيجيتها . استراتيجية جهاد العصابة حالة استثنائية طارئة توجد ظروف موضوعية معينة ، فإذا ما زالت تلك الظروف ووجدت استراتيجية جهاد الأمة والشعوب ، بطلت استراتيجية جهاد العصابة ، ودخلت وجوباً في الاستراتيجية العامة لجهاد الأمة ، فإن لم تفعل ، فحينئذٍ قد تُفسد أكثر مما تُصلح ، إذ لا يمكن أن تُفعل في زمان واحد ومكان واحد استراتيجية جهاد الأمة ، واستراتيجية جهاد العصابة معاً !

لا يجوز أن تكون استراتيجية جهاد الأمة تبعاً لاستراتيجية جهاد العصابة ، أو أن تفرض العصابة على الأمة استراتيجيتها في الجهاد والعمل والحركة والتغيير ، فمثلُ من يفعل ذلك كمثل من يُلزم الرجل الكبير بأن يرتدي ثياب الطفل الصغير ، وأنّى! عندما تنهض الأمة للجهاد والتغيير يجب على من يجاهد على طريقة استراتيجية جهاد العصابة أن ينتحى عن الطريق ، وأن يعطي الفرصة كاملة للأمة والشعوب أن تمضي في طريقها نحو أهدافها ، وإلى نهايته من دون أن يُحدث أي حدثٍ ، حتى لا يفسد على جهاد الأمة خطتها واستراتيجيتها وطريقتها في العمل والتغيير .

الطغاة الظالمون في كثير من الأحيان لا يستطيعون مواجهة استراتيجية جهاد الأمة والشعوب ، ولكي يفسدوا على الأمة خطتها في الجهاد والتغيير يستفزون ويستجرون الذين يُقاتلون على طريقة استراتيجية جهاد العصابة إلى الساحات والميادين ليثيروا معهم المعارك الجانبية ، ويضربوهم ويضربوا معهم جهاد الأمة والشعوب ، وتكون ذريعتهم في ضرب استراتيجية جهاد الأمة والشعوب أنهم أرادوا ضرب ومحاربة من يُقاتل ويُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد وحرب العصابات ، أرادوا قتال الإرهابيين "والعصابات الإرهابية" ، وليس الشعوب ، وهم بهذا الزعم الكاذب عساهم يستعطفون دول العالم لتقف بجوارهم في حربهم ضد الشعوب الثائرة الراغبة في التغيير!

لذا إن لم يتنبه من يُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد العصابة لهذا الجانب ، وأبى إلا أن يُزاحم ويشارك استراتيجية جهاد الأمة والشعوب في العمل والجهاد والتغيير على طريقته وفق استراتيجيته ، فهو من جهة يضر أكثر مما ينفع ، ومن جهة أخرى يقدم خدمة كبيرة لطغاة الحكم المجرمين الظالمين من حيث لا يدري!

لا ينبغي ولا يليق لمن يُجاهد على طريقة استراتيجية جهاد العصابة ، أن يُطالب الأمة والشعوب بالجهاد والنهوض للتغيير ، ثم إن فعلت الأمة ونهضت للجهاد والتغيير وفق استراتيجيتها ، زاحمها في العمل وأحدث الأحداث التي تفسد عليها خطتها واستراتيجيتها في الجهاد والعمل والتغيير ، وألزمها باستراتيجيته وطريقته في العمل ، فإن لم تفعل ، ولن تقدر على أن تفعل ، أساء بها الظنون ورمى بفشله على الأمة والشعوب ، والحق أن ما أصابه ، وأصاب الأمة بسببه ، هو من عند نفسه (أبو بصير الطرطوسي)!

كيف نقيم الشريعة في طريق التمكين

كيف نقيم الشريعة ؟

الشريعة مبنية على تحقيق مصالح الناس في المعاش والمعاد ، إذأ هي لحل مشاكلهم وتحقيق سعادتهم في الدنيا والآخرة . يقول الإمام مالك : "أينما كانت المصلحة فنمَّ شرع الله" ، لذلك كانت .

من أسباب فشل الحركات الإسلامية في تسويق مشاريعهم هو طرح المشروع على أنه قضية عقدية محضة يترتب عليها كفر وإيمان ، فيقومون بابتزاز العامة والتعامي عن حل مشاكل الأمة بروية شرعية مقنعة .

لا نقول : الشريعة الإسلامية صالحة لكل زمان ومكان ، بل هي مصلحة لكل زمان ومكان .

الملاحظ أن دعوة الأنبياء عليهم السلام اقترنت دائماً بحل مشاكل الأمة التي يدعونها وإقامة الشريعة عن طريق حلّ المشاكل ، لذلك كانت :

1- دعوة ذو القرنين عن طريق حلّ مشاكل الشعوب ، لم يتحدث القرآن عن دعوة مجردة ، وإنما عن دعوة مع حلّ المشاكل المعضلة ، قال تعالى : { قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (94) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا } (95)

2- دعوة موسى اقترنت بمشكلة سياسية ، قال تعالى : { أَنْ أَدْعُوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ، وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ } .

3- ودعوة لوط اقترنت بمشكلة أخلاقية ، قال تعالى : { وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِي فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ } .

4- ودعوة يوسف اقترنت بمشكلة اقتصادية وأمن غذائي ، قال تعالى : { قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ } (55)

5- ودعوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى كل أنبياء الله اقترنت بمشكلة حضارية في أمة أمية ، قال تعالى :
{هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} .

بينما طريقة التطبيق عند الجماعات الإسلامية هي طريقة إفراز المشاكل ، بل إن هذه الجماعات بحد ذاتها تحولت إلى مشكلة
بكثره خلافاتها وصراعاتها .

التكليف منوطٌ بالاستطاعة والتمكين

بين العجز الجزئي والعجز الكلي

إن الله تعالى قد أخبر في غير موضع أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، كقوله : **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا}** ، وقوله : **{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}** ، وقوله : **{لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا}** ،
وقوله : **{لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا}** .

• وأمر بتقواه بقدر الاستطاعة فقال: **{فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ}** ، وقد دعاه المؤمنون بقولهم: **{رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَوَّلَ مَا كُنَّا فِيهِ كَمَا كُنَّا عَلَيْكَ مِنَ الْأَذْيَانِ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ}** ، فقال: [قد فعلت]

فدلّت هذه النصوص على أنه لا يكلف نفساً ما تعجز عنه ، خلافاً للجهمية المجبرة ، ودلّت على أنه لا يؤخذ المخطئ والناسي
خلافاً للقدرية والمعتزلة ، وهذا فصل الخطاب في هذا الباب .

• فالمجتهد المستدلّ من إمام وحاكم وعالم وناظر ومفتّ ، وغير ذلك ، إذا اجتهد واستدل فاتقى الله ما استطاع ، كان هذا هو الذي
كلفه الله إياه ، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتّقاها ما استطاع ، ولا يعاقبه الله البتّة خلافاً للجهمية المجبرة وهو مصيب ،
بمعنى:

أنّه مطيع لله، لكن قد يعلم الحق في نفس الأمر وقد لا يعلمه، خلافاً للقدرية والمعتزلة في قولهم :
كل من استفرغ وسعه علم الحق ، فإنّ هذا باطل كما تقدّم ، بل كل من استفرغ وسعته استحق الثواب .

• وكذلك الكفار، من بلغه دعوة النبي صلى الله عليه وسلم في دار الكفر، وعلم أنّه رسول الله فآمن به ، وآمن بما أنزل عليه ، واتقى الله ما
استطاع ، كما فعل النجاشي وغيره ، ولم تمكنه الهجرة إلى دار الإسلام ، ولا التزام جميع شرائع الإسلام ؛ لكونه ممنوعاً من
الهجرة وممنوعاً من إظهار دينه ، وليس عنده من يعلمه جميع شرائع الإسلام ، | فهذا مؤمن من أهل الجنة |

• كما كان مؤمن آل فرعون مع قوم فرعون ، وكما كانت امرأة فرعون ، بل وكما كان يوسف الصديق عليه السلام مع أهل
مصر؛ فإنهم كانوا كفاراً، ولم يمكنه أن يفعل معهم كل ما يعرفه من دين الإسلام ، فإنّه دعاهم إلى التوحيد والإيمان فلم يجيبوه ،
قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: **{وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ
اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا}** .

• وكذلك النجاشي ، هو وإن كان ملك النصارى ! فلم يطعه قومه في الدخول في الإسلام ، بل إنّما دخل معه نفر منهم ، ولهذا لما
مات لم يكن هناك أحد يصلي عليه ، فصلي عليه النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، خرج بالمسلمين إلى المصلى فصوّمهم
صفوفاً ، وصلى عليه ، وأخبرهم بموته يوم مات وقال :

(إِنَّ أَخَا لَكُمْ صَالِحًا مِنْ أَهْلِ الْحَبِشَةِ مَاتَ) .

• وكثير من شرائع الإسلام أو أكثرها لم يكن دخل فيها لعجزه عن ذلك ! فلم يهاجر، ولم يجاهد ، ولا حج البيت ، بل قد روي أنه لم يصل الصلوات الخمس، ولا يصوم شهر رمضان ، ولا يؤدي الزكاة الشرعية ؛ لأن ذلك كان يظهر عند قومه فينكرونه عليه، وهو لا يمكنه مخالفتهم.

• ونحن نعلم قطعاً أنه لم يكن يمكنه أن يحكم بينهم بحكم القرآن !

والله قد فرض على نبيه بالمدينة أنه إذا جاءه أهل الكتاب لم يحكم بينهم إلا بما أنزل الله إليه ، وحثّه أن يفتنوه عن بعض ما أنزل الله إليه.

• وهذا مثل الحكم في الزنا للمُحْصِنِ بِحَدِّ الرَّجْمِ، وفي الديات بالعدل، والتسوية في الدماء بين الشريف والوضيع، النفس بالنفس والعين بالعين، وغير ذلك.

• والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن ؛ فإن قومه لا يُؤزُّونه على ذلك ، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً بل وإماماً وفي نفسه أمور من العدل يريد أن يعمل بها فلا يمكنه ذلك ! بل هناك من يمنعه ذلك ! ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها!

وعمر ابن عبد العزيز عُودي وأوذي على بعض ما أقامه من العدل ، وقيل : أنه سُمَّ على ذلك.

• فالنجاشي وأمثاله | سعداء في الجنة ! | وإن كانوا لم يلتزموا من شرائع الإسلام ما لا يقدر على التزامه ، بل كانوا يحكمون بالأحكام التي يمكنهم الحكم بها .

قاله العلامة أحمد بن تيمية الحرّاني الحنبلي - يرحمه الله- كما في ((مجموع فتواه ، 19 / 216 وما بعدها)).

التعجل في المواجهة

في بداية التجميع والإعداد للقاعدة الصلبة يجب أن تكون الرعاية بعيداً عن أعين المتربّصين والضجيج الإعلامي لكي لا يفسدوا المشروع : { وَلِيَبْلُغْ وَأَلِيَبْلُغْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بَكُمْ أَحَدًا }

يجب على القاعدة الصلبة المؤمنة المستضعفة أن لا ترمي بكل أوراقها في مواجهة الباطل فتكون أمام خيارين لا ثالث لهما :

{ إِنْهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا } (20)

المواجهة يجب أن تُحدّد بثلاث أنواع من الفقه :

1- فقه الأولويات : هل تم اختيار المواجهة مع عدوّ تشكل مواجهته أولوية لنا على غيره من الأعداء ؟

2- فقه الواقع لحالنا وإمكاناتنا وإمكانات العدو ، وهل الأمر ضمن استطاعتنا ؟

3- فقه المآلات : وهو النظر فيما يترتب على أيّ قرار بالمواجهة من تبعاتٍ ممكنة أن نتحمّلها.

حتى تنجح الدعوة لا بُدّ من اكتشاف الطاقات واستثمارها

هناك كثير من الطاقات المهذورة أو المبعدة والمعتم عليها من الصفوف الأولى في الحركات الإسلامية التي لا تريد مغادرة الأضواء وفسح المجال للدماء الجديدة لتأخذ دورها ، لذلك القضية تحتاج إلى اكتشاف الطاقات المذخورة والاقتصاد في الطاقات المهذورة وتشغيل الطاقات المعطلة وترتيب الطاقات العشوائية وفق الاختصاص .

لذلك تجد في السيرة النبوية : مُصْعَبٌ للدعوة ، وَخُذِيفَةُ للأسرار ، وَأَبِيٌّ للقرآن ، وَحَسَّانٌ للشعر والأئمة ، وَعُمَرُ وَأَبُو بَكْرٍ للشورى ، وَمَعَاذٌ للعلم، وَزَيْدٌ للفرائض ، فَيُصْبِحُ الأمر كمن وضع الذنب مكان الراس .

إن آفة الاستعجال عند كثير من هذه الحركات يدفعها لحرق المراحل والقفز على السُنن ، ولا يدرون أنهم بهذه السياسة ينتحرون ويضطرون لإعادة التجربة مرّة تلو المرّة ، وهم يجزّون موروثاً كبيراً من الفشل .

ثانياً - فقه الاختلاف

من خصائص الدعوة الربّانيّة والأمة الربّانيّة احتمال الاختلاف المعتبر، الاختلاف الذي لا يؤدي إلى الافتراق .
سعة الفقه وأوجه الاجتهاد المعتبرة فيها متسع لتبني رؤية تستند إلى وجه من الوجوه .
والخيارات الفقهية مما يميز الإسلام السني .
وليس عيباً تلك السعة فهي عامل إثراء للفقه وإتاحة مزيد من الخيارات للحركات الإسلاميّة للتعامل مع واقع شديد التعقيد وسريع التغيير ، إنما العيب أن تتضارب فيما بينها ، وأن تغيب إرادة التعاون والتكامل بما لا يفوت على الأمة مصلحة .
وإنما جاء سوء النظر من استخفاف البعض بخيارات الآخر ، وتحمله مآلات اختياراته دون استكمال اختبارات الخيار الفقهي على محكات تجارب لما تنته بعد .

وفيما بين ابن المبارك والفضيل بن عياض درس ونموذج للاقتداء دون نكير أو تبيكيت كل في مساره يدعم الآخر .
آفة الحكم على المواقف والخيارات رغبة محمومة لدى كل الأطراف في التنقيص والتبخيس ، وليس الوقوف على قواسم مشتركة .
ولعل حالة التشظي التي تعيشها الأمة مما تنتج تلك الفوضى في الأحكام على مسارات واتجاهات دون محاولات لتفهم الدوافع والأسباب .

ولعل أيضاً حالة التسيب من تصدر كل أحد للرأي والنظر هو ما يشغب على أكابر العلماء في إشاعة وإعلان ونشر آراء واجتهادات معتبرة لو تحقق لها ذلك ، لقطعت الطريق على حالة السيولة في الرأي لدى كل أحد.
البحث عن فقه قطعي الأحكام أحدي الحكم ضرب من الخيال .

الاختلاف سنة ربّانيّة ، كان شيخ الإسلام ابن تيمية مع شدة اختلافه مع الأشاعرة والصوفيّة قد طوى بساط الجدل لمّا داهمهم خطر التتار، وجاهد معهم في " شقحب " من أعمال دمشق وسماههم الطائفة المنصورة . (ذكر ذلك الإمام ابن كثير في تاريخه).

عندما يأتي من يريد نفس المذاهب ويقول لنا (الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة) نقول : أول من يدخل بالسلف هم الأئمة الأربعة ،
وكأنّ السلف لم يحصل بينهم خلاف !

فإذا جئت له بآراء السلف انتقى منها رأياً يريد أن يحمل الأمة عليه ، وقد وَقَعَ الاختلاف كثيراً بين الصحابة :

اختلفوا في مسألة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم هل توفي أم أنّه ذهب ليناخي ربه ،

ثم اختلفوا على مكان دفنه ، ثم اختلفوا على تغسيله ،

ثم اختلفوا على ميراثه هل يوزع أم يكون صدقة ،

ثم اختلفوا على الإمامة من بعده هل هي في المهاجرين أم في الانصار ،

ثم اختلفوا على بعث أسامة ،

ثم اختلفوا على محاربة المرتدين .

صلى الشافعي الصبح في مسجد أبي حنيفة الصبح فلم يَقْنُتْ ولم يَجْهَرْ ببسم الله تَأْدِيباً مع أبي حنيفة رحمهما الله [طبقات الحنفية 433/1].

قال القرطبي: "كان أبو حنيفة وأصحابه والشافعي وغيرهم يصلون خلف أئمة أهل المدينة من المالكية وإن كانوا لا يقرأون البسملة لا سراً ولا جهراً ، وصلى أبو يوسف خلف الرشيد وقد احتجم وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ فصلى خلفه أبو يوسف ولم يعد" [الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 375/23].

قال النووي: "ليس للمفتي ولا للقاضي أن يعترض على من خالفه إذا لم يخالف نصاً أو إجماعاً أو قياساً جلياً" [شرح النووي على صحيح مسلم 24/2].

أسباب وقوع الخلاف :

أغلب أدلة الشرع هي أدلة ظنيّة الدلالة ، والاختلاف في فهم معناه وارد جداً :

- 1_ اختلاف العلماء في حُجِّيّة بعض المصادر الفقهية أو اختلافهم في رتبة الاحتجاج بها كما في خلاف الفقهاء في حجية القراءات الشاذة والحديث المرسل والاستحسان وشرع من قبلنا وإجماع أهل المدينة.
 - 2_ اختلافهم في فهم النصوص، كما في قوله: {أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً} [المائدة:6]. ففسرها الجمهور بأنها الجماع، ولم يجعلوا لمس المرأة مما ينقض الوضوء، فيما أخذ الشافعي بظاهرها فجعل مجرد لمس المرأة ناقضاً للوضوء.
 - 3_ الاختلاف في فهم علّة الحُكْم كما في الخلاف في مشروعيّة القيام للجنّازة هل هو للمؤمن أم للكافر؟ وهل يقام تعظيماً للملائكة أم لهوّل الموت؟ أم أنّه خاصّ بالكافر حتى لا تعلق جنازة الكافر رأس المسلم؟ وكما في علّة سهم المؤلّفَة قلوبهم هل هو للتأليف أم لدفع شرّهم عند ضعف المسلمين؟
 - 4_ من أسباب الاختلاف عدم بُلوغهم الدليل ، مثاله: خَفِيَ على عمر حكم دخول أرض الطاعون، بل وعلى كثير من الصحابة، فاختلّفوا حتى أخبرهم عبد الرحمن بن عوف بقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك.
 - 5_ من أسباب الاختلاف عدم الوثوق بصحة الدليل الذي عند الآخرين، فقد يُضَعَفُ العالمُ المخالفُ الحديثُ في حين يُصَحِّحُهُ الآخرون، لاختلاف العلماء في تعديل أحد الرواة، أو لعلّة يراها في السند أو المتن تجعل الرواية شاذّة أو لغير ذلك من أسباب رد الرواية مما هو مسطر في كتب علم الحديث.
- ومن ذلك قصة عمر مع فاطمة بنت قيس حين رد حديثها في سكنٍ ونفقة المطلّقة طلاقاً بائناً بقوله: (لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت) [مسلم ح1480].

- 6_ من أسباب الاختلاف : الاختلاف في دلالات الألفاظ والنصوص لكون اللفظ مشتركاً أو مجملاً ، ومثله قد وقع من الصحابة عام الخندق كما في الصحيحين عندما قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : ((لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ العَصْرَ إلا في بني قريظة)) [البخاري ح946، ومسلم ح1770]. فتمسك بعضهم بظاهر النص ففاتتهم الصلاة، وتمسك الآخرون بمفهوم النص والمراد منه وهو الإسراع ، فصلوا وهم في الطريق، قال ابن عمر: (ولم يُعْتَفَ النبي صلى الله عليه وسلم واحداً منهم)

وقد بسط شيخ الإسلام ابن تيمية الحثّ في كتابه "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"

فلا يجوز للأئمة أن توجد أحزاباً وجماعةً بناءً على اختلافها في مسائل ظنيّة .

قدم البيان الإلهي التزكية على العلم لأنَّ التربية الأخلاقية هي المِلَاطُ الذي يمسكُ بِأَلْبِنَاتِ الجماعة من التفكك والتبعثر، والتنظيم بدونها عرضةٌ للانحيار والانشقاق والانفراط . القاعدةُ الأخلاقيةُ هي التي عليها تكسر المصائب والابتلاءات .

هناك شَكْوُ في الوسط الإسلامي من طريقة تعبير أبناء التنظيمات الإسلامية عن نقدهم وآرائهم التي تكاد لا تخلو من كلمات نابية وبذاءة واضحة في حق المخالف ، فلا تكاد تُجرى معه شيء من الحوار إلا وسارع ليرميك بالإرجاء أو الكفر أو الكذب أو أنك ترمي بالشُّبه ، وظاهرة التناول على علماء الأمة صارت أمراً مستمراً ، فهل يا ترى غلبت علينا التربية الحزبية وجفَّت فينا التربية الأخلاقية ؟ وهذا ملاحظٌ حتى في المناهج التي تدرّسُ عند الحركات الإسلامية ، فلقد اطلعتُ على كتاب لم يكشف المؤلف عن نفسه أحصى فيه مسالب التيارات الإسلامية المخالفة له وتقرّب إلى الله في النيل من علماء الأمة بأبشع الكلمات ، لذلك كان لا بدّ أن تبدأ التربية من حيث بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يُعيدَ قادة العمل الإسلامي النظرَ في طريقة إعداد أفرادهم قبل أن يستفجّل الخطرُ .

قال تعالى :

{هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويُزكّيهم ويُعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبينٍ} .

من كلام الشيخ محمد أحمد الأنصاري (أستاذ الإسلاميات بجامعة بهاولبور - باكستان) :

إنَّ اليهود والنصارى غزوا أرضنا ، وإبليس وجنوده غزوا قلوبنا ، والله لا يُعيدُ لهذه الأمة أرضها حتى تعود الأمة بقلوبها لربها، فما دامت القلوب بحبِّ الدنيا مُعْتَلَّة ، فما تزال الأرضُ مُحْتَلَّة ، لأنَّ جميع الموازين مُخْتَلَّة .

*فمن بدأ بعدو القلب قبل الأرض تربى على أربع قبل أربع ، فتنشأ فيه أربع :

- تربى على الرحمة قبل الغضب (فيضبطها)

- تربى على الحب في الله قبل البغض في الله (فيضبطه)

- تربى على الذلة على المؤمنين قبل العزة على الكافرين (فيضبطها)

- تربى على الولاء قبل البراء (فيضبطها) .

من أكثر ما يُضرُّ بالجهاد من لا يُفرّق بين الولاء والبراء وبين استعداد الأعداء : الأول دين ، والثاني سياسة ،

فتنشئ فيه أربع هُنَّ صواريخ القلوب ومغذيات الدين:

1_ يعفو عن ظلمه 2_ يعطي من حرمه 3_ يصل من قطعه 4_ يحسن إلي من أساء إليه.

فيمشي في الناس داعياً لا قاضياً ، يضحى بمُراده من الناس لمراد الله منهم (وهي الهداية) فيهدي به الله من شاء من عباده.

*ومن بدأ بعدو الأرض قبل القلب تربى على أربع قبل أربع ، فتنشأ فيه أربع :

- تربى على الغضب قبل الرحمة (فيمنعها)

- تربى على البغض في الله قبل الحب في الله (فيمنعها)

- تربى على العزة على الكافرين قبل الذلة على المؤمنين (فيمنعها)

-تربى على البراء قبل الولاء (فيمينعها)

فتنشئ فيه أربع :

1- التفسير 2- التبديع 3- التكفير 4- التفجير

فيمشي في الناس قاضياً لا داعياً (كأنه إله) يُضِلُّ به الشيطان أكثر مما يريد هو إصلاحه ، وأفسد من حيث أراد أن يُصلح .
السُّبَابُ والشَتَائِمُ التي تنهال في تعابير المتدينين عندما يردُّون على المخالفين لهم دليلٌ على وجود الحلقة المفقودة في بناء الإنسان الرباني ، ألا وهي التزكية التي قدّمها البيان القرآني على العلم ، تسمع كلام لبعض من ينتسبون للدعوة والعلم فتترحم على الحطينة ، والمسلمون في تضيق هذا الجانب بين طرفي نقيض ، بين مشوّه له بالدخائل والبدع ، وبين مقزّم له بالإهمال ، وقد عبر عن ذلك أحد العلماء بقوله : أسِفْتُ كما أسِفَ غيري لصنفين من الناس :

أ- صنفٌ تلمسُ في قلبه عاطفةً حارّةً ، ورغبةً في الله عميقة ، وحبّاً لرسوله بادياً ، ومع ذلك تجده ضعيف البصر بأحكام الكتاب والسنة ، يعلم منها قليلاً ويجهل منها كثيراً ، ويُعْرِيه بالتعصّب للقليل الذي يَعْلَمُهُ أَنَّهُ يَأْنَسُ مِنْ نَفْسِهِ صدق الوجهة ، وقوة محبة الله ورسوله ربما افتقدها في غيره فلم يشعر بها.
ب - وصنفٌ تلمسُ في عقله ذكاءً ، وفي علمه سعة ، وفي قوله بلاغة ، يعرف الصواب في أغلب الأحكام الشرعية ، ويؤدي العبادات المطلوبة منه أداءً لا بأس به ، ولكنه بارد الأنفاس ، بادي الجفوة ، غليظ القلب ، يكاد يتمنى العثار لغيره ، كي يُدَدَّ بأغلاطه ، ويستعلي هو بما أوتي من إدراك للحق ، وبصر بمواضعه من كتاب وسنة.

الوهن والغثائية

عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
"يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها ، قال : قلنا يا رسول الله : أمن قلة بنا يومئذٍ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غناء كغناء السيل ، ينتزع الله المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن ، قال : قلنا وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهية الموت" . وهذا الإسناد حسن ، أخرجه أحمد في مسنده .

مرحلة الغثائية هي المرحلة التي يتضخم فيها الكم على حساب النوع ، لذلك المشكلة لا تكمن في نقص العدد أو الموارد ، بل في هشاشة المضمون الأخلاقي والعقدي والإيماني عند الأفراد ، ولن يجدي عند ذلك توحيدها لأن اللبنة الهشة عندما تتجمّع لن تشكل أكثر من جدارٍ هشّ .
وحالة الوحدة تحمي اللبنة ذات الوجوه الستة من أربع جوانب وتبقى مكشوفة من وجهين ، وجه يحمي الظهر ووجه يواجه الخطر مع البنیان المرصوص .

وجه الشبه بين الأمة و غناء السيل :

الأمة اليوم لا مضمون لها ، و غناء السيل كذلك فقاعات لا مضمون لها .

الأمة اليوم لا اتجاه لها ، و غناء السيل يمضي مع السيل بدون اتجاه .

الأمة اليوم لا وزن لها ، وغناء السيل يطفو على الماء لا وزن له .
الأمة اليوم مجموعة غير متجانسة من المناهج ، وغناء السيل عناصر غير متجانسة من المهمات .
الأمة اليوم مسيرة من أعدائها ، وغناء السيل يسيره السيل .

من سماء الحالة الغنائية للأمة:

- 1- تعدد الرايات وضياع الغايات
- 2- ضخامة الأعداد وضآلة الإعداد
- 3- التشدد في الأمنيات والتفقت في الإيمانيات
- 4- إصدار الاستعراضات وغياب المخططات
- 5- غياب القيادة وتقليد الروبيضة
- 6- الاختلاف على المفقود وتضيق الموجود
- 7- استفتاء الرؤوس الجهال والحجر على العلماء

خامساً - فقه الواقع

الفتاوى المضطربة والمواقف السياسية المرتجلة ناشئة عن نقص في المعلومات أو تضخيم في المعلومات ، لذلك كان فقه الواقع والمناطق أحد أهم أركان الفتوى الصحيحة .

الغرب اليوم يُسخرُ مراكز أبحاث ودرسات وأجهزة استخبارات لفهم الواقع ونحن لا نزال نعتمد على انطباع الفقيه وإلهام السياسي !

من مشاكل الجماعات الإسلامية هو اشتداد نكارتهم على بعضهم في واقع لم يعايشوه ، فيحكمون على إخوانهم من خلال واقعهم هم لا من خلال الواقع الذي يعيشه إخوانهم ، لذلك تجد أنّ الدافع للسُّلُقِ بالألسُنِ الجدادِ هو التنافس المنهجي والتشهير بالأخطاء أكثر منه النصح والإرشاد .

الحكم على الأشياء فرع عن تصورها ، عندما تجمع صورة مشوّهة عن الإسلام بالاستقاء من المنابع المسمّمة ، عندها ستعطي وصف الحكم الإسلامي لكل المشوهين ، لأنّ الحكم على الشيء فرع عن تصوره .

كيف تنظر الحركات الإسلامية إلى واقع الأمة

الحركات الإسلامية غير متفكّية على أمر وهو وصف حال الأمة .

هل نحن نعيش حالة استعمارية حقيقية كاملة ؟ أم حالة تحرُّرٍ كاملة ؟ أم بمنزلة بين المنزلتين ؟ أم بحالة أسوأ من حالة الاستعمار المباشر ؟

لو نتفق كأمة أننا نعيش بحالة استعمارية وأنّ هؤلاء الحكام مناديب استعمارية مزأودة في عسفها على أسياها . فالمفروض أنّ الأحزاب هي جيوب المقاومة التي يجب أن تنفّذ خطة استراتيجية واحدة تستخدم فيها الإيدلوجية المناسبة في كل حالة أو مرحلة ،

لكن الذي نشاهده هو غياب حقيقي عن الحالة وتصادم بين المشاريع وجزّ الأمة لصراعات حزبيّة ، تنفق الأحزاب من الجهد في إفشال بعضها أضعاف ما تنفقه مع الأنظمة الاستعمارية .
وينقسم المتحزبون إلى قسمين :

- قسم لا يصنفها بالاستعمارية ويدخلها بالخصومة السياسية ، فيستدعي الأمة من باب صندوق الاقتراع ويتعامل مع الآخر كخصم سياسي ويتشارك معهم في مشاريع تظهره بمظهر المتواطئ ويتقبل الهزيمة ، لكن ما إن يتمكّن هذا القسم من الوصول إلا وينقلب الخصوم السياسيون إلى حالة الطوارئ ضباطاً وعسكراً ، ويشنون حرباً عليه ويعزلونه بعد أن يذيقوه الذلّ والهوان .
والغريب ان التجربة تتكرّر !

- وآخر يصف الحالة بالاستعمارية أو أكثر ، لكن تعامله معها يأخذ جانب التضخيم الحاد ، فيتعامل مع معارضيّه بالنفي من المشروع والتخوين والتكفير ، وعنده تضخيم للنفس وتقزيم للآخر ، وقابل للنفخ بسهولة ، حتى إن اعتقد أنّه تمكّن يتم فرغته والتخلص منه ، والدلائل دول كرتونية قامت تمّ نفسها في أيام ، ومع ذلك تتكرر هذه التجربة !

هل نجحت التجربتان للوصول للتمكين الذي نعتقد أنّها من خلاله تستطيع الاستقرار وبناء مشروعها؟

نجزم أنّه لم تتجح أي من المجموعتين من الاستقرار أو البقاء والاستمرار في المشروع بل عادت خطوات إلى الوراء ، لتعود إلى نقطة ما وراء الصفر وهي مثقلة بتبعات الفشل وحالة من النكران ودعوى المظلومية والمؤامرة .

فنحن أمام عدة تجارب فاشله وتكرارها هو تكرار فشل جديد ، إن تجمعت نفس المعطيات ستأتي نفس النتائج ، الإدارة الفكرية الناجحة هي القادرة على التعاطي مع أقصى حالات الطوارئ ، ليس من تسقط أمام أول اختبار !

نحن قريبيون جداً من الفكر الجهادي لأننا نضع الحالة بموقعها الاستعماري لا الخلاف السياسي ، ولكن هذا الاستعمار له وسائل للسيطرة وليس عسكرياً فقط بل هي نسيج من القيود مما يجعل الحالة مركبة .

الدولة الإسلاميّة لم تحقق الانعناق الاقتصاديّ إلا في خلافة عبد الملك بن مروان حيث استقلت الأمة بعُمليتها الخاصّة .

وهذا يجعلنا نستقرئ حاجتنا للخط السياسيّ لإلهاء الغرب وتحسينه مع استمرار العمل الجهاديّ والعلميّ والدعويّ لبناء كيان قوي غير قابل للهدم ، وهذا يُعيد للأذهان مرحلة صلح الحديبية ، المسلمون يبنون دولتهم ويتصلون بدول العالم ، وأبو بصير وأبو جندل يوجهون ضربات موجعة لقريش بحرب عصابة ، كلا الأمرين كان مفيداً ويصبُّ في صالح المشروع ، ولكن لا وجه للارتباط الظاهري بينهما .

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في أعلام الموقعين : ولا يتمكّن المفتي ولا الحاكم من الفتوى إلا بنوعين من الفهم :

أحدهما : فهم الواقع والفقّه فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات حتى يُحيط به علماً .

والنوع الثاني : فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حكم الله ورسوله الذي حكّم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يُعَدّ أجرياً أو أجراً ، فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع

والنقطة فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله ، وكما توصل شاهد يوسف بشقّ القميص من دُبُرٍ إلى معرفة براءته وصدقه وكما توصل سليمان صلى الله عليه وسلم بقوله : " انتوني بالسكين حتى أشق الولد بينكما " إلى معرفة عين الأم .

عبثٌ في فهم أحاديث الفتن يستتبع جهلاً في فهم الواقع

دأب كثير من المثقفين وطلاب العلم إلى البحث عن تفسيرٍ لما يجري لحال الأمة في أحاديث الفتن ، وهذا حالنا ، كلما عجزنا عن فهم ما يجري التجأنا إلى أحاديث الملاحم ، بيد أن الإغراق في تحليل أحاديث الفتن وإسقاطها على الواقع للبحث عن تفسيرٍ مقنعٍ لما يحدث ، له منعكسات خطيرة خصوصاً أنك عندما تقرأ هذه الأحاديث تجدها متباينة الحال .

مرّة تتحدث عن المسلمين في حالة الوهن والضعف ، ومرّة عن حالة من القوة وقيام الخلافة الراشدة ، ومرّة عن غربة الإسلام وكثرة الفتن وتكالب الأمم ، ومرّة عن فتح رومية وبلوغ الدين ما بلغ الليل والنهار ، مما يدلّ على أنّ هذه الأحاديث تبين أنّ الإسلام والمسلمين يسيرون في خط بيانيّ متعرّج ، تارة يكون مساره إلى الأعلى وتارة يكون مساره إلى الأسفل ، وليس كما يتصور البعض أنّ الاتجاه هو إلى الهاوية بخطّ مستقيم .

وعُمدّة الفهم لأحاديث الفتن هو حديث حذيفة في الصحيح (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير وكنتم أسأله عن الشرِّ) الذي يبين حقيقة أنّ المسلمين يمرّون في تاريخهم في مراحل إدبار تتلوها مراحل إقبال وبالعكس ، وهذا كله وفق سنن ثابتة لا تجامل ولا تتخرم ، وليست القضية حظوظاً عمياء وخبطاً عشوائياً وبالقفز على الأسباب والسُنن والمغالبة .

من فقه الواقع معرفة الخصوم وقدراتهم قبل المواجهة

قال تعالى {وَلْيَسْتَبَيِّنْ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ} الأنعام

فهو شأن عجيب ! أنه يكشف عن خطة المنهج القرآني في العقيدة والحركة بهذه العقيدة ! إنّ هذا المنهج لا يعني بيان الحق وإظهاره حتى تستبين سبيل المؤمنين الصالحين فحسب ، إنّما يعني كذلك بيان الباطل وكشفه حتى تستبين سبيل الضالين المجرمين أيضاً . إنّ استبانة سبيل المجرمين ضرورة لاستبانة سبيل المؤمنين ، وذلك كالخط الفاصل يرسم عند مفرق الطريق . إنّ هذا المنهج هو المنهج الذي قرّره الله - سبحانه - ليتعامل مع النفوس البشرية ، ذلك أنّ الله سبحانه يعلم أنّ إنشاء اليقين الاعتقاديّ بالحق والخير يقتضي رؤية الجانب المضادّ من الباطل والشر ، والتأكيد من أنّ هذا باطل محض وشرّ خالص ، وأنّ ذلك حق محضٌ وخيرٌ خالص ، كما أنّ قوة الاندفاع بالحق لا تنشأ فقط من شعور صاحب الحق أنّه على الحق ، ولكن كذلك من شعوره بأنّ الذي يُحادّهُ ويُحاربُهُ إنّما هو على الباطل ، وأنّه يسلك سبيل المجرمين الذين يذكر الله في آية أخرى أنّه جعل لكلّ نبيّ عدواً منهم (وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدواً من المجرمين) ليستقر في نفس النبيّ ونفوس المؤمنين أنّ الذين يعادونهم إنّما هم المجرمون عن ثقةٍ وفي وضوحٍ وعن يقينٍ .

إنّ سُفورَ الكُفرِ والشرِّ والإجرام ضروريّ لوضوح الإيمان والخير والصالح ، واستبانة سبيل المجرمين هدفٌ من أهداف التفصيل الربّانيّ للآيات ذلك أنّ أيّ غيبٍ أو شبهةٍ في موقف المجرمين وفي سبيلهم ترتدّ غبشاً وشبهةً في موقف المؤمنين وفي سبيلهم ، فهما صفحتان متقابلتان ، وطريقان مفترقتان ، ولا بد من وضوح الألوان والخطوط .

ومن هنا يجب أن تبدأ كلّ حركة إسلامية بتحديد سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين ، يجب أن تبدأ من تعريف سبيل المؤمنين وتعريف سبيل المجرمين ، ووضع العنوان المميّز للمؤمنين والعنوان المميز للمجرمين في عالم الواقع لا في عالم النظريات ، فيعرف أصحاب الدعوة الإسلامية والحركة الإسلامية من هم المؤمنون ممن حولهم ومن هم المجرمون ، بعد تحديد سبيل

المؤمنين ومنهجهم وعلامتهم وتحديد سبيل المجرمين ومنهجهم وعلامتهم ، بحيث لا يختلط السبيلان ولا يتشابه العنوان ، ولا تلتبس الملامح والسمات بين المؤمنين والمجرمين ،
فكان من أساليبهم في محاربة الحق :

1_ ومن ذلك الادعاء بأن دعوة الحق تتسبب بتخلُّل آمن المجتمع :

{وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُنْخَطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (57) الْقَصَص .

2_ ومنها اتِّهام أهل الإيمان بتبديل الحقائق وتحريف الدين ونشر الفساد في الأرض :

{وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ .} [غافر:26]

3_ ومن أساليبهم إتهام أهل الحق أنهم يبتغون من دعوتهم صرف وجوه الناس اليهم وكسب الجاه الدنيوي والتفضُّل على غيرهم:
{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ} (24) المؤمنون .

4_ والاستهزاء بأهل الحق بالضحك والهمز واللمز من دأب المجرمين :

{إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ *} المطففين .

5_ والإعدامات الجماعية من وسائلهم القذرة :

{قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْذُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ {البروج} .

6_ تفريق أهل الحق وتضخيم الخلاف بينهم وجعلهم أحزاباً متخاصمةً من وسائل أهل الباطل :

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (4) القصص .

7_ الطعن والتشويه في الأئمة الحاملين للدعوة لإسقاط دعوة الحق شنشنة أهل الباطل :

{قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} (27) الشعراء .

{كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ} (52) أتواصلوا به بل هم قوم طاعون} (53) الذاريات .

8_ الدخول في الدعوة ثم الانشقاق عنها لتشكيك الأتباع فيها من وسائل أهل الباطل :

{وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} (72) آل عمران .

9_ الطعن في أتباع الدعوة لإسقاط الدعوة من وسائل المبطلين :

{قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِإِدْيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَنْظُرُكُمْ كَادِبِينَ} (27) هود

10_ إيداء أهل الحق في أولادهم ونسائهم من وسائل أهل الباطل في ثني أهل الحق والضغط عليهم :

{فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۗ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} (25) غافر

11_ فرض الإقامة الجبرية ومنع الزيارات والمقاطعة من سياسة الباطل في الصد عن الحق :

{وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ (69) قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (70)} الحجر ، قال: ثنا سعيد، عن قتادة، قوله (أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ) قال: ألم ننهك أن تضيف أحدا؟

12_ الاعتقال التعسفي لحجب الدعوة من وسائل أهل الباطل في الصد عن الحق :

{وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} (30) الأنفال الإثبات هنا السَّجْن .

13_ التهجير القسري والنفى من الوطن بحجج مُضحكة :

{فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ أَنَّهُمْ أَنْاسٌ يَنْطَهَرُونَ} (56)

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهَلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} (13) إبراهيم .

14_ الاتهام بالعمالة للخارج من وسائل أهل الباطل في الصد عن الحق :

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا} (4) الفرقان .

15_ وتنفيذ الاغتيالات السرية وسيلة قديمة جديدة :

{قَالُوا تَفَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} (49) النمل .

16_ من وسائل أهل الباطل في محاربة الحق كفت أتباعهم عن الاستماع لصوت الحق والتشويش عليه :

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ} (26) فصلت .

فقه الواقع وعقدة الاختصاص

كلٌ يفسر المشاكل بعقدة اختصاصه :

الاقتصاديون يُصَوِّرون صِراعَ البشرِ صِراعاً طَبَقِيّاً

والمؤرخون يُصَوِّرونه استجراراً لمشاكل التاريخ إلى الحاضر

والمُتديّنون يُشخّصونه على أنه صِراعُ أديان

والسياسيون يُفسّرونه صِراعاً على المُلك

وفرويد يرى أنها الغريزة الجنسية

والجاهلون يضيِّعون بين هؤلاء

وجذرُ المشكلة غيابُ الشخصيات الموسوعيّة المتوازنة في معرفتها والمحيطة بزوايا النظر إلى الحقيقة المتطابقة بين التصوُّر

الكامل والصورة الواقعيّة الكاملة ، فكثيراً ما تكون الأزمة مركبةً من مزيج أزمت وليست أحادية المنشأ والتركيب ، يغيب

إدراكها عن العقلية الاختصاصية لأنها تنظر بعين واحدة .

سادساً - فقه الأولويات

إنَّ آفةَ كثيرٍ من حركات الصحوة الإسلاميَّة هي غيابُ فقه الأولويات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكلِّيات، وبالمختلَفِ فيه قبل المتَّفَقِ عليه، وتساءل عن دم البعوض، ودم الحسين مُهْرَاق، وتثير معركة من أجل نافلة، وقد ضيَّع الناسُ الفرائضَ، أو من أجل شكلٍ أو هيئةٍ، دون اعتبارٍ للمضمون.

وأما (فقه الأولويات) فنعني به وضع كل شيء في مرتبته، فلا يُؤخَّر ما حقه التقديمُ، أو يُقدِّم ما حقه التأخير، ولا يُصغِّرُ الأمرَ الكبيرُ، ولا يُكبِّرُ الأمرَ الصَّغِيرُ. هذا ما تقتضي به قوانين الكون، وما تأمر به أحكام الشرع، أعني أن خَلَقَ اللهُ تعالى وأمره {ألا له الخلق والأمر} كلاهما يُوجبان رعاية هذا الترتيب.

السيرة النبوية وفقه الأولويات

في العهد المكِّي كانت مهمَّة النبي - صلى الله عليه وسلم- محصورةً في الدعوة إلى الله وتربيَّة الجيل المؤمن الذي يحمل هذه الدعوة بعد ذلك إلى العرب، ثم ينطلق بها إلى العالم كله، وكان تركيزه على أصول العقيدة، وترسيخ التوحيد، وعبادة الله وحده، ونبذ الشرك واجتتاب الطاغوت، والتحلِّي بالفضائل ومكارم الأخلاق. وكان القرآن الكريم في تلك المرحلة يُزكِّي هذا الاتجاه، فلم يشغل المسلمون في هذه الأونة بالمسائل الجزئية، ولا بالأحكام الفرعية، بل ببُنْيَانِ الإنسان الذي تحدَّت سورة العصر:

{ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر }.

لم يُشرع للمسلمين أن يحملوا قُوسهم على الأصنام وهم يرونها كل يوم حول الكعبة، ولم يُؤدِّن لهم أن يُشبهوا سُيوفهم دفاعاً عن أنفسهم، ومقاومة العدو (وعدوهم، الذي يسومهم العذاب) بل كان يقول لهم ما ذكره القرآن أن {كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة} وإن كانوا يأتون إلى رسولهم - صلى الله عليه وسلم- ما بين مشجوج ومجروح.

ارتباط الأولويات بفقه الموازنات

إنَّ فقهَ الأولويات مرتبط بفقهِ الموازنات، وفي بعض المجالات يتداخلان أو يتلازمان، فقد تنتهي الموازنة إلى أولويَّة مُعيَّنة، فهنا تدخل في فقه الأولويات.

وجوب مراعاة النَّسَبِ بين التكاليف الشرعية :

إنَّ الإخلال بالنَّسَبِ التي وضعها الإسلام للتكاليف الشرعيَّة يُحدث ضرراً بليغاً بالدين والحياة. إنَّ العقيدة في الإسلام مقدَّمة على العمل، لأنَّها الأساس، والأعمال هي البناء ولا بقاء بغير أساس، وبعد العقيدة تأتي الأعمال وهي متفاوتة تفاوتاً بعيداً، وقد جاء في الحديث الصحيح :

{الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها: لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق}، والقرآن يبيِّن لنا أنَّ الأعمال تتفاضل عند الله، وليست في درجة واحدة، يقول تعالى: {أجعلتم سقاية الحاجِّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستترون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين. الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون} (سورة التوبة: 19، 20).

ولهذا ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن جنس أعمال الجهاد أفضل من جنس أعمال الحج، بل ذكر فقهاء الحنابلة وغيرهم أن الجهاد أفضل ما يتطوع به من أعمال البدن .

وفي فضل الجهاد جاءت أحاديث كثيرة منها ما رواه أبو هريرة، قال: "مرّ رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم- بشعب فيه عُيْنَةٌ من ماء عذبة فأعجبته، فقال: لو اعتزلت الناس فأقمت في هذا الشعب، ولن أفعل حتى أستاذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم-، فذكر ذلك لرسول الله فقال: لا تفعل، فإنّ مقام أحدكم في سبيل الله تعالى أفضل من صلاته في بيته سبعين عاماً". وفي فضل الرباط جاء حديث سلمان مرفوعاً: "رباطُ يومٍ وليلةٍ خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمل، وأجرى عليه رزقه، وآمن من الفتان" رواه مسلم.

وهذا ما جعل إماماً مثل عبد الله بن مبارك وهو في أرض الرباط يكتب إلى صديقه الفضيل بن عياض الزاهد العابد، وهو ينتقل بين الحرمين مكة والمدينة متعبداً:

يا عابِدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبْصَرْتَنَا لعلمت أنّك بالعبادة تلعبُ
من كان يَخْضِبُ خَدَّهُ بِدُمُوعِهِ فنحورنا بِدِمَائِنَا تَتَخَضَّبُ

*ومن المقرر فقهاً : أنّ النافلة لا يجوز تقديمها على الفريضة، وأنّ فرض العين مُقدّم على فرض الكفاية، وأنّ فرض الكفاية الذي لم يقم به أحد أو عدد يكفي مُقدّم على فرض الكفاية الذي قام به من يكفي ويسدُّ الثغرة، وأنّ فرض العين المُتعلّق بالجماعة والأمة مُقدّم على فرض العين المتعلق بحقوق الأفراد، وأنّ الواجب المُحدّد الوقتِ _والذي جاء وقته بالفعل_ مُقدّم على الواجب المُوسّع في وقته. ومن المقرر كذلك أنّ المصالح المقرّرة شرعاً متفاوتة فيما بينها، فالمصالح الضرورية مقدمة على الحاجية والتحسينية، والمصالح الحاجية مُقدّمة على التحسينية، والمصالح المُتعلقة بمصالح الأمة وحاجاتها أولى بالرعاية من المصالح المتعلقة بالأفراد عند التعارض، وهنا نجد فقه الموازنات يلتقي بفقه الأولويات.

غياب فقه الأولويات عند كثير من المسلمين

إنّ آفة كثير من فضائل الصحوّة الإسلاميّة هي غياب فقه الأولويات عنها، فكثيراً ما تهتم بالفروع قبل الأصول، وبالجزئيات قبل الكلّيات، وبالمختلف فيه قبل المتفق عليه، وتسأل عن دم البعوض، ودم الحسين مهراق، وتثير معركة من أجل نافلة، وقد ضيع الناس الفرائض، أو من أجل شكل أو هيئة، دون اعتبار للمضمون .

وهذا هو الحال عند عموم المسلمين، أرى الملايين يعتمرون تطوعاً كل عام في رمضان وغيره، ومنهم من يحجّ للمرّة العاشرة أو العشرين، ولو جمع ما ينفقه هؤلاء في هذه النوافل لبلغ آلاف الملايين، ونحن نلهث من عدة سنوات لتجميع ألف مليون دولار للهيئة الخيرية الإسلاميّة، فلم نحصل على عشر المبلغ ولا نصف عُشره، ولا ثلثه، ولو قلت لهؤلاء المتطوعين بالعمرة أو الحج: ادفعوا ما تنفقونه في رحلتكم التطوعية لمقاومة التنصير أو الشيوعية في آسيا وإفريقيا أو المجاعات هنا وهناك، ما استجابوا لك، وهذه آفة قديمة شكا منها أطباء القلوب.

وإنّ من فقه الأولويات: أن نعرف أي القضايا أولى بالاهتمام فتعطي من الجهد والوقت أكثر مما يُعطى غيرها.

ومن فقه الأولويات أن يُعرَف :

أيُّ الأعداء أولى بتوجيه قِوانا الضاربة إليه، وتركيز الهجوم عليه، وأيُّ المعارك أولى بالبدء، فالناس في نظر الإسلام أنواع: هناك المسلمون، وهناك الكفار، وهناك المنافقون. والمسلمون منهم الجَهْلَة، ومنهم الخَوْنَة، والكفار منهم المسلمون، ومنهم المحاربون، ومنهم الذين كفروا فقط، ومنهم الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله، والمنافقون منهم ذوو النفاق الأصغر، ومنهم أهل النفاق الأكبر، فبمن نبدأ؟ وأيُّ الجهات أولى بالعمل؟ وأيُّ الأمور أولى بالرعاية؟

ومن فقه الأولويات: أن نعرف واجب الوقت، فنقدمه على غيره ونعطيه حقه، ولا نُؤخِّره فنُفَوِّتَ فرصةً قد لا تُعوَّض إلا بعد زمن طويل، وقد لا تُعوَّض يوماً .

والشاعر الراجز يقول :

وَأَنْتَهزِ الْفُرْصَةَ إِنَّ الْفُرْصَةَ تَصِيرُ إِنْ لَمْ تَنْتَهزْهَا غَصَّةً

ومن حكمنا المأثورة : لا تؤخر عمل اليوم إلى غد .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز يوماً : أحرَّ عَمَلَ هذا اليوم، وقم به غداً، فقال : لقد أَعْيَانِي عَمَلُ يَوْمٍ وَاحِدٍ، فكيف إذا اجتمع عَلَيَّ عَمَلُ يَوْمَيْنِ؟

ومن حكم عطاء : حقوق في الأوقات يمكن قضاؤها، وحقوق لا يمكن قضاؤها، إذ ما من وقتٍ يَرُدُّ إلا والله فيه حقٌ جديد، وعملٌ أكيد.

الإمام الغزاليّ وفقه الأولويات

وقد أنكر الإمام الغزاليّ في (الإحياء) على بعض فِرَقِ المغرورين بالعبادة دون مراعاةٍ لمراتب الأعمال، فقال:

(وفِرْقَةٌ أُخْرَى حَرَصَتْ عَلَى النَوَافِلِ وَلَمْ يَعْظُمِ اعْتِدَادُهَا بِالْفَرَائِضِ، نَرَى أَحَدَهُمْ يَفْرَحُ بِصَلَاةِ الضَحَى، وَبِصَلَاةِ اللَّيْلِ، وَأَمْثَالِ هَذِهِ النَوَافِلِ، وَلَا يَجِدُ لِلْفَرِيضَةِ لَذَةً، وَلَا يَشْتَدُّ حِرْصَهُ عَلَى الْمُبَادَرَةِ بِهَا فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ، وَيُنْسِي قَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرُويهِ عَنْ رَبِّهِ: (مَا تَقَرَّبَ الْمُتَقَرَّبُونَ إِلَيَّ بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِمْ)، وَتَرَكَ التَّرْتِيبَ بَيْنَ الْخَيْرَاتِ مِنْ جُمْلَةِ الشَّرُورِ، بَلْ قَدْ يَنْعَعِينَ فِي الْإِنْسَانِ فَرِضَانِ: أَحَدُهُمَا يَفُوتُ وَالْآخَرُ لَا يَفُوتُ، أَوْ فَضْلَانِ أَحَدُهُمَا يَضِيقُ وَقْتَهُ وَالْآخَرُ يَتَسَعَّ وَقْتَهُ، فَإِنْ لَمْ يَحْفَظِ التَّرْتِيبَ فِيهِ كَانَ مَغْرُوراً .

ونظائر ذلك أكثر من أن تُحصى، فإنَّ المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة، وإتّما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض، كتقديم الفرائض كلها على النوافل، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على ما دونه، وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد، إذ

سئل رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فقيل له: من أبرُّ يا رسول الله؟ قال: (أُمَّكَ) قال: ثم من؟ قال: (أُمَّكَ) قال: ثم من؟ قال:

(أُمَّكَ) قال: ثم من؟ قال: (أَبَاكَ)، قال ثم من؟ قال: (أَدْنَاكَ فَأَدْنَاكَ)

فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب، فإن استويا فبالأحوج، فإن استويا فبالأقرب والأورع. وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج، فربما يحج وهو مغرور، بل ينبغي أن يقمّ حقهما على الحج، وهذا من تقديم فرض الأهمّ على فرض هو دونه. وكذلك إذا كان على العبد ميعاد، ودخل وقت الجمعة، فالجمعة تقوت والاشتغال بالوفاء بالوعد (حينئذٍ) معصية، وإن كان هو طاعةً في نفسه. وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة، فيغظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك، فالنجاسة محذورة، وإيذاؤهما محذور، والحذر من الإيذاء أهمّ من الحذر من النجاسة.

وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر، ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور.

تحقيق الإمام ابن القيم في أيّ العبادات أفضل

ويذكرُ المحقق ابن القيم الأقوال في أيّ العبادات أفضل: هل الأفضل منها: الأشقّ؟ أو الأفضل: المتعدّية النّفع؟ ثم رجّح أنّه لا يوجد فضل بإطلاق، وإنّما لكل وقت عبادة تكون هي الأفضل بالنسبة له، فعند المجاعات يكون إطعام الطعام أفضل ما يتقرّب به إلى الله، وعندما يغزو الكفار بلدًا مسلمًا يكون الجهاد أفضل الأعمال، وإمداد المجاهدين بالسلاح والمال من أعظم القربات، وعندما يموت العلماء، ولا يوجد من يخلفهم، يكون طلب العلم والتّبحّر فيه من أجلّ ما يُؤجر عليه المسلم، ويُحمد به عند الله وعند المؤمنين، وهكذا يكون التفاضل بين الأعمال.

ما ينبغي التركيز والبدء به

ولكنّ الذي ينبغي أن تُركّز عليه الحركة هنا عدة أمور لها أهميتها الخاصّة في المرحلة القادمة في ضوء (فقه الأولويات) المشار إليه.

التركيز على مفاهيم معينة يجب تجلّيئها وتعميمها وتعميقها في المجال الفكري، وهو ما أسميناه (الفقه الجديد).

التركيز على شرائح اجتماعية معينة يجب أن تمتدّ إليها الحركة، وتشملها الصحوّة وذلك في المجال الدعوي.

التركيز على مستوى كميّ معيّن من إعداد القيادات المرجوّة للمستقبل، ولا سيّما الإعداد الإيماني والفكري، وذلك في المجال التربوي.

التركيز على تطوير الأفكار والممارسات فيما يتصل بالعلاقات السياسية المحلية والعالمية خروجاً من التوقّع الداخلي، والحصار الخارجي، وتحقيقاً لعالمية الحركة ومرورتها، وذلك في المجال السياسي.

من فقه الأولويات

1_ أولوية الكيف على الكم

2_ أولوية العلم على العمل (بَوَّب الإمام البخاريُّ باباً في صحيحه سمّاه: بابُ العلم قبل القول والعمل)

3_ أولوية الفهم والفقه على الحفظ (رُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ)

4_ أولوية المقاصد على الظواهر (مقاصد الشريعة من حفظ الدين والنفس والعرض والعقل والمال)

5_ أولوية الاجتهاد على التقليد (خصوصاً في مرحلة النوازل والمستجدات لا يمكن ان يفتى بها بفقّه الاستقرار)

6_ أولوية التخفيف والتيسير على التشديد والتعسير

7_ أولوية ما لا يتسع له الوقت على ما يتسع له الوقت (الحجّ يتسع له الوقت بينما ردُّ الصَّائِلِ لا يتسع له الوقت)

8_ أولوية ما يعمُّ ويشمل نفعه على ما يخصُّ نفعه (العبادات الاجتماعية تُقدَّم على العبادات الشخصية)

9_ أولوية الفرائض على النوافل وألوية فروض الأعيان على فروض الكفايات (لا يقبلُ الله تعالى نافلةً حتى تؤدى الفريضة)

10_ أولوية حقوق العباد على حق الله المجرد ، وألوية حق الجماعة على حق الفرد (حقوق الله تعالى مبنية على المسامحة ،

وحقوق العباد مبنية على المُشاحَحة)

11-أولوية جهاد العدو القريب الصَّائِلِ على غيره (قال تعالى : قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) التوبة

سابعاً - فقه المآلات :

ويُوصَلُ الإمام الشاطبي لهذا الفقه فيقول:

النظر في مآلات الأفعال مقصودٌ شرعاً ؛ وذلك أنّ المجتهد لا يحكم على فعلٍ من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، فقد يكون مشروعاً لمصلحة فيه تُستجلبُ، أو لمفسدةٍ فيه تُدرأ، ولكن له مآلٌ على خلاف ما قُصدَ فيه، وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به، ولكن له مآلٌ على خلاف ذلك، فإذا أُطلق القول في الأول بالمشروعية فربما أدى استجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوي المصلحة أو تزيد عليها، فيكون هذا مانعاً من إطلاق القول بالمشروعية، وكذلك إذا أُطلق القول في الثاني بعدم المشروعية فربما أدى استدفاع المفسدة بمفسدةٍ تساوي أو تزيد، فلا يصلح إطلاق القول بعدم المشروعية، وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب مذاق محمود العاقبة، جارٍ على مقاصد الشريعة .

تأصيل فقه المآلات من القرآن الكريم والسنة النبوية :

أولاً : من القرآن الكريم :

يقول الله تعالى : {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}

يقول ابن العربي : اتفق العلماء على أن معنى الآية : لا تسبوا آلهة الكفار فيسبوا الله سبحانه وتعالى، وهذا نهى عن سب آلهة المشركين ، ولو كان ذلك السب على سبيل الغيظ منها والإهانة لها والحمية لله عزّ وجلّ ، ولأنه في الوقت نفسه يؤدي إلى سب الكفار لله عز وجل ، ولذلك ورد النهي عنه.

وكذلك آيات سورة الكهف وقصة سيدنا موسى مع العبد الصالح، حيث إنّ أفعال العبد الصالح كلها عُلِّتْ بغايات مآلية : خرق السفينة {قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أَمْرًا} فعَلَّ : {أما السفينةُ فكانتُ لِمَسَاكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} ، وكذلك في مسألة قتل الغلام وعمليّة بناء الجدار.

يقول الله تعالى : {وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} .(قال العلماء: هذه الآية أصلٌ من أصول إثبات سد الذرائع - التي قال بها مالك وتابعه أحمد في بعض رواياته - وهو كلّ عملٍ ظاهره الجواز يُوصَلُ به إلى محذور، كما فعل اليهود حين حُرِّم عليهم صيد

السبت، فسكروا الأنهار وربطوا الحيتان فيه إلى يوم الأحد) ، والشواهد من القرآن الكريم في هذا الموضوع كثيرة لا يتسع المجال لاستيفائها.

ثانياً : من السنة النبوية :

وفي السنة النبوية تطبيقات هادية في هذا الباب:

فقد أمتنع النبي _ صلى الله عليه وسلم_ عن قتل المنافقين مع علمه بهم وعلمه باستحقاقهم القتل، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: جُنْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ _ صلى الله عليه وسلم_ عام الجِعْرَانَةِ وَهُوَ يُقْسِمُ فِضَّةً فِي ثَوْبِ بِلَالٍ لِلنَّاسِ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اعْدِلْ . فَقَالَ: وَيَلِّكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ اَعْدِلْ؟! لَقَدْ خَبْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ اَعْدِلُ! فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دَعْنِي أَقْتُلْ هَذَا الْمُنَافِقَ، فَقَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي. إِنَّ هَذَا وَأَصْحَابَهُ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ أَوْ تَرَاقِيَهُمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ).

وتخلي النبي _ صلى الله عليه وسلم_ عن إعادة بناء المسجد الحرام على قواعد إبراهيم حتى لا يثير بلبلة بين العرب، وكثير منهم حديثو عهد بالإسلام، وقال مخاطباً عائشة رضي الله عنها: " أَلَمْ تَرِي أَنْ قَوْمِكَ حِينَ بَنَوْا الْكَعْبَةَ ائْتَصَرُوا عَنْ قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفَلَا تَرُدُّهَا عَلَى قَوَاعِدِ إِبْرَاهِيمَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: لَوْلَا حِدْنَانُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَفَعَلْتُ " وفي رواية أخرى "لَوْلَا حَدَاثَةُ قَوْمِكَ بِالْكَفْرِ لَنَقَضْتُ الْبَيْتَ، ثُمَّ لَبَنَيْتُهُ عَلَى أُسَاسِ إِبْرَاهِيمَ" .
والشاهد أَنَّ النبي _ صلى الله عليه وسلم_ ترك ذلك الفعل مع ما فيه من المصلحة الظاهرة خشية أن يؤول الأمر إلى ما فيه مفسدة، ودرء المفاسد مقدّم على جلب المصالح كما هو مقرر عند أهل العلم .

الأسس الثلاثة لفقهِ المآلات :

1_ استقراء الجزئيات لصياغة الكليات

2_ فقه سنن القرآن في الأنفس والمجتمعات والحضارات قياماً وسقوطاً .

3_ الاعتماد على آليات النظر الاستراتيجي المعتمد في الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية المعاصرة .

أما الأساس الأول : فهو يعتمد على قراءة متأنية وعميقة للأحداث التي شكلت المواقف السياسية والأنماط الاجتماعية والثقافية للمجتمع الذي نعيش فيه. وقد أثبتت الدراسات الاجتماعية أَنَّ المجتمع يتكون من أنماط ثقافية وعرفية إلزامية وأخرى غير إلزامية، بل إِنَّ الأعراف الإلزامية هي التي تُحدث التغيير الاجتماعي وليس العكس، وأنها قوة اجتماعية من الصعب جداً تغييرها بعد استحكامها في المجتمع.

ولذلك فالداعية في حاجة إلى استقراء جزئيات الواقع وتحديد العوامل التي تؤثر في مساره كما يحدد عالم الاجتماع الأنماط السلوكية للمجتمع. وإذا كان علم الاجتماع قد حدد عناصر الثقافة في ثلاثة عناصر وهي: اللغة والعادات والقيم ، فإنَّ الداعية المسلم في حاجة إلى الارتقاء إلى المستوى الحضاري في تحديد الإطار العام لعناصر الثقافة ، وهو الإطار الحضاري الإسلامي الذي يجعل من الدين الوحدة الأساسية لتحليل الأحداث الجزئية والكلية ، أو على حد تعبير مالك بن نبي "استخدام الفكرة الدينية لتفعيل عناصر الحضارة، وهي الإنسان والتراب والزمن".

والأساس الثاني من أسس فقه المآلات هو فقه السنن الكونية والحضارية التي تضمنها القرآن وهو يفسر لنا قيام وسقوط الأمم والحضارات ، فلقد زَجَرَ القرآن الكريم بجملة من سنن قيام وسقوط الحضارات كثيراً ما نغفل عنها.

وأما الأساس الثالث : فهو دعوة للاستفادة من آليات الدراسات الاستراتيجية والمستقبلية التي تستخدمها الدول والمراكز الخاصة بذلك ، فإن معظم الدوائر السياسية والاقتصادية تعتمد على مؤشرات تبني عليها خططها التنموية، وترسم على ضوءها سياستها المالية التي تساعد على تحقيق التنمية المستدامة وضمان الاستقرار العام.

* أهم تطبيقات فقه المآلات:

من أمثلة ذلك ما ذكره العلماء في حالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حيث ذكروا أنّ المرء يأمر وينهى في حالة عدم نتوج مفسدة أكبر بسبب هذا الأمر وذلك النهي ، وحين يجد الأمر والنّاهي أنّ فعله سيؤول إلى مفسدةٍ أعظم، فعليه أن يكفّ عن أمره أو نهيه ، عندما بال الأعرابي في المسجد، وقام الصحابة لزرجه ومنعه، قال عليه الصلاة والسلام : (لا تُزْرِمُوهُ ، دَعُوهُ) .

فلولا مراعاة المآلات والنتائج لوجب قتل المنافقين وإعادة بناء البيت على قواعد إبراهيم ، ومنع الأعرابي من إتمام عمله المنكر الشنيع ، ولكن الأول كان سيفضي إلى نفور الناس من الإسلام خشية أن يُقتلوا بتهمة النفاق ، والثاني يؤدي إلى اعتقاد العرب أنّ النبي _صلى الله عليه وسلم_ يهدم المقدسات ويغيّر معالمها ، والثالث ليس فيه إلا أن يُنجَسَ البائل جسمه وثوبه وربما نجس مواضع أخرى من المسجد ، وربما كان هناك ضرر صحي عليه.

وفي صحيح مسلم عن سلمان بن ربيعة قال: قال عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: (قَسَمَ رسولُ الله _صلى الله عليه وسلم_ قَسَمًا فقلت: والله يا رسولَ الله لَعَيْرُ هُوَ لاءِ كان أحقَّ بهِ منهم، قال: أنهم خَيْرُونِي أَنْ يَسْأَلُونِي بِالْفُحْشِ أَوْ يُبْخَلُونِي فَلَسْتُ بِبَاخِلٍ).

يقول _صلى الله عليه وسلم_ أنهم يسألوني مسألة لا تصلح ؛ فإن أعطيتهم وإلا قالوا : هو بخيل ، فقد خيروني بين أمرين مكرهين لا يتركوني من أحدهما : الفاحشة والتبخيل، والتبخيل أشد، فأدفع الأشد بإعطائهم .

عن جَابِرِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رسولَ اللهِ _صلى الله عليه وسلم_ يَقُولُ عامَ الفُتْحِ وهو بِمَكَّةَ: " إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَمَ بَيْعِ الخَمْرِ وَالمَيْتَةِ وَالخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ، فَقِيلَ: يَا رسولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ شُحُومَ المَيْتَةِ، فَإِنَّهَا يُطْلَى بِهَا السُّفُنُ وَيُدْهَنُ بِهَا الجُلُودُ، وَيَسْتَصْبِحُ بِهَا النَّاسُ، فَقَالَ: لا، هُوَ حرام، ثُمَّ قال رسول الله _صلى الله عليه وسلم_ عِنْدَ ذَلِكَ: قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهَا، ثُمَّ بَاعُوهَا، فَأَكَلُوهَا تَمَنَّهُ " .

هذه النصوص وغيرها تدل على أصالة فقه المآلات ومكانته في شريعتنا الإسلامية ، وعلاقته الوطيدة ببعض صور الاستدلال ، حتى إنّ الشاطبي رحمه الله يؤكد أنّ سدّ الذرائع ومراعاة الخلاف يتقرعان من مبدأ (المآلات).

ثامناً - فقه الموازنات

أقسام فقه الموازنات:

يقسم فقه الموازنات إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

1_ الموازنة بين المصالح :

المصلحة في الاصطلاح كما عرفها الغزالي هي : طلب منفعةٍ أو دَفْعُ مَفْسَدَةٍ، والمحافظة على مقصود الشرع، ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهي : (الدين، النفس، النسل، العقل، والمال) ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يُقوّت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة.

ومن الأدلة التي استنبط منها العلماء قاعدة الموازنة بين المصالح: قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: 219].

فقدّم القرآن الكريم مصلحة الإنفاق على العيال في حال عدم وفرة المال، على مصلحة الإنفاق على الفقير وهو أمر عقلي وفطري يعضده الرأي الشرعي والرأي الاجتماعي، وهي العادة الشفوية.

2_ الموازنة بين المصالح والمفاسد :

ومن الآيات الدالة على الموازنة بين المصالح والمفاسد قوله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} [البقرة: 219]. ففي قوله تعالى: {وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا} دلالة واضحة على الموازنة بين المصالح والمفاسد.

وفي الحياة اليومية تغلب معرفة هذا النوع لكونه مقرراً في طبائع الأشياء حيث يغلب معرفة المفسدة من المصلحة لكون التقارب بينهما والاشتباه بعيداً.

3_ الموازنة بين المفاسد :

ذكر القرآن الكريم قصة الخضر عليه السلام حين خَرَقَ السفينة وهي سالحة، فقد أحدث فيها مفسدة، ليدفع بها مفسدة أعظم، ألا وهي غَصْبُ السفينة من قبل الملك، فلولا هذا الخرق أو المفسدة لأخذها الملك، وضاع أهلها الذين يفتاتون بما رزقهم الله من دخلها، قال تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: 79] ، وفي هذه القصة دليل على جواز قصد إحداث مفسدة ما، لدفع أخرى راجحة، ولا يُعد ذلك من باب الخيانة للأمانة أو للأمة.

فكيف تكون الحال إذا فَرَضَ الواقع نفسه بضغط من الظروف كالاستعانة بالجيوش غير المسلمة لدفع عدوٍّ صائلٍ، أو توقيع معاهدة سلام مع الأعداء والتنازل فيها عن بعض الحقوق، أو بالضغط من قبل الأعداء لتسليمهم بعض الرعايا المسلمين في ظروف خاصة حرجة. لا شك أنّ عمل مثل هذه الأمور في مثل هذه الأحوال القاهرة أولى بالجواز، لما سيطرت على عدم الاستجابة لهذه الضغوط من مفسدات كبيرة تهدد أحياناً وجود الدولة.

إنّ فقه الموازنة عمل دقيق، تكتنفه مخاطر عدة، لذا فهو يحتاج إلى فقيه فطن وخبير متوازن الشخصية، متمكّن من علوم الشرع، مستبصر بواقع الحال، مدركٍ لمآلات الأفعال وآثارها.

يقول ابن تيمية: "باب التعارض باب واسع جداً، خاصة في الأزمنة والأمكنة التي نقصت فيها آثار النبوة وخلافة النبوة، فإنّ هذه المسائل تكثر فيها، وكلما ازداد النقص ازدادت هذه المسائل، ووجود ذلك من أسباب الفتنة بين الأمة؛ فإنّه إذا اختلطت الحسنات بالسيئات وقع الاشتباه والتلازم، فأقوام قد ينظرون إلى الحسنات فيرجحون هذا الجانب وإن تضمن سيئات عظيمة، وأقوام قد ينظرون للسيئات فيرجحون الجانب الآخر وإن تركّ حسنات عظيمة، والمتوسّطون الذين ينظرون الأمرين، قد لا يتبين لهم أو لأكثرهم مقدار المنفعة والمضرة، أو يتبين لهم، فلا يجدون من يعينهم للعمل بالحسنات وترك السيئات لكون الأهواء قارنت الآراء".

وقبل أن نذكر وجوه الترجيح وموجّهات الموازنة فلا بدّ أن ننبه هنا إلى أنّ المعيار الصحيح لإدراك المصالح والفساد هو الكتاب والسنة، وهذا أمر تدرّكه الفطر السليمة، والعقول الصحيحة، ولذا فالمعتبر في معرفة المصلحة هو النصّ الشرعيّ، فإنّ الشرع لا يُهمل مصالح العباد.

ومن المصالح والمفاسد ما يكون الترجيح بينهما بالتقريب، لأنّها «لا ووقوف على مقاديرها وتحديدها»، وبذلك فهي من موارد الاجتهاد التي يختلف فيها النظر بين المجتهدين، فمن أصاب فله أجران ومن أخطأ فله أجر واحد.

إلا أنّ المطلوب من الناظر عند الموازنة أن يستوفي النظر، غير غافلٍ عن أيّ وصفٍ مؤثر. يقول ابن تيمية: " الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرّم، وليس هو ترك المحرم فقط، ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل من كراهة توجب تركه ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر توجب فعله " .

وسبب ذلك أنّ من الناس من ينظرُ للفساد الموجود في الفعل والذي يحمله على تركه، ولا ينظر إلى ما يعارض من المصلحة الراجحة.

والمطلوب من الناظر ألا يغفل عن أيّ وصفٍ للحال أو المآل، ويتحرّى الصواب، مع الاستشارة، فإن الصواب قد يظهر لقومٍ ويغيب عن آخرين، وينبذ الهوى، فإنّ في اتباعه مضادةً للصواب، ويستعمل الإخلاص وحسن القصد وسلامة القلب، فإن الموازنة مذلة قوم، ومدحضة فهم، وكثيراً ما يقع فيه الإختلاط .

حاجتُنا إلى فقه الشرع وفقه الواقع :

ونحن في هذا المقام نحتاج إلى مُستويين من الفقه :

أولهما : فقه شرعيّ يقوم على فهم عميق لنصوص الشرع ومقاصده، حتى يسلم بصحة (مبدأ الموازنات) المذكور، ويعرف الأدلة عليه ، وهي واضحة لمن استقرأ الأحكام والنصوص وغاص في أسرار الشريعة .
فما جاء الشرع إلا لتحقيق مصالح العباد في المعاش والمعاد، برتبها المعروفة : الضرورية والحاجية والتحسينية.

والآخر: فقه واقعي، مبنيّ على دراسة الواقع المعيش دراسةً دقيقةً مُستوعبةً لكلّ جوانب الموضوع، معتمدةً على أصلح المعلومات وأدقّ البيانات والإحصاءات، مع التحذير هنا من تضليل الأرقام غير الحقيقية المستندة إلى المنشورات الدعائية، والمعلومات الناقصة والبيانات غير المستوفية، والاستبيانات والأسئلة الموجهة لخدمة هدف جزئيّ معيّن لا لخدمة الحقيقة الكلية.

ضرورة تكامل الفقهين للوصول إلى نتائج سليمة.

ولا بدّ أن يتكامل فقه الشرع، وفقه الواقع، حتى يمكن الوصول إلى الموازنة العلمية السليمة، البعيدة عن الغلو والتفريط. والجانب الشرعي هنا واضح من الناحية المبدئية، فقد تحدّثت عنه كتب أصول الفقه من المستصفي إلى الموافقات، وكتب القواعد والأشباه والفروق .

إنّ المصالح إذا تعارضت فوّتت المصلحة الدنيا في سبيل المصلحة العليا، وضحّي بالمصلحة الخاصة من أجل المصلحة العامة، ويُعوّض صاحب المصلحة الخاصة عمّا ضاع من مصالحه أو ما نزل به من ضرر، وألغيت المصلحة الطارئة لتحصيل المصلحة الدائمة أو الطويلة المدى، وأهملت المصلحة الشكلية لتحقيق المصلحة الجوهرية، وغُلِبَت المصلحة المُتيقّنة على المظنونة والموهومة .

وفي صلح الحديبية رأينا النبي-صلى الله عليه وسلم- يُعَلِّبُ المصالح الحقيقية والأساسية والمستقبلية على بعض الاعتبارات التي يتمسك بها بعض الناس، فقيل من الشروط ما قد يُظنُّ لأوّل وهلة أنّ فيه إجحافاً بالجماعة المسلمة، أو رضى بالدون، ورضي أن تُحذف البسمة المعهودة، ويكتب بدلها (باسمك اللهم) وأن يمحي وصف الرسالة من عقد الصلح، ويكتفى باسم محمد بن عبد الله. والأمثلة كثيرة ، والمجال ذو سبعة .

وإذا تعارضت المفسد والمضارّ ولم يكن بدّ من بعضها، فمن المقرّر أن يتركب أخفّ المفسدتين ، وأهون الضررين. هكذا قرر الفقهاء : أنّ الضرر يُزال بقدر الإمكان، وأنّ الضرر لا يُزال بضررٍ مثله أو أكبر منه، وأنّه يُتحمّل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى، ويُتحمّل الضرر الخاصّ لدفع الضرر العام. ولهذا أمثلة وتطبيقات كثيرة ذكرتها كتب (القواعد الفقهية) أو (الأشباه والنظائر).

وإذا تعارضت المصالح والمفاسد، أو المنافع والمضارّ، فالمقرّر أن يُنظر إلى حجم كلّ من المصلحة والمفسدة ، وأثرها ومداه، فتُغتفَرُ المفسدة اليسيرة لجلب المصلحة الكبيرة ، وتُغتفَرُ المفسدة المؤقتة لجلب المصلحة الدائمة والطويلة المدى ، وتُقبَلُ المفسدة وإن كبرت إذا كانت إزالتها تؤدي إلى ما هو أكبر منها.

وفي الحالات المعتادة : يُقدّم درء المفسدة على جلب المصلحة. وليس المهمّ أن نسلم بهذا الفقه نظرياً، بل المهمّ كلّ المهمّ أن نمارسه عملياً. فكثيرٌ من مسببات الخلاف بين الفصائل العاملة للإسلام، يرجع إلى هذه الموازنات :

-هل يُقبَلُ التحالف مع قوى غير إسلامية؟

-هل تُقبَلُ مُصالحةٌ أو مهادنةٌ مع حكوماتٍ غير ملتزمة بالإسلام؟

-هل تمكُنُ المشاركة في حكم ليس إسلامياً خالصاً؟ وفي ظل دستور فيه ثغرات أو مواد لا نرضى عنها تمام الرضى؟

-هل ندخل في جبهة معارضة مكونة من بعض الأحزاب لإسقاط نظام طاغوتي فاجر؟؟

-هل نقيم مؤسسات اقتصادية إسلامية مع سيطرة الاقتصاد الوضعي الربوي؟؟

-هل نجيز للعناصر المسلمة العمل في البنوك والمؤسسات الربوية أم نفرغها من كل عنصر متدين ملتزم؟؟

*صعوبة الممارسة والتطبيق في الحياة العملية :

إن تقرير المبدأ سهل، ولكن ممارسته صعبة، لأنّ فقه الموازنات يصعب على العوام وأمثالهم من القادرين على التشويش لأدنى سبب. لقد لقي العلامة المودودي وجماعته عنتاً كثيراً حينما رأى - في ضوء فقه الموازنات - أن لانتخاب فاطمة جناح أقلُّ ضرراً من انتخاب أيوب خان، فشنت الغارة عليهم بحديث "لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة". وهل يفلح قوم ولوا أمرهم طاغية متجبراً؟؟ لن يفلحوا، والفقه هنا ينظر: أي الشرّين أهون، أو أيُّ المفسدتين أخفّ، فيرتكب الأدنى في سبيل الأعلى .

والإخوة في سوريا عانوا مثل ذلك، حين قرروا التحالف مع بعض القوى غير الإسلامية لمقاومة النظام الذي يريد أن يستأصل شأفتهم، وقد تحالف الرسول مع خزاعة وهم على الشرك، واستعان ببعض المشركين على بعض.

وأنا لا أنتصر هنا لموقف هؤلاء ولا أولئك، ولكن أنتصر للمبدأ، مبدأ فقه الموازنات الذي على أساسه يقوم بنين (السياسة الشرعية). وفي مواقف الرسول الكريم وأصحابه، وأدلة الشرع الفسيح، ما يؤيد هذا كله، من جواز الاشتراك في حكم غير إسلامي، وجواز التحالف مع قوى غير إسلامية.

أدلة من القرآن على فقه الموازنات

والمتدبر لآيات القرآن الكريم مكّية ومدنيّة، يجد فيه أدلة كثيرة على فقه الموازنات والترجيح.

* نجد في الموازنة بين المصالح قوله تعالى على لسان هارون لأخيه موسى عليهما السلام { يا ابن أمّ لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي، إني خشيتُ أن تقولَ فرقتَ بين بني إسرائيل ولم ترقبْ قولي } (سورة ط : 94) .

* وفي الموازنة بين المفساد والإضرار نجد قوله تعالى على لسان الخضر في تعليل خرق السفينة { أمّا السفينة فكانت

لمساكين يعملون في البحر فأردتُ أن أعيبها، وكان وراءهم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً } (سورة الكهف : 79)

فلأن تبقى السفينة لأصحابها وبها خرقٌ أهون من أن تضيع كلها، فحفظُ البعض أولى من تضييع الكل.

* ومن أبلغ ما جاء في الموازنات قوله تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه، قل قتالٌ فيه كبير، وصدٌّ عن سبيل

الله، وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، والفتنة أكبر من القتل } (سورة البقرة : 217)

فقد أقرّ بأن القتال في الشهر الحرام كبير، ولكن لمقاومة ما هو أكبر منه.

* وفي الموازنة بين المصالح المعنوية والمادية، نقرأ قوله تعالى عتاباً للمسلمين عقب غزوة بدر: {ما كان لنبيٍّ أن يكون

له أسرى حتى يُثخن في الأرض، تريدون عرضَ الدنيا والله يريد الآخرة، والله عزيز حكيم } (الأنفال: 67)

وفي الموازنة بين المصالح والمفاسد نقرأ قوله تعالى : {يسألونك عن الخمر يسألونك عن الخمر والميسر، قل : فيهما إثمٌ

كبيرٌ ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما } (البقرة : 219).

* وفي الموازنة بين الجماعات والقوى غير المسلمة بعضها وبعض، نقرأ أوائل سورة الروم وفيها انتصار للروم على

الفرس، وكلا الفريقين غير مسلم، ولأنّ الروم أهل كتاب فهم أقرب إلى المسلمين من المجوس عبّاد النار.

كلام شيخ الإسلام ابن تيمية :

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام قويٌّ في جواز تولي بعض الولايات في دولة ظالمة، إذا كان المتولّي سيعمل على بعض

الظلم أو تقليل حجم الشر والفساد. (انظر ابن تيمية في ذلك. ملحق رقم " ١ ").

وله في موطن آخر فصل جامع في تعارض الحسنات أو السيئات، أو هما جميعاً، إذا اجتمعا ولم يُمكن التفريق بينهما، بل

الممكن إمّا فعلهما جميعاً وإمّا تركهما جميعاً (انظر: ملحق رقم "2").

إذا غاب فقه الموازنات عن الساحة

إذا غاب عنا فقه الموازنات سَدَدْنَا على أنفسنا كثيراً من أبواب السعة والرحمة، واتخذنا فلسفة الرفض أساساً لكلّ تعامل، والانغلاق على الذات تكأة للفرار من مواجهة المشكلات، والاقترام على الخصم في عقر داره. سيكون أسهل شيء علينا أن نقول: «لا»، أو: حرام في كل أمر يحتاج إلى إعمال فكر وإجهاد.

أما في ضوء فقه الموازنات فسنجد هناك سبيلاً للمقارنة بين وضع ووضع، والمقابلة بين حال وحال، والموازنة بين المكاسب والخسائر، على المدى القصير، وعلى المدى الطويل، وعلى المستوى الفردي، وعلى المستوى الجماعي، ونختار بعد ذلك ما نراه أدنى لجلب المصلحة، ودرء المفسدة.

ولا يزال بعض الإخوة يُنكرون على من يكتب في الصحف اليومية التي لا تلتزم بالخط الإسلامي الصريح، بل هناك من يرى مقاطعة أجهزة الأنثمة كلها: مقروءة و مسموعة ومرئية، لما يشوبها من انحراف وفساد في الفكر والسلوك، ناسبين ما لها من خطر بالغ على العقول والضمائر، وإن تركها لا يزيدا إلا فساداً وخبالاً، وسيمكّن العلمانيين والمُنحَلين من التغلغل فيها، والتخريب لها، وسيحرّمنا نحن من فرص لا نجد لها عوضاً.

ومن نظر إلى الأمر في ضوء فقه الموازنات وَجَدَ أنَّ الدخول في هذه الميادين الهامة ليس مشروعاً فحسب بل هو مستحبٌّ، بل واجب، لأنه وسيلة إلى أداء أمانة الدعوة ومقاومة الباطل والمنكر بقدر المستطاع، وما لا يَتِمُّ الواجب إلا به فهو واجب كما هو مقرر ومعلوم.

تاسعاً - فقه المرحلة

يجب على الأخ المسلم أن يفقه المرحلة التي يعمل بها ويراعي الظرفَ الزماني والمكاني والاجتماعي والمُنحَى البياني لسير الدعوة، فإن كثير من الدعوات والمشاريع الحضارية أجهضت لضعف الفقه المرحلي عند أبنائها.

وعليه فإننا نراعي أن لا نبحث عن حلّ قبل أن نُشخّص المشكلة، ولا ننتقل إلى الدعوة جهراً قبل أن تتخمر الدعوة سرّاً، ولا بالهجرة قبل عقد البيعة، ولا نعمل على أننا في العهد المدني ولا نزال في العهد المكي ولا نبني الدولة ونحن لم نبني الإنسان، ولا نستعجل الفتح قبل الجهاد، ولا نبدأ الجهاد قبل الإعداد للجهاد القتالي قبل الجهاد البياني، ولا نتحرك في جهاد الطلب ولم نخرج من ساحة جهاد الدفع، ولا نسترخي بعد الوصول إلى الفتح حتى لا يكون المنحدر والسقوط.

- 1_ في زمن الاستضعاف جاز للمسلم كتمان الدين تحقيقاً لمقاصده، وفي حال الإكراه الملجئ جاز للمسلم النطق بكلمة الكفر من غير أن يخدش ذلك في دينه.
- 2_ وما جاز زمن الاستضعاف قد يكون محرماً عند التمكين، وما أُبِيحَ حال الإكراه والاضطرار فهو محظورٌ عند القدرة والاختيار.
- 3_ إنَّ الخلط بين ما جاز فعله زمن الاستضعاف وما يجب فعله زمن التمكين يؤدي إلى اضطراب في الرؤية والهدف وانحراف سلوك العاملين للدين.
- 4_ فمن تمام العلم بالشرعية معرفةً حكمة التفريق بين مرحلة الاستضعاف والإكراه ومرحلة القدرة والتمكين، وتغيّر الأحكام بين المرحلتين ضمن قواعد الاستطاعة.
- 5_ وإنّ من المقرر في أصول الشريعة أنّ الأحكام مُعَلَّلَةٌ، وما انضبطت علته سرى حكمه لغيره إن اشتركا في العلة ولو لم تنص عليه الشريعة.
- 6_ وإن من المتفق عليه بين الأصوليين أن بعض المسائل قد يتغيّر حكمها بتغيّر الزمان أو المكان أو المال أو الحال أو المصلحة أو المفسدة.

- 7_ ولا يتعارض ذلك مع ثبات أحكام الشريعة وأصالتها لأن أدلة تغيير أحكام تلك المسائل هي الشريعة نفسها، مما يدل على سعتها وصلاحتها لكل الأزمان.
- 8_ يقول الإمام الشاطبي في موافقاته في بيان صفة العالم الراسخ : " أنه ناظر في المآلات قبل الجواب على السؤالات " .
- 9_ فكما ازداد إدراك العالم لشمول الشريعة ومُرُوتها ومقاصدها وكلياتها ازداد رسوخاً في العلم حتى يصل إلى مقام أهلية الفُتْيَا والنظر في النوازل.
- 10_ وكما وقف الداعية على ذلك كانت دعوته على بصيرةٍ ونورٍ، وتربى على يديه جيلٌ راشدٌ مؤهلٌ لحمل الرسالة الربانية والهدي النبوي بالطريقة الأمثل.
- 11_ وعلى قدر إدراك القائد والأمير لها تكون قراراته مسددة وخطواته موفقة بحيث تسير الجماعة باتزان في سيرها لإقامة العدل وتجتنب اعوجاج الطريق.
- 12_ فكم من أقوام دعوا إلى أمورٍ تأبى الشريعة نسبتها إليها وقاتلوا عليها فصدوا عن سبيل الله وأفروا بذلك قلوب الكافرين وأحزنوا قلوب المؤمنين.
- 13_ فما أشد حاجة العاملين للدين جهاداً ودعوة في زماننا إلى إدراك شمول الشريعة وحيويتها ومرورتها أثناء المدافعة والتغيير.
- 14_ وعليه فلمن سأل عن أدلة فقه المرحلة فجوابه جميع النصوص التي تربط التكليف بالقدرة وكيفية أمثال الأمر الإلهي حال العجز الجزئي أو العجز الكلي .

فقه المرحلة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

يقول شيخ الإسلام :

" فحيثما كان للمنافق ظهورٌ، وتخافُ من إقامة الحدِّ عليه فتنةٌ أكبرَ من بقائه، عملنا بآية: **{وَدَعْ أَذَاهُمْ}**. كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار، عملنا بآية الكفِّ عنهم والصفح، وحيث ما حصلت القوة والعزَّ خوطينا بقوله: **{جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ}**. اهـ. الصارم المسلول في حكم من سب الرسول ج 1 ص 362

من فقه المرحلة

- النظرة الظاهرية للنصّ دون الاستقراء العامّ للنصوص يجعل الجماعة تعمل بسياسة :
- حرق المراحل بدلاً من فقه المرحلة ،
- واستعداد الخصوم بدلاً من تحديد الأعداء ،
- والعمل على إنجاز الهدف المعجز وتترك الهدف الممكن ،
- والتمسك بالمسميات مع تغييب الجوهر ،
- وعليه يجب على الجماعات الإسلامية أن تجتهد في تحديد المرحلة التي تعمل بها بمحددات واضحة :
- 1_ هل نحن في المرحلة المكّية أم المرحلة المدنيّة أم بمرحلة بين بين أو نرْفُضُ هذا التقسيم أساساً ؟
- 2_ هل نحن في مرحلة قوّة أم مرحلة استضعافٍ أو بين بين (مرحلة تمكين جزئي) ؟

3_ هل نحن في مرحلة التَّيْهِ أم الرُّشْدِ أو في مرحلة بداية الخروج من التيه، هذه كله يجب أن يُحدِّدَ لنعرف أي نوع من الأحكام نعمل ، لأنَّ الملاحظ أن الجماعات تعمل تارةً بأحكام التمكين وتارةً بأحكام الاستضعاف فلا تكاد تنضبط . بسبب القراءات البتراء والمجدوذة للنصوص والسيرة والعقيدة والفقہ

عاشراً - فقه السنن الربانيّة في الأمم والحضارات :

على الداعية والأخ المسلم أن يفقه سنن الله في الدعوات والدول، وهي دساتير ثابتة في حركة المجتمعات وزوال الحضارات، وهذه السنن سنن ثابتة لا تُجامل نبياً مرسلأ ولا ولياً مقرباً، وهي تفعل فعلها بالمجتمعات كما تفعل قوانين الفيزياء والكيمياء فعلها في المادة، وهي تختلف عن السنن الكونية التي ربما تُحرقُ لنبيّ أو وليّ، ولكن هذه السنن لا تنخرم ولا تتخلف، والجهل بهذه الدساتير يجعل من الداعية يقف متحيراً أمام الأحداث التي تعصف بالعالم وتستعصي على الفهم .

تمتاز هذه السنن بسمتين متلازمتين :

الثبات والاطراد ،

فهي ثابتة لا تتغير إلى سنن أخرى ،

ومطرده إن وجدت مقدمتها ستفضي إلى نفس النتائج ، قال تعالى :

{سُنَّةٌ مِّنْ قَدِّ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا} (سورة الإسراء آية 77)، {فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} (فاطر 43)، {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (سورة الأحزاب 62)

المغالبة والقفز على السنن :

1_ يجب دفع الأمر الكوني بالأمر الشرعي ولكن مع تحاشي المغالبة:

قال تعالى { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا }

{ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسَكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ }

2_ كما لا يجوز القفز على السنن

" إِنَّ الْمُنْبِتَ لَا ظَهْرًا أَبْقَى وَلَا أَرْضًا قَطَع "

وهذه السنن هي :

أولاً - سنّة الابتلاء والتمكين

1_ التمكين يكون بعد الابتلاء، قال تعالى : { ونريد أن نمنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين } وقد أسلفنا الذكر عنها في فقه التمكين .

2_ الابتلاء بصفة عامّة سنّة الله في خلقه، وهذا واضح في تفسيرات القرآن الكريم، قال تعالى: { وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ، إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ } [الأنعام: 165] وقال سبحانه: { إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا } [الكهف: 7] وقال جل شأنه: { إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا } [الإنسان: 2].

من أعجب حُجَجِ المنافقين استدلالهم بالابتلاء على خطأ الطريق! كما قال الأول { لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا }!

الابتلاء مرتبط بالتمكين ارتباطاً وثيقاً، فلقد جَرَتْ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى أَلَا يُمَكِّنُ لِأُمَّةٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَمُرَ بِمَرَاكِلِ الْإِبْتِلَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ يَنْصَهَرَ مَعْدِنُهَا فِي بَوْتَقَةِ الْأَحْدَاثِ، فَيَمَيِّزُ اللَّهَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَهِيَ سُنَّةٌ جَارِيَةٌ عَلَى الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَا تَتَخَلَفُ، فَقَدْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَبْتَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَخْتَبِرَهُمْ، لِيَمَحِّصَ إِيْمَانَهُمْ ثُمَّ يَكُونَ لَهُمُ التَّمَكِينُ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى عَلَى لِسَانِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ حِينَ سَأَلَهُ رَجُلٌ: أَيُّهُمَا أَفْضَلُ لِلْمَرْءِ، أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يَبْتَلَى؟ فَقَالَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ: لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ابْتَلَى نُوْحًا وَإِبْرَاهِيمَ، وَمُوسَى وَعِيسَى، وَمُحَمَّدًا صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، فَلَمَّا صَبَرُوا مَكَّنَهُمْ، فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنْ يَخْلُصَ مِنَ الْأَلَمِ الْبَيْتَةِ .

حِكْمَةُ الْإِبْتِلَاءِ وَفَوَائِدِهِ:

لِلإِبْتِلَاءِ حِكْمٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَهْمِهَا:

1- تصفية النفوس :

جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحق منهم والمبطل، وذلك لأن المرء قد لا يُكشَفُ فِي الرِّخَاءِ، لَكِنَّهُ تَكشِفُهُ الشَّدَّةُ، قَالَ تَعَالَى: { أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ } [العنكبوت: 2].

2- تربية الجماعة المسلمة :

وفي هذا يقول سيد قطب رحمه الله: «ثم أنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الواقعية لحقيقة الناس وحقيقة الحياة، ذلك لِيَثْبُتَ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ أَصْلَبُ أَصْحَابِهَا عَوْدًا، فَهؤُلاءِ هُمُ الَّذِينَ يَصْلُحُونَ لِحَمَلِهَا، إِنْ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَهَمُ عَلَيْهَا مُؤْتَمِنُونَ»

3- الكشف عن خبايا النفوس :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكنَّ الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكتشف لعلم الله، مُعَيَّبٌ عَنِ عِلْمِ الْبَشَرِ، فَيَحَاسِبُ النَّاسَ إِذْ نَظَرَ عَلَى مَا يَقَعُ مِنْ عَمَلِهِمْ لَا عَلَى مَجْرَدِ مَا يَعْلَمُهُ سُبْحَانَهُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَهُوَ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ جَانِبٍ، وَعَدْلٌ مِنْ جَانِبٍ، وَتَرْبِيَةٌ لِلنَّاسِ مِنْ جَانِبٍ، فَلَا يَأْخُذُوا أَحَدًا إِلَّا بِمَا اسْتَعْلَنَ مِنْ أَمْرِهِ وَبِمَا حَقَّقَهُ فِعْلُهُ، فَلَيْسُوا بِأَعْلَمَ مِنَ اللَّهِ بِحَقِيقَةِ قَلْبِهِ» .

4- الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وما بالله - حاشا لله - أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيتهم بالفتنة، ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتتفني عنها الحَبَثَ وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرُقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويُصَلَّبُ وَيُصَقَّلُ، وَكَذَلِكَ تَفْعَلُ الشَّدَائِدُ بِالْجَمَاعَاتِ، فَلَا يَبْقَى صَامِدًا إِلَّا أَصْلَبُهَا عَوْدًا وَأَقْوَاهَا طَبِيعَةً، وَأَشْدَاهَا اتِّصَالًا بِاللَّهِ،

وثقة فيما عنده من الحسينين النصر أو الإجر، وهؤلاء هم الذين يُسَلِّمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار»

5- معرفة حقيقة النفس :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي يَعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخبائها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يروون كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق ومسارب الضلال»

6- معرفة قدر الدعوة :

وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: «وذلك لكي تعزّ هذه الدعوة عليهم، وتغلو بقدر ما يصيبهم في سبيلها من غثّ وبلاء، ويقدر ما يُضَحّون في سبيلها من عزيز وغالٍ، فلا يُفَرِّطوا فيها بعد ذلك مهما كانت الأحوال»

7- الدعاية لها :

فصبر المؤمنين على الابتلاء دعوة صامته لهذا الدين وهي التي تدخل الناس في دين الله، ولو وَهَنوا أو استكانوا لما استجاب لهم أحد، لقد كان الفرد الواحد يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يأتيه أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يمضي إلى قومه يدعوهم، ويصبر على تكذيبهم وإذاهم، ويتابع طريقه حتى يعود بقومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وسنرى ذلك في الصفحات القادمة إن شاء الله.

8- جذب بعض العناصر القوية إليها :

وأمام صمود المسلمين وتضحياتهم، تتوق النفوس القوية إلى هذه العقيدة، ومن خلال الصلابة الإيمانية تكبر عند هذه الشخصيات الدعوة وحاملوها، فيسارعون إلى الإسلام دون تردد، وأعظم الشخصيات التي يعتز بها الإسلام دخلت إلى هذا الدين من خلال هذا الطريق).

9- رفع المنزلة والدرجة عند الله، وتكفير السيئات :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما يصيب المؤمن من شوكة فما فوقها إلا رفعه الله بها درجة، وحطّ عنه خطيئة» (فقد يكون للعبد درجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمله فيبتليه الله تعالى حتى يرفعه إليها، كما أنّ الابتلاء طريق لتكفير سيئات المسلم). كما أن للابتلاء فوائد عظيمة منها: معرفة عزّ الربوبية وقهرها، معرفة ذلّ العبودية وكسرها، الإخلاص، الإنابة إلى الله والإقبال عليه، التضرّع والدعاء، الحلم عمّن صدرت عنه المصيبة، العفو عن صاحبها، الصبر عليها، الفرح بها لأجل فوائدها، الشكر عليها، رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم، معرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها، ما أعدّه الله تعالى على هذه الفوائد من ثواب الآخرة على اختلاف مراتبها، وغير ذلك من الفوائد.

ثانياً : سُنَّة النصر والهزيمة

النصر يكون لمن أخذ بأسبابه وأعد له العدة الإيمانية والمادية، قال تعالى : { **إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** }،

وقال تعالى : { **وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ** }

والنصر قد يُبْطئ على الذين ظَلِمُوا و أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربُّنا الله ، فيكون هذا الإبطاء لحكمةٍ يريدُها الله :

1_ قد يُبْطئ النصر لأنَّ بنية الأمة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها، ولم يتم بعد تمامها، ولم تحشد بعد طاقاتها، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف أقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات، فلو نالت النصر حينئذٍ لفقدته و شيكاً لعدم قدرتها على حمايته طويلاً .

2_ وقد يُبْطئ النصر حتى تبذل الأمة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة، و آخر ما تملكه من رصيد، فلا تستبقي عزيزاً ولا غالباً ، لا تبدله هَيئاً رخيصاً في سبيل الله .

3_ وقد يُبْطئ النصر حتى تُجربَ الأمة المؤمنة آخر قواها، فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سَنَدٍ من الله لا تكفل النصر ، إنَّما ينتزل النصر من عند الله عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تَكَلَّ الأمر بعدها إلى الله .

4_ وقد يُبْطئ النصر لتزيد الأمة المؤمنة صلتها بالله ، و هي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سنداً إلا الله ، ولا متوجَّهاً إلا إليه وحده في الضراء، وهذه الصلة هي الضمانة الأولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن الله به، فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذي نصرها الله به .

5_ وقد يُبْطئ النصر لأنَّ الأمة المؤمنة لم تنجرد بعد في كفاحها وبذلها و تضحيتها لله ولدعوته، فهي تقاتل لمغنم تحققه، أو تقاتل حمية لذاتها ، أو تقاتل شجاعة أمام أعدائها ، والله يريد أن يكون الجهاد له وحده و في سبيله ، بريئاً من المشاعر الأخرى التي تلابسه ، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم : **الرجل يقاتل حميةً والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل لئرى ، فأيهما في سبيل الله ؟ فقال " من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله " .**

6_ كما قد يُبْطئ النصر لأنَّ في الشر الذي تكافحه الأمة المؤمنة بقيةً خير ، يُريد الله أن يُجَرِّدَ الشرَّ منها ليتمحض خالصاً، و يذهب وحده هالكاً، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار !

7_ وقد يُبْطئ النصر لأنَّ الباطل الذي تحاربه الأمة لم ينكشف زيفه للناس تماماً ، فلو غلبه المؤمنون حينئذٍ فقد يجد له أنصاراً من المخدوعين فيه ، لم يقتنعوا بعد بفساده و ضرورة زواله ، فتظلَّ له جذور في نفوس الأبرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله أن يظلَّ الباطل حتى يتكشَّفَ عارياً للناس ، ويذهب غير مأسوفٍ عليه من ذي بقية .

8_ وقد يُبْطئ النصر لأنَّ البيئة لا تصلح بعدُ لاستقبال الخير والحق والعدل الذي تمثله الأمة المؤمنة ، فلو انتصرت حينئذٍ للقيت معارضة من البيئة لا يستقرَّ لها قرار ، فيظل الصراع قائماً حتى تنهياً النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ، ولاستيقائه ! ومن أجل هذا كله و من أجل غيره مما يعلمه الله ، قد يُبْطئ النصر ، فتتضاعف التضحيات ، و تتضاعف الآلام ، مع دفاع الله عن الذين آمنوا و تحقيق النصر لهم في النهاية .

وللنصر تكاليفه وأعباؤه حين يتأذن الله به بعد استيفاء أسبابه و أداء ثمنه و تهيؤ الجوّ حوله لاستقباله واستيقائه { **و لينصرن الله من ينصره إنَّ الله قوي عزيز . الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و أتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور** }.

فَوَعَدُ اللهُ الْوَثِيقَ الْمُؤَكَّدَ الْمُتَحَقِّقَ الَّذِي لَا يَتَخَلَّفُ هُوَ أَنْ يَنْصُرَ مَنْ يَنْصُرُهُ، فَمَنْ هُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ فَيَسْتَحِقُونَ نَصْرَ اللَّهِ الْقَوِيَّ الْعَزِيزِ الَّذِي لَا يَهْزَمُ مِنْ تَوْلَاهُ؟ أَنَّهُمْ هَؤُلَاءِ: {الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ} فَحَقَّقْنَا لَهُمُ النَّصْرَ وَثَبَّتْنَا لَهُمُ الْأَمْرَ { أَقَامُوا الصَّلَاةَ،،، }
رحم الله الإمام الشهيد المجاهد السيد / سيد قطب .

ثالثاً:

الابتلاء لكل صاحب دعوة صادقة جماعة كانوا أم فرداً قال تعالى: { أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ، وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلِيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } ، { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمَجْرِمِينَ }

رابعاً – سُنَّةُ الْمَدَافِعَةِ

المدافعة للظالم بحيث لا يُعْمُ فساده في الأرض، قال تعالى: { وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } .

تحدّث البيان الإلهي عنها في موضعين من كتاب الله :

* قال الله تعالى: { وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ } (البقرة: من الآية 251)
* { وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ } الحج .

في الآيتين نلاحظ :

- 1_ أَنَّ هَذِهِ السُّنَّةُ _ سُنَّةُ الْمَدَافِعَةِ _ تَشْمَلُ كُلَّ النَّاسِ وَليست خاصة بأهل الإيمان والحق .
 - 2_ نلاحظ أَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى تَكَلَّمَتْ عَنْ فساد الدنيا والثانية عن فساد الدين .
 - 3_ وَأَنَّ هَذِهِ السَّنَةُ هِيَ نِعْمَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ يُمْكِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ اسْتِفَادَةَ مَنَّا كَمَا دَخَلَ الصَّحَابَةُ فِي مَنَعَةِ الْمُشْرِكِينَ بِدَايَةِ الدَّعْوَةِ وَاسْتَجَارُوا بِالنَّجَاشِيِّ فِي عَهْدِ الضَّعْفِ وَأَقَامُوا التَّحَالِفَاتِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ كِنَانَةَ فِي عَهْدِ التَّمَكِينِ الْجَزْئِيِّ .
 - 4_ أَنَّ سَنَةَ دَفَعِ اللَّهُ الْحَقَّ لِأَهْلِ الْبَاطِلِ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ مُرْتَبِطَةٌ بِسُنَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ سُنَّةُ الْإِنْتِصَارِ لِلَّهِ تَعَالَى حَتَّى يَنْصُرَنَا، لِأَنَّهَا تَتَحَدَّثُ عَنْ صِرَاعِ الْمُبَادِي، أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فَلَمْ تَرْبِطِ التَّدَافِعَ بِنَصْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَنَّهُ صِرَاعٌ دُنْيَا يَنْتَهِي لِلْأَقْوَى عَادَةً .
- سنة المدافعة هي عملية تنازع البقاء للأصلح والأفضل في حَمَاةِ صِرَاعِ الْحَقِّ مَعَ الْبَاطِلِ، وَهَذَا لَا يَدُ مِنْ حَصْرِ أَنْوَاعِ الصِّرَاعَاتِ وَمَوْقِفِ أَهْلِ الْإِيمَانِ مِنْ كُلِّ مَنَّا :

أولاً - صِرَاعِ أَهْلِ الْحَقِّ مَعَ أَهْلِ الْبَاطِلِ أَرْبَعٌ قَدِيمٌ مُسْتَمِرٌّ:

وهو الذي بدأ من صراع آدم مع إبليس إلى أن يَقْتُلَ الْمَسِيحُ بَنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَسِيحَ الدَّجَالِ .

كانت رحلة الأنبياء تتجلى في بث هذه المبادئ بين الناس، ولكن غالبية القوم يجادلون ويستهزئون ويحاربون بكل الأساليب الإعلامية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية إلى أن تصل أحياناً إلى محاولات الطرد والنفي والاغتيال لأصحاب الدعوات، وقد ينشُبُ بينهما حربٌ عسكرية، وفي النهاية تكون العاقبة للمتقين الأخذين بمنهج الله تعالى سبيلاً لهم وَوَعَا سُنَّتَهُ فِي كَوْنِهِ، فَأَعَدُّوا الْعُدَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ وَالْعَسْكَرِيَّةَ، يَحُوطُهَا إِرَادَةٌ لَا تَلِينُ كَمَا هُوَ وَاضِحٌ فِي قِصَّةِ طَالُوتَ وَجَالُوتَ، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ نَصَرَ الْفِتَّةَ الْمُؤْمِنَةَ حِينَما انْتَفَضَتْ قُلُوبُهُمْ انْتِفَاضَةً إِيمَانِيَّةً وَأَخَذُوا بِسِلَاحِ الْعِلْمِ وَالْقُوَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ، وَعَاشَتْ قُلُوبُهُمْ إِرَادَةَ التَّمَكِينِ

في الأرض فكانت الهزيمة لأعدائهم رغم تفوقهم العددي والعتادي. وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء بقيام الجماعة الخيرة المهتدية المتجرّدة.

ثانياً - صراع أهل الباطل مع أهل الباطل:

لعلّ الصراع بين أهل الباطل قد يكون نظرة عقائدية، فيرى الفريق الأول أنه على الحق ودونه الباطل، ومن هنا تستجيش العاطفة الإيمانية للوقوف قلبياً مع الأقرب للحق، وهذا ما لاحظناه من حرب الروم والفرس، فتمنى المؤمنون أن يُنصر أهل الروم لأنهم أهل كتاب، بل إن الله سماه نصرًا من عنده فقال: {غَلَبَتِ الرُّومُ* فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ*} في بضع سنين لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون* بنصرِ الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم} وقد يكون الصراع صراعاً دنيوياً لنهب المصالح والسيطرة الدائمة لنيل الشهوات، فما حدث في الحربين العالميتين الأولى والثانية أوضح دليل، فكان اللجوء للتحالفات على أساس مصلحة دون مصلحة، وهذا ما حدا بإيطاليا بأن تنقلب على حلفائها في الحرب العالمية .

في هذه الحالة على المسلمين احترام العهود والمواثيق والتصرف بناء عليها .

ثالثاً - تدافع أهل الحق مع أهل الحق:

والسؤال المطروح هل الحق يتعدّد؟

لقد قسّم العلماء الحقّ إلى ثلاثة أقسام :

1_ حقٌّ مُطلَقٌ وهو الله جل شأنه .

2_ وحقٌّ مُحَكَّمٌ ، وهو ما نزل من الكتاب أو ما حدّث به النبي صلى الله عليه وسلم فيكون نصّاً قطعياً الصّحة واضحة الدلالة .

3_ وحقٌّ نسبيٌّ ، فيكون في مجال الفروع أو أمور محدثات الحياة ما لم يقع نصٌّ قطعياً الصحة وواضح الدلالة، فيكون الاختلاف فيه نسبة إلى الفهم أو عدم وصول النصّ الصّحيح، فيتولد في الاختلاف تدافعٌ للوصول إلى أحقّ الحقيين، وهذا التدافع أصلٌ في حياة الناس، فهو عاملٌ لتحرك الحياة، والسباقُ الخيريُّ فيه نحو الأفضل والأكمل يكون بارتفاع الهمم واتّضاح معاني الخير ودرجاتها وتصاعدها وأنواعها، فعدم التطور هلاكٌ ، وهو منطق الفقه، فالتنافس يشكل عاملاً مهماً في تنمية الحياة وترشيد مسارها والتخلص من الأخطاء والانحرافات، ولكن هذه الحصييلة من العمران الحضاري بالأفكار والعلوم والآداب لم تمنع من قيام تناقضات بجانبها أصلها ابتداءٌ أو صراعٌ على السلطة ، فكان العمل الإصلاحيّ الاستدراكي المتنوع متمثلاً بأدب الخلاف هو السبيل لحل الإشكالات إذا خلصت النوايا وبنيت الثقة ، متمثلين برأي الشافعيّ حين قال : رأيي صوابٌ يحتملُ الخطأ، ورأيي غيري خطأٌ يحتملُ الصّواب.

وقد يصل الأمر إلى محاولات للغزو الخارجي بسبب التناقض البشري، فكان الجهاد واضعين كل خلافاتنا وراء ظهورنا متوحدين لإزالة العدو ومحاولاته.

كما فعل شيخ الإسلام ابن تيمية عندما جاهد التتار مع الأشاعرة والمتصوّفة في (شقحب) وسامهم الطائفة المنصورة كما ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه .

يَمُنُّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْجَمَاعَةِ الْمَجَاهِدَةِ بِالْتَمَكِينِ الْجَزْئِيِّ اخْتِبَاراً لَهُمْ وَتَمْحِيصاً ،

فَإِنْ أَدَّوْا حَقَّ الشُّكْرِ وَقَامُوا بِوَأَجِبِ التَّمَكِينِ جَادَ عَلَيْهِمُ بِالْتَمَكِينِ الْكُلِّيِّ ،

وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا لِنِعْمَتِهِ أَهْلًا وَتَنَكَّبُوا عَنْ أَعْيَابِ الْاِسْتِخْلَافِ أُرْكَسَهُمْ فِي وَهْدَةِ الْاِسْتِضْعَافِ ،

{ قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ }

4_ تلازم الشقاء مع الفساد والسعادة مع الصلاح، قال تعالى: { ظهر الفساد في البرِّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون } ، وقال تعالى: { من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنُحْيِيَنَّه حياءً طيبةً } .

5_ هلاك الظالمين وإبادتهم، قال تعالى: { وتلك القرى أهلكتناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً }

6_ إزالة النعمة بكفرنها ودوامها بالشكر، قال تعالى: { كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين } ، وقال تعالى: { ولئن شكرتم لأزيدنكم } .

ثامناً – سنة التَّيِّه والرُّشْد :

التَّيِّه عند رفض الأمة التكليف والرشد عندما تحمّل التكليف، قال تعالى: { فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيَهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ } المائدة .

من التَّيِّه إلى الرشد

سِمَات عصر التَّيِّه :

في عصر التَّيِّه تكون الأمة بين حالتين، لا هي داخله في حكم الطغاة ولا هي داخله في شريعة التكليف .

التَّيِّه هو مرحلة الاستشفاء لأمة تكاثرت عليها العُلال فكان لا بُدَّ من عزلها في أجواء خاصّة لتتلقى التربية الناجعة .

بقاء الرسالة بدون من يحملها أهون عند الله أن يقوم بحملها من ليس لها أهلاً، وانتظار المعجزات الكونية في ذلك لا يُجدي.

لا يُمكن أن يَتَمَّ ذلك إلا من خلال السُننِ الجارية وليس من خلال السنن الخارقة .

1_ ترك جهاد الأمة والاقتصار على النخبة، قال تعالى: { قالوا اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون } ، وترك الجهاد لم يكن هو مبدأ العُلال، بل هو نهاية تراكم العُلالِ النفسية من حب العيش والوَهْنِ النفسي .

2_ كثرة الجدال والتعمق في الأسئلة التافهة وأخذ الأمر الشرعي بالاستهزاء، قال تعالى: { وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة، قالوا أَتَتَّخِذُنَا هِزْوًا، قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يُبَيِّنْ لنا ما هي }

3_ الاجترار على سفك الدماء (بالمعنى الأدقّ تنفيذ الاغتيالات السريّة) وقصة البقرة إنّما كانت بعد عملية اغتيالٍ سرية

4_ التفرّق إلى أحزاب وجماعات ، قال تعالى: { وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا }

5_ غياب القيادة الفاعلة وعجزها عن استيعاب العُلالِ النفسية، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنِّي أَبْرُحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا }

6_ التنافس على الموارد، قال تعالى: { وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اصْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ }

7_ وُفُورُ الْمَلَدَاتِ بدون عناء، قال تعالى: { وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ }

8_ بلاذةُ النوقِ واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال تعالى: { أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟ }

9_ قسوة القلب إلى درجة التحجّر، قال تعالى: { تَمَّ قَسَتْ قُلُوبِكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً }

10_ الإيمان بالحسيّات والشك في الغيبيّات، قال تعالى: { فَقَالُوا أَرَأَنا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ }

11_ التشرّب بتقديس الأصنام المعنويّة والماديّة، قال تعالى { وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ، قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنَّ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ } (93 البقرة)

ولكن يبقى السؤال بعد التأصيل هل يصح التنزيل على حالنا؟ وإن صحَّ التنزيل على واقعنا فبأيِّ مراحل التيه نحن؟ هل نحن في طور الدخول أم في طور الخروج أم بين بين؟

- على ما يبدو أن كل أمة تخرج لتوها من الحكم الجبري الاستبدادي تبقى تحمل في كوامنها علل التربية المذلة بعد استمرارها للذل والهوان، ولعل هذا من حكمة الله تعالى أن يتربى موسى في بيت عزٍّ ومنعةٍ بعيداً عن واقع الذل الذي عاشه قومه { ولتصنع على عيني }

- التربية الفرعونية وطول فترة الاستعباد جعلت بني اسرائيل أمة غير قادرة على التحول من حالة الاستعباد لحالة السيادة ، ودخولهم بحالة التقليد فقولهم (اجعل لنا اله كما ،،،،) وجدأهم بقضية البقره وهو أمر رباني واضح لا يحتاج للجدل هو محاولة الهروب من التكاليف الربانية، فكانت فتره التيه أو بمعنى الحصار الذي يولد في النفس رغبة عارمة للحرية مهما كانت تكاليفها، فكان الجيل الذي خرج مع سيدنا يوشع بن نون عليه السلم .

تاسعاً – سنة الاستبدال التي تطال الدول والجماعات والأمم :

من سنن الله تعالى الثابتة أنه لم يربط التمكين لهذا الدين بفرد أو أمة أو جماعة أو قوم أو بلد عندما اجذبت مكة عن الاستجابة لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم نصره تعالى بأهل المدينة . وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وظن البعض أن الإسلام انتهى بموت محمد أنزل تعالى { وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين } آل عمران .

وقال أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يعبد محمد فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت .

ولم يجعل نصره الدين والرسالة حكراً على قوم دون قوم .

عندما تنكَّب العرب عن حمل راية الجهاد ورد صيال الصليبيين حملها الكرد (نور الدين الشهيد وصلاح الدين)

ولما تنكَّب الكرد عنها ، ذب عن بيضة الإسلام المماليك ودحروا هجمة التتار (المظفر قطز)

ثم حمل راية الجهاد والدفاع عن بيضة الأمة السلاجقة والأتراك (محمد الفاتح)

وكذلك كان في المغرب البربر ومنهم القائد (يوسف بن تاشفين) يرُدُّ عادية الفرنجة ويستنجد به المعتمد بن عباد .

هذا الأمر يدل أن الإسلام رسالة ذاتية القوة وأنَّ البلدان والأقوام والجماعات والأفراد هم من يعتزُّ بحمله وليس الإسلام من يعتزُّ

بهم ، قال تعالى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ ... } المائدة

فالاستبدال لكل أمة تتولى عن حمل الرسالة ونصرة الدين بأقوام آخرين سنة ثابتة ، قال تعالى: { وَإِنْ تَنَوَّلُوا بَدَلَ مَا غَيْرِكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالِكُمْ } محمد .

سقوط الأفراد والجماعات على طريق الدعوة والجهاد وبقاء الدين محفوظاً يُخبرنا أن هذا الدين من عند الله ويحذرنا من التخلي عن نصرته .

من سنن الله الغالبة التي لا تحابي ولا تجامل وتتسم بالثبات والاطراد أن القدرات البشرية محدودة العطاء تصل أحياناً إلى درجة

النضوب والعجز عن استمرارية العمل لهذا الدين.

وهذا ناتجٌ عن محدودية القدرة البشرية وقصور أفراد الجماعة بطاقتهم العلمية والعقلية والبدنية ، وعلى مستوى الجماعات قصور التخطيط والرؤية الاستراتيجية البعيدة المدى والملائمة للمتغيرات المتسارعة فوق قدرات الاستيعاب .

هنا الجماعة التي كانت لها الصدارة في خدمة الدين تصبح مع الزمن عاجزةً عن القيام بواجبها، بل قد تكون عقبة في طريق تحقيق هذا الواجب ، وهنا يتحوّل دور الفرد والجماعة من الريادة إلى التّصح والإرشاد .

المشكلة أن بعض الجماعات تأبى أن تتنازل عن الريادة بدوافع من الهوى والأمراض الحزبية، وربما يدفعها الأمر إلى الدخول في صراعات مع الجماعات الأخرى فيكون الاستبدال بطريقة غير مُشرّفة ، هنا يقع الاستبدال ، والمعصوم من عصمة الله . لذلك علينا نحن _ من يدّعي العمل للإسلام_ أن نستعدّ جماعاتٍ وأفراداً لنُسلمّ الراية لمن بعدنا .

عاشراً - سنّة التغيير

إن الله لا يُغيّر الظروف الاجتماعيّة السيئة في مجتمعٍ ما حتى يغيروا في أخلاقهم وسلوكهم، قال تعالى : { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } .

فقه التغيير

تمهيد فقه التغيير

تمهيد

بعث الله تعالى الأنبياء والرسل لأداء الرسالة وتغيير الأوضاع الفاسدة في أقوامهم، فبلّغوا وغيّروا، وقد بعث الله كل رسول إلى قومه إلا الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه للعالمين.

لدى الأحزاب الإسلاميّة إشكاليّة كبيرة في التغيير، فهم يسلكون مسلك التغيير بالعنف والقوة أو بالميزات والأعطيات، هذا الأسلوب ينمي الحالة النفاقية التي لا يضمن ولاؤها إلا بالعصا والجزرة وليس بالاندفاع الذاتي ، لذلك تشكّل خاصرة رخرة في التنظيمات مما يحملها على مضاعفت الجهد الأمني لمراقبتها داخل الجماعة .

ضيق مساحة الحوار مع المخالف وعدم قدرة الأحزاب على تحمّل الرأي الآخر _ربما لضعف الحُجّة_ يحمله على العدول عن أسلوب الإقناع العقليّ والتحرك الوجداني لإحداث التغيير المطلوب .

- علاقة الإنسان بالكون والمجتمع تضبطها نواميس وقوانين لا تتغيّر ولا تتبدّل ، قال تعالى :

{ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ* هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } [سورة آل عمران، الآيتان 137-138].

{ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا } [سورة فاطر، الآية 43].

- الإنسان محرك فاعل ومغير، ومُنطَلَقُ ذلك نفسه وإرادته { إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [سورة الرعد، الآية 11].

أولاً: مفهوم التغيير :

الانتقال من وضع موجودٍ إلى وضعٍ أحسنٍ منشود.

ثانياً : مؤشراتته :

- البعد عن الله تعالى.
- ضَعْفُ العبادات وإهمالها.
- اليأس والمَلَلُ وفقدان لذة الحياة.
- انتشار الفساد ووجود خللٍ على مستوى النفس والمجتمع (الذهنيّات، النظم، القيم، السلوكيات)، لذلك لا بُدَّ من استشعار المسؤولية أمام هذه الأوضاع وإلا سينزل عقاب الله تعالى :

{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأْتِيَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا نَكْمًا خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [سورة الأنفال، الآية 25].

- ضعف أو انعدام الإنتاج والعطاء.

- اضطراب سلم الأولويات.

ثالثاً : مجالات التغيير :

- تغيير الأفكار والقيم والذهنيات والقناعات.

- تغيير السلوكيات (السلوك ثمرة من ثمرات الفكر).

- تغيير الوضعيات.

- تغيير القدوات.

رابعاً : قواعد التغيير:

* احترام السُنَن : البدء بترك الذنوب الكبرى قبل الصغرى، والتدرّج في الوسائل : عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

* الإرادة الجادة .

* الصبر على مشاقّ التغيير .

* وجود مُساند، قال تعالى : { هُوَ الَّذِي أَيْدِيكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ } [سورة الأنفال، الآية 62].

* حسن التخطيط.

خامساً : خلاصات

- الشعور بالألم وبالخطر أول خطوة نحو التغيير.

- تحديد أهداف التغيير.

- التدرج في التغيير، قال صلى الله عليه وسلم: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) [رواه مسلم].

سادساً : شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الاستطاعة: يسقط الإثم عند العجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- أن يكون المنكر معلوماً من غير اجتهاد.

- أن يكون المنكر ظاهراً من غير تجسس.

- مراعاة التدرّج في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- إلا يُفضي الأمر أو النهي إلى مفسدة أعظم، لأنَّ الشريعة الإسلاميَّة تحرص على تحصيل المصالح، ودفع المفساد، وقد قسّم ابن القيم في "أعلام الموقعين" إنكارَ المنكر إلى أربع درجات:
- الأولى : أن يزول المنكر ويخلفه ضده.
 - الثانية : أن يَقِلَّ وإن لم يَزُلْ بجملته.
 - الثالثة : أن يتساويا.
 - الرابعة : أن يخلفه ما هو أشرّ منه.
- وخلَّصَ إلى أن الدرجتين الأوليين مشروعتان، وأما الثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرّمة.

الفصل الرابع

السياسة الشرعية الرشيدة

أزمة الخطاب الإسلامي

مرّ الخطاب السياسي الإسلامي بثلاث مراحل:

- 1- مرحلة الخطاب السياسي المنزّل
 - 2- مرحلة الخطاب السياسي المؤلّ
 - 3- مرحلة الخطاب السياسي المُبدّل
- مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المنزّل (1هـ - 73هـ)

وتبدأ من قيام الدولة الإسلاميّة في المدينة بعد هجرة النبي صلّى الله عليه وسلّم إليها، إلى وفاة آخر خليفة صحابي هو عبد الله بن الزبير رضي الله عنه (سنة 73هـ)

أهمّ ملامح ومبادئ هذه المرحلة:

- 1_ ضرورة الدولة للدين، وأنّه لا دين بلا دولة
- 2_ ضرورة إقامة السلطة وأنّه لا دولة بلا إمام
- 3_ ضرورة عقد البيعة، فلا إمامة بلا عقد
- 4_ أنّه لا عقد بيعة إلا برضا الأُمّة واختيارها
- 5_ لا رضا بلا شورى بين المسلمين في أمر الإمامة
- 6_ أنّه لا شورى بلا حرية
- 7_ أن الحاكمية والطاعة المطلقة لله ورسوله (هنا يجب أن نميّز أنّ الأُمّة هي مصدر السلطة ولكنها ليست مصدر التشريع)
- 8_ تحقيق مبادئ العدل والمساواة
- 9_ حماية الحقوق والحريات الإنسانية الفردية والجماعية وصيانتها
- 10_ ممارسة الأُمّة حقها في المحاسبة والمراقبة والمشاركة في الحكم

مرحلة الخطاب السياسي الشرعي المؤلّ (73هـ - 1350هـ تقريباً)

*أهمّ ملامح هذه المرحلة:

- 1_ مصادرة حق الأُمّة في اختيار الإمام وتحول الحكم من شورى إلى وراثه
أسباب قتال الصحابة من أجل الشورى:
السبب الأول: الدفاع عن حقهم الذي جعل الله لهم (وهو اختيار الإمام ومحاسبته وعزله)
السبب الثاني: أنّ اغتصاب الحكم منكر وظلم تجب إزالته
السبب الثالث: التمسك بالسنة وهدى الخلفاء الراشدين
السبب الرابع: إدراكهم أن دخول الخلل في موضوع الإمامة سيفضي إلى دخول الخلل في جميع شؤون الحياة.
مذاهب العلماء في اشتراط الإجماع على عقد البيعة
- 2_ مصادرة حق الأُمّة في المشاركة والشورى
- 3_ غياب دور الأُمّة في الرقابة على بيت المال
- 4_ تراجع دور الأُمّة في مواجهة الظلم والانحراف

مذاهب العلماء في الخروج على السلطان الجائر
فسخ عقد الإمامة بالجور، وهنا دُوّنت أول الكتب التي تعنتي بفقهِ السياسة الشرعية.
الأسباب التي أدّت إلى شيوع الخطاب المؤلّ:

1_ نظرة أصحاب هذا الخطاب إلى حوادث التاريخ نظرةً جزئيةً (نظروا إلى المفاصد المترتبة على الخروج على الإمام الجائر دون النظر على المفاصد المترتبة على تولية الإمام الجائر)

2_ خلطهم بين مفهوم الخروج السياسي ومفهوم الخروج العقائدي: (ليس كل من خرج على الإمام فهو خارجيٌّ باغٍ، ولو كان مجرد الخروج على الإمام الجائر كافٍ لوصف الخارجين بأنهم خوارج لكان الحسين بن عليّ وعبد الله بن الزبير أئمة الخوارج، أمّا الخوارج الحقيقيين هم من خرجوا على عقيدة أهل السنة والجماعة باتباع ظواهر النصوص وبتكفير المسلمين أصلاً واستباحة دمائهم) تبعاً لذلك قد يلزم الشخص وصف الخوارج ولو لم يبرح جوف رحله ولم يحمل السيف على أحد طالما أنّه يدين بعقيدة الخوارج .

3_ شيوع أحاديث الفتن دون فهم لمعناها الصحيح

4_ شيوع الروح الفردية بسبب الفهم الخاطي لأحاديث اعتزال الفتن (اعتزال الفتن بدون فهم أحاديثها تسبب في تعطيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

5_ شيوع روح الجبر من جهة، والإرجاء من جهة أخرى (الإرجاء دينٌ يُعجب الملوك)

6_ الغلو في تعظيم طاعة السلطان (حتى أنّ البعض أدخلها في أبواب العقيدة لأهل السنة والجماعة)

الخطاب السياسي الشرعي المبدل (1350 هـ - ؟)

إسقاط الخلافة وفصل الإسلام عن الدولة

وكان عليّ عبد الرازق وكتابه (نظام الحكم في الإسلام) أول محاولة لتأصيل هذا الخطاب تأصيلاً شرعياً .
أهم ملامح هذا الخطاب :

١ - إثبات عدم شرعية الخلافة

٢ - إثبات مشروعية التحاكم إلى القوانين الوضعيّة

٣ - إثبات عدم مشروعية الجهاد في الإسلام

رد شيخ الإسلام مصطفى صبري على عليّ عبد الرازق

تصدي العلامة أحمد شاكر للخطاب المبدل و سيد قطب

الازدواجية في الخطاب الإسلامي :

الملاحظ ومن خلال الاستقراء أنّ الحركات الإسلاميّة لها أربع أنواع من الخطابات :

1_ خطاب تتوجه به إلى الأتباع مفعّمً بالتحشيد والإعجاب بما لديها والتحريض والتعصب وتسفيه الآخرين .

2_ خطاب موجّه إلى الحركات الإسلاميّة، يدور بين الاستيعاب وغالباً يصل إلى التضليل والتبديع والتكفير .

3_ خطاب موجّه إلى الخصوم، خطاب يدور بين الاستعداد بالعنتريات والمصانعة إلى درجة الميوعة.

4_ خطاب موجّه إلى الجماهير، يتّسم بالتقيّة وإظهار المحاسن والإسراف بالوعود .

أنواع الخطابات الحزبية التي تطفو على الساحة

الخطاب المتشائم :

أصحابه ذو طابع سوداويّ ونظرتهم إلى الحياة متشائمة، يتطيرون بكل دعوة للإصلاح شراً ويتردد على ألسنتهم دائماً أننا في آخر الزمان وأنّ أمراض الأمة وتخلّفها مستعصية على كل الحلول، وأنّ الفساد في كثرةٍ والخير في نُدرةٍ والكفر في إقبالٍ والإسلام في إديارٍ، وأنّ على المسلم الاعتزال اتقاءً لشُرور الناس حرصاً على دينه، وأنّ الإسلام سيعود قريباً كما بدأ، وأنّ الفتن أقبلت كقطع الليل المظلم، وأنّ الفايض على دينه كالفايض على الجمر، وأنّ عُرى الإسلام سوف تنقُص عروةً عروةً، فنحن بين يدي الساعة وما بقي إلا الدجال، فالموت تحفةٌ لكل مؤمن، وهؤلاء ينقصهم فقه في إنزال أحاديث الفتن على الواقع .

الخطاب الحالم:

يتكلم أصحابه عن أحلامٍ وردية، فنّفهم من محتوى حديثه أن الإسلام سينتصر من الغد، ودولة الإسلام قاب قوسين وخلافة الله تلوح من قريب، ونحن على أبواب القدس، هذا الخطاب يريد حصداً بلا بذارٍ ونتائج بلا مقدمات، يريد حضارة بلا مراحل وفقهٍ للسنن الكونية الجارية، يريد زبياً بلا عناقيد يستعجل الفتح وهو لا يدري عن ألف باء شيئاً فهو يبني على الرغبة والتمني لا الواقع والإمكانيات، وهؤلاء ينقصهم فقه الواقع والإمكانات، حتى نجني الأهداف لا بدّ من سلك سبيلها دون توكّل وبطالة .

الخطاب الاشتجاري :

الأصل عندهم في الناس الكفرُ والعداؤُ والأتّهام، وسوءُ الظن عندهم مقدم على حسن الظن، أخذوا فقهِهم من السجون فغالوا في أحكامهم وأبتلوا بأربع أمراضٍ : التفسيق والتبديع والتكفير والتفجير، شاهرين سيفَ الجدل والمراء، ويكفرون حتى من خالفهم بالفروع، فيهم شيء من فقه الظواهر وعلو الخوارج وجفوة الأعراب، مشكلتهم أنّ تصوّرهم بُني على ردةٍ فعلٍ لما عانوه من ظلم الحكام، فهم يحتاجون إلى فقه المآلات وفقه المرحلة.

الخطاب المائع :

وهو الذي فقد هويته وخصائصه وانتماءه وذاب في غيره، مسحور بكل جديدٍ ومعجب بكل وافٍ ولو كان مخالفاً للقطعيّات في الدين، يتنازل ويُساير ويتممّع تحت عناوين حوار الأديان وتقارب المذاهب، فتحت عنوان حوار الأديان تُحرّف الأديان، وتحت عنوان تقارب المذاهب يُسيّسُ الدين ويُجعل منه تكاءةً للسياسة والبلاط، هؤلاء يعطون لكل وافٍ وصف الإسلام ويُضفون عليه مسحة الدين، فإذا انتشرت الاشتراكية قالوا: وهل الإسلام إلا دعوة للاشتراكية! وإن راجت الديمقراطية قالوا: وهل هي إلا الشورى! حتى أنّ منهم من ادّعى أنّ الإسلام سبق دارون إلى نظريته!

هم يُحاولون أن يصطلحوا مع الليبرالية والحداثة والعلمانية فدخلوا في السياسة وأكلوا من حلوائها وسكتوا عن أهوائها، وجدت العلمانية فيهم مرتعاً خصباً لنفت سمومها وجعل الدين مَطيّةً لغاياتها، هؤلاء مبتلون بالسذاجة وحسن الظنّ الزائد والانهازم النفسيّ والشكّ في الإمكانات، واستسلاماً للتيارات بحُجّة التقارب والحوار أولّوا المحكمات ونسفوا الثوابت و لَووا أعناق النصوص، فكان اجتهادهم مردوداً وفكرهم ممّجوجاً .

الخطاب الاجتراري :

الذي يَجْتَرُّ ما سَلَفَ من المناهج والأفكار، دُعائِهِ يُفَكِّرُونَ بعقول الموتى أغلقوا باب الاجتهاد غيرَةً أن يَلَجَّهُ من ليس أهلاً له، تعصّبوا لمذاهبهم ومشايخهم، يُعالجون مشاكل العصر بفقهِ قرون الانحطاط الفقهيّ والتقليد المذهبيّ، يعيشون مع الماضي، ليس لهم روح عصرهم! مع أن السلف كانوا يجتهدون لعصرهم، الأمر الذي فتح الباب أمام الفقهاء الوضعيين: يجتهدوا، ويقطعوا أشواطاً بالفقه الدستوري والإداري والاقتصاديّ، شعارُهُم الدائم: ما ترك الأولون للآخرين من شيء! ونحن نقول بل كم ترك الأولون للآخرين، لذلك جاءت مؤلفاتهم تجتُرُّ الحواشي والمتون، ولما أرادوا أن يجتهدوا عادوا إلى الاستنجاة وآداب الخلاء ، فكان اجتهادهم لا يعدو أن يكون نُقولاً وتجميعاً، وفي أحسن الأحوال ترجيحات لا يلتزمونها.

هؤلاء يحتاجون إلى فقه التجديد والاجتهاد .

الخطاب الاختصاري :

الذي يختصر الإسلام في جزء من أجزائه ويضخمه على حساب غيره ويُصوِّره على أنه الإسلام بكُلِّه، يريدون الإسلام عقيدةً بلا شريعة ودعوة بلا دولة وسلاماً بلا حقوقٍ وتزكيةً بلا جهادٍ وحقاً بلا قوة، فمنهم من ضخّم مسألة تزكية النفس وعمي نظره عن غيرها، وهذا يأخذ الجهاد ويقول: هذا هو الإسلام، والثالث يعتبر الدعوة أسًه وأساسه وما دونها هباءً! والرابع يجعل من قيام الدولة الإسلاميّة دَيْدَنَهُ وُجُلَّ شُغْلُهُ، والخامس يعتبر قمع البدعة نهاية غاية الدين . هؤلاء يحتاجون إلى ترسيخ مبدأ الفقه الشمولي للإسلام .

الخطاب الأفيوني :

وهو الخطاب المُغرِقُ في القضايا الغيبية بدون تمحيص للأسانيد، مبنيٌّ على ثلاثة مرتكزات :
أولاً: العقيدة الجبرية، يُصوِّرُ الإنسان مسلوبَ الإرادة وأنه مُساقٌ إلى مصيره بخيوط القدرة.
ثانياً: يتحدث عن المُخْلِص في آخر الزمن وخروج المهدي ونزول عيسى عليه السلام وأنّ مشاكل الأمة لن تُنحلَّ إلا بهذا المخلص، فكلَّ جهد قبل ذلك عناءٌ وهباء.
ثالثاً: يرتكز هذا الخطاب على اعتقاد مَفادُهُ أنّ الكون مُسيَّرٌ بدولة أولياء باطنية لهم حق التصرف في الكون، فهو كالذي يعالج بالمسكن بدلاً من استئصال العلة، وهو خطاب تبريريّ لكل الأخطاء، يُبرر الاستبداد بحُجَّة طاعة وليّ الأمر، ويُبرر المعاصي بحُجَّة أنّها من قدر الله، ويُبرر البدع بحُجَّة البدعة الحسنة ويُبرر ترك الجهاد بحُجَّة جهاد النفس، ويُبرر الخرافات على أنّها كرامات لأصحابها، ويبرر رواية الأحاديث الضعيفة بحُجَّة العمل بها من فضائل الأعمال.
مصادر المعرفة لديه الإلهاماتُ والمناماتُ والآثارُ الواهية ، هذا النموذج يحتاج إلى فقه الواقع وضبط مصادر المعرفة.

لأبَد من صياغة الخطاب الرشيد الجامع للأُمَّة

لا بدّ من تبني خطاب إسلامي يرشد الصحوة الإسلاميّة

ويكون لبنة أساسية في المشروع الحضاريّ للأُمَّة وليس عمله كعمل إطفاء الحرائق الذي يعالج العرض دون المرض بوصف الأمراض دون دواء وينشغل بالهدم دون البناء، إنَّه الخطاب الوسطي الإيجابي الشموليّ، يدعو لإسلام التيسير لا التعسير

والتبشير لا التنفير والرفق لا العنف والتعارف لا التناكر والتسامح لا التعصب والجوهر لا الشكل والعمل لا الجدل والعطاء لا الادعاء والاجتهاد لا التقليد والتجديد لا الجمود والانضباط لا التسيب والوسطية بدون غلو ولا جفاء، ثابت في الأصول، مرّن في الفروع متدرج في التغيير مرتبط بالسلف متصل بالعصر يُراعي فقه الأولويات وفقه المآلات وطبيعة المرحلة، ويعي السنن الكونية في بناء المجتمعات دون مُغالبة ولا تقصير ولا انحراف، يعالج الكليات ولا يفرق في الجزئيات، متوقف بالعبادة يبتدع في المصالح والعادات

أي من مقومات الدولة تمتلك الحركات الإسلاميّة؟

تقوم الدولة على مقومات ثلاثة: الشعب والأرض والحكومة، ومن ناحية أخرى يعتمد النظام السياسي على ثلاثة أسس : الأساس الأول: وجود السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) .

الأساس الثاني: هو الأهداف الثلاثة، وهي العدالة والأمن والنظام الذي يعني الانضباط.

الأساس الثالث: هو وجود ركائز النظام السياسي وهي السيادة، واحتكار قوة القمع والقهر المتمثلة في الشرطة والقوات المسلحة، وقوة العدالة المتمثلة في الحق وسيادة القانون، بمعنى السلطة القضائية والشرطة أي سلطة إنقاذ القانون، والحقوق والواجبات، وركزتها المواطنة ذلك أن الدولة الإسلاميّة ليست دولة دينية لا تقبل إلا بمواطنة من دين واحد وانما تقبل تعدد الأديان في الدولة الواحدة والتي عمادها الجنسية ، ومحورها الولاء للدولة الوطنية باعتباره أهم أنواع الولاءات وأسماها، فهو يعلو على الولاء للأسرة والقبيلة والطائفة أو العرق، أو نحو ذلك مما يسمى بالولاءات الفرعية.

لقد كانت الصحيفة التي كتبها المسلمون مع اليهود هي الوثيقة النازمة للعلاقات بين المواطنين في المدينة .

يغالط كثير من الإسلاميين حينما يقولون الأمة مصدر السلطة وليست مصدر للتشريع (لا يمكن ان يكون التشريع مصدره من الأمة وإنما مصدره الوحي وهذا الكلام ليس على إطلاقه) . هذا الكلام يصدق على التشريع المنزل ولا يصدق على التشريع المؤول ، لأنّ كثير من القوانين النازمة للمصالح مما لم ينزل به وحي هو محل نظر أهل الاختصاص ولا مانع من توسيع دائرة الشورى فيما هو من تقدير أهل الاختصاصات الدنيوية مثل قضايا الأنظمة الادارية فقد كان المسلمون فيها عالة على الفرس .

بين الديمقراطية والشورى

النظام السياسي الإسلاميّ ليس نظاماً ثيوقراطياً وليس نظاماً ديمقراطياً وليس مقاربة بينهما وإنما هو نظام ربّاني متميز تماماً بخصائصه .

فرق كبير بين الشورى التي تنتخب الأفكار والآراء وبين الديمقراطية التي تنتخب الأعداد والأصوات .

الأولى تفتح لك المجال أمام الإبداع من التفكير والآراء ما يغني جوانب القضية .

أما الديمقراطية فهي تضعك أمام خيارات من الأفكار الجاهزة وعليك ان تختار منها .

الديمقراطية والحرية عند الغرب صنمٌ من تمرّ يعبد من دون الله فإذا وصل الإسلاميون من خلاله إلى الحكم أكل ذلك الصنم. ولكنها تبقى خياراً للانعتاق في مرحلة الاستضعاف .

أسوء ما في الديمقراطية أنّها تُنحّي الدين ، وأفضل ما فيها أنّها تزودك بالأدوات الضابطة للشورى ،

والحرية عند الحركات الإسلاميّة قبل الوصول إلى السلطة حلم، وبعد الوصول إلى السلطة شبح .

كثير من الجماعات الإسلاميّة وصلوا إلى النظام الثيوقراطي لكثرة المبالغة في طاعة ولي الأمر .
إشكالية الحرية وعقلية الاستبداد عند الحركات الإسلاميّة إشكاليّة ليس لديهم جوابٌ مقنّع منهم، محاربة الديمقراطية تكون بتقديم
الحل الإسلاميّ البديل، أمّا الاكتفاء بتكفير الديمقراطيين وكفى! فهذا مأزق يجب أن تخرج منه .
إنّ الحرية عند الغرب تتكون من :

1_ حرية التعبير 2_ حرية المعتقد 3_ الحرية الشخصية 4_ الحرية الاقتصادية والحرية السياسية
وهذه الحُرّيّات هي نفسها في الإسلام ولكنها مُقيّدة بقيود أخلاقية مرتبطة بالنصّ والوحي، أمّا عند الغرب فهي مُقيّدة بالعقل
والذوق العامّ، لذلك هي محلّ اجتهادٍ واستحسانٍ مُتغيّر بحسب رأي الأكثرية حتى وصلوا إلى حرية الشذوذ .
الذي أراه أنّ كل الشعوب مستعبدة في ممارسة قناعاتها بحريّة، الشرقُ مستعبد بالحديد والنار، والغرب مستعبد بالآلة الإعلامية
الجبارة التي يمتلكها أصحاب مراكز الضغط السياسي والاقتصاديّ التي تلبس الحق بالباطل وتلبس الباطل بالحق وتجعلهم
يختارون بناء على ما يُضخّ لهم من معلومات تُقيّد الذهن وتُرهب التفكير .
روبرت موردخ اليهودي صاحب أكبر إمبراطورية إعلامية يستطيع من خلالها أن يصل إلى 300 مليون مشاهد وميزانيته تعادل
ميزانية الولايات المتحدة قال مرّة: إذا أراد توني بليز أن يفوز بالانتخابات الحكومية في بريطانيا ماعليه إلا أن يستقل طائرته
ويأتي إليّ في استراليا ويجتمع مع موظفي، وفعلاً عمل الرجل بذلك وفاز بالانتخابات .
إنّ ضعف الاجتهاد الإسلاميّ في مأسسة الشورى وجعلها ممارسة قابلة للقياس وتزويدها بالأدوات والآليات، والجمود على الفقه
السياسي الذي كتب في قبضة الحكم العصوص أضعفنا أمام الاجتهادات الوضعية .

قواعد في السياسة الشرعية

- 1- إذا عاد المُكَمَّل على الأصل بالنقض سقط اعتباره.
 - 2- لا عبرة بمتوقّع مع واقع.
 - 3- يُقدّم ما لا يُتدارك فواته على ما يُتدارك أعلى منه أو أدنى.
- شرح هذه القواعد التي جاءت في كتاب الموافقات للشاطبي بتطبيقات واقعية
- 1_ إنّ محاربة المفسدين شيء مُكَمَّلٌ للجهاد، ولكن لو أدى ذلك إلى نقصان الأصل وهو محاربة العدو الكافر سقط تقديم محاربة
المفسدين .
 - 2_ الواقع أنّ الجيش الحر يُقاتل النظام الكافر، وتوقّع أنّه سيحارب الإسلاميين مُتوقّع لا يُقدّم على الواقع .
 - 3_ قيام الدولة الإسلاميّة أعلى شأنًا من ردّ الصائل، ولكن ردّ الصائل لا يُتدارك فواته، فيُقدّم على المشروع الإسلاميّ الذي
يمكن أن نتداركه بعد ردّ الصائل.

الكفار ليسوا سواء

- أبو جهل يختلف عن المُطعم بن عدي ، وكلاهما على دين واحد .
أبو لهب يختلف عن أبي طالب ، وكلاهما على دين واحد ودرجة قرابة واحدة .
عقبة بن أبي معيط يختلف عن أبيّ البخترى بن هشام ، ودينهما واحد .
من مزّق الكتاب (كسرى) يختلف عن من أرسل الهدايا (المقوقس).

النجاشي كان يختلف عن غيره من النصارى وهو على النصرانية .
التسوية بين الجميع تُخرجُ منك جاهلاً كبيراً في باب السياسة الشرعية.

من السياسة الشرعية في السيرة النبوية

تتلخص السياسة النبوية بـ :

- 1_ صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاف في الكعبة وحولها ثلاثمائة وستون صنماً .
 - 2_ مَا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمة بسم الله وأمر بكتابتها كما أراد المشرك سهيل _بسمك اللهم_ ومحا نفسه عن وصف الرسالة وكتبت محمد بن عبد الله .
 - 3_ دخل رسول الله بعد رحلة الطائف في جوار المُطعم بن عديّ المشرك وفي حمايته .
 - 4_ تحالَفَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قبيلة خُزاعة ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، ولم يكونوا من المهاجرين بل كانوا يُساكنون الكفار .
 - 5_ امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل من ارتدّ من أمثال عبدالله بن أبيّ بن سلول للمفسدة المترتبة على ذلك من التحريض والتشويه الإعلامي الكافر .
 - 6_ استعان رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حُنين بسلاح من كافرٍ هو صفوان بن أمية .
 - 7_ عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطُّلقاء ولم يشترط عليهم دخول الإسلام .
 - 8_ خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ملوك العالم بصيغة التعظيم والتبجيل وهو يدعوهم بدعاية الإسلام .
 - 9_ وافق رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديبية على تسليم كل مؤمن يأتي إليه من قريش مهاجراً ونقذ ذلك فعلاً .
 - 10_ امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصحيح بناء الكعبة وتركها على بناءٍ مخالفٍ لقواعد إبراهيم حتى لا تتغير قلوب الناس .
 - 11_ فكر رسول الله صلى الله عليه وسلم جداً أن يدفع ثلث ثمار المدينة للكفار من غطفان من أجل فرط تحالفهم مع الأحزاب .
 - 12_ أسلم النجاشي وبقي يحكم دولة كافرة ويخفي إسلامه وما أمره رسول الله بتطبيق الشريعة ولا بالتحني حتى مات كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.
 - 13_ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعيد بدرٍ "لو كان المُطعم بن عدي حياً وكَلمني في هؤلاء الأسرى لأطلقتهم من أجله" (وفاء له).
- علينا أن لا ننع في القراءة البتراء والنظرة العوراء للسيرة النبوية ، فلا يمكن أن نأخذ مشهد صلح الحديبية دون أن نتصور مشهد بيعة الرضوان قبلها ، كما لا يسعنا أن نقرأ مأساة أُحدٍ دون أن ننظر في دلالات حمراء الأسد بعدها .
- إنّ الايادي التي كانت تمتد للصلح في الحديبية مع المشركين كانت قد امتدت لتعطي بيعة الموت قبلها من أجل نصره هذا الدين وأن الجراح النازفة في أحد كانت تُضمّد في موقعة حمراء الاسد في اليوم الثاني .

يشيع عند المتقنين الإسلاميين أنّ التقية من لوازم التشيع، وأنه شيء منكر بالعموم لا يجوز فعله بحال! وهذا خطأ كبير، فقد أذن تعالى للأمة أن تتقي من أعدائها وهي في حالة الاستضعاف والضرورة بضوابطها، قال تعالى: { لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاءً وَيُحَذِّرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ } . [سورة آل عمران: 28] .

قد تجتهد جماعة ما بإصدار بيانٍ أو خطابٍ فيه مجاملةٌ أو إجمالٌ يحتملُ عدّة تفسيراتٍ لتحقيق ذلك مكسباً سياسياً يرتقي إلى درجة الضرورة، فتقوم الجماعة الأخرى المتربصة بها لتصف البيان بأنه بيان الذلّ والعار والانبطاح والمولاة لأعداء الله، والمقصود من ذلك هو دغدغة عواطف الحاضنة الشعبية لتتصرف إليهم بدلاً من أن تبقى ملتفة حول الجماعة الأخرى المنافسة لها، مما يضطر الجماعة الأخيرة التي تمارس التقية أن تُصدرَ عشرات البيانات لتبرّرَ البيان الأول وكأنّ العدو قد نام وغفل، فإذا بها تخسر أضعاف ما كانت ترجوا أن تكسبه، ولا تستطيع إرضاء المنكرين حتى بعد التبرير . هذا الفعل كمن يُنَبِّهُ الدُّبَّ لِقذف الحجر !

قال عمر رضي الله عنه (حُقَّ على كلِّ مسلم أن يُقبِلَ رأسَ عبدالله بنِ حذافة السهمي، وأنا أولكم) ماذا فعل عبد الله بن حذافة؟ قبِلَ رأسَ ملكٍ ظالمٍ كافرٍ قاتلٍ للمسلمين من أجل إطلاق الأسرى المسلمين فحمد عمر له هذا الفعل ! هنا لأبّد من المفصلة بين مصطلح الكَيْدِ السياسي والنفاق السياسي والانتحار السياسي والمشاركة السياسية والتقية السياسية والعهر السياسي والتسقيط السياسي والتكفير السياسي .

أصبحنا بحاجة لتوضيح كثير من القضايا وهي من المُسلمات بسبب الخلط بين مفاهيم الولاء والبراء ومسائل المعاملات والسياسة الشرعية والمدارة .

نصوص لعلماء الأمة في السياسة الشرعية :

*وسائر العبادات من الصلاة والجهاد وغير ذلك كل ذلك واجب مع القدرة، فأما مع العجز فإن الله لا يُكَلِّفُ نفساً إلا وسعها . ولهذا أمر الله المُصَلِّي أن يتطهّر بالماء، فإنّ عدمه أو خاف الضرر باستعماله لشدة البرد أو جراحة أو غير ذلك تيمّم صعيداً طيباً فمسح بوجهه ويديه منه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين : صلّ قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب، فقد أوجب الله فعل الصلاة في الوقت على أي حال أمكن، كما قال تعالى : { حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين، فإن خفتم فرجالاً أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون } من كتاب : السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، لشيخ الإسلام ابن تيمية ج 1 ص 127 .

*الكتاب : " الإتيان في علوم القرآن " النوع السابع والأربعون في ناسخه ومنسوخه :

ما أمر به لسبب ثم يزول السبب، كالأمر حين الضعف والقلّة بالصبر والصفح، ثم نسخ بإيجاب القتال . وهذا في الحقيقة ليس نسخاً، بل هو من قسم المنسأ، [ص: 650] كما قال تعالى (أو ننسها) فالمنسأ : هو الأمر بالقتال إلى أن يقوى المسلمون، وفي حال الضعف يكون الحكم وجوب الصبر على الأذى، وبهذا يضعف ما لهج به كثيرون من أن الآية في ذلك منسوخة بآية السيف، وليس كذلك، بل هي من المنسأ، بمعنى أنّ كلّ أمر وردّ يجب امتثاله في وقت ما، لعلّة تقتضي ذلك الحكم، ثم ينتقل بانتقال تلك العلة إلى حكم آخر، وليس بنسخ، إنّما النسخ الإزالة للحكم حتى لا يجوز امتثاله.

*قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى :

(والنجاشي ما كان يمكنه أن يحكم بحكم القرآن ، فإن قومه لا يُؤزونه على ذلك ، وكثيراً ما يتولى الرجل بين المسلمين والتتار قاضياً، بل وإماماً، وفي نفسه أمورٌ من العدل يُريد أن يعمل بها ، فلا يمكنه ذلك، بل هناك من يمنعه ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها) (218/19)

*قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في الصارم المسلول 413/2: فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف ، أو في وقت هو فيه مستضعف ، فليعمل بأية الصبر و الصبح عمّن يُؤذي الله و رسوله من الذين أوتوا الكتاب و المشركين ، و أمّا أهل القوة فإتّما يعملون بأية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون) .
قلت : (وكانّ شيخ الإسلام رحمه الله تعالى جعل من أخذ الجزية معياراً لحال القوة ولحال الضعف ، ولإلنكار على من أخذ بالعزيمة نظر والله اعلم .. انتهى)

*لو سعى المسلمون الذين تحت ولاية الكفار ، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدينيوية ، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدينيوية ، وتَحْرِصُ على إبادتهم وجعلهم عملاً وخدماء له .
نعم ، إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام ، فهو المُتَعَيّن ، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مُقَدّمة .
والله أعلم" انتهى تفسير السعدي (ص 436 ، 437) .

من كتاب "أعلام الموقعين عن رب العالمين" لابن القيم الجوزية - الجزء الرابع :

قال ابن عقيل : السياسة ما كان من الأفعال بحيث يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد ، وإن لم يُشرّعه الرسول _صلى الله عليه وسلم_ ولا نزل به وحي ، فإن أردت بقولك " لا سياسة إلا ما وافق الشرع " أي لم يُخالف ما نطق به الشرع فصيحٌ ، وإن أردت ما نطق به الشرع فغلطٌ وتغليطٌ للصحابة ، فقد جرى من الخلفاء الراشدين من القتل والمثل ما لا يجده عالم بالسّير ، ولو لم يكن إلا تحريق المصاحف كان رأياً اعتمدوا فيه على مصلحة ، وكذلك تحريق علي كرم الله وجهه الزنادقة في الأخاديد ، ونفي عمر نصر بن حجاج.

قلت : هذا موضع مزلّة أقدام ، ومضلّة أفهام ، وهو مقام ضنك في مُعترَكٍ صعب ، فرط فيه طائفة فعطلّوا الحدود ، وضيّعوا الحقوق ، وجرّؤوا أهل الفجور على الفساد ، وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، وسدّوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من الطرق التي يُعرف بها المحقّ من المُبطل ، وعطلّوها مع علمهم وعلم الناس بها أنّها أدلة حقّ ، ظناً منهم مُنافاتها لقواعد الشرع ، والذي أوجب لهم ذلك نوع تقصير في معرفة حقيقة الشريعة والتطبيق بين الواقع وبينها ، فلما رأى ولاة الأمر ذلك وأن الناس لا يستقيم أمرهم إلا بشيء زائد على ما فهمه هؤلاء من الشريعة فأحدثوا لهم قوانين سياسية ينتظم بها مصالح العالم ، فتولّد من تقصير أولئك في الشريعة وإحداث هؤلاء ما أحدثوه من أوضاع سياستهم شرّ طويلٌ ، وفساد عريضٌ ، وتفاقم الأمر ، وتعذّر استدراكه ، وأفرط فيه طائفة أخرى فسوّغت منه ما يناقض حكم الله ورسوله ، وكلا الطائفتين أُتِيَتْ من قِبَلِ تقصيرها في معرفة ما بعث الله به رسوله ، فإن الله أرسل رُسُلَهُ وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السموات والأرض ، فإذا ظهرت أمارات الحقّ ، وقامت أدلة العقل ، وأسفر صبحه بأي طريق كان ، فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره، والله تعالى لم يَحْصُرْ طُرُقَ العدل وأدلّته وأماراته في نوع واحدٍ وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدلّ وأظهر، بل بين بما شرعه

من الطرق أن مقصوده إقامة الحق والعدل وقيام الناس بالقسط ، فأَيّ طريق استخرج بها الحق ومعرفة العدل وجب الحكم بموجبها ومقتضاها .

والطُّرُقُ أسبابٌ ووسائلٌ لا تتراد لذواتها ، وإنّما المراد غاياتها التي هي المقاصد ، ولكن نَبّه بما شرّعه من الطرق على أسبابها وأمثالها ، ولن تجد طريقاً من الطرق المثبتة للحق إلا وهي شِرْعَةٌ وسبيلٌ للدلالة عليها ، وهل يُظنُّ بالشريعة الكاملة خلاف ذلك ؟ ولا نقول : إنّ السياسة العادلة مخالفةٌ للشريعة الكاملة ، بل هي جزء من أجزائها وباب من أبوابها ، وتسميتها سياسة أمر اصطلاحى ، وإلا فإذا كانت عدلاً فهي من الشرع ، فقد حَبَسَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في تهمة ، وعاقبَ في تهمة لما ظهرت أمارات الرِّيْبَةِ على المتهم ، فمن أطلق كلا منهم وخلقى سبيله أو حلفه مع علمه باشتهاره بالفساد في الأرض ونقب الدور وتواتر السرقات_ ولا سيما مع وجود المسروق معه_ وقال : لا أخذه إلا بشاهدي عدل أو إقرارٍ اختيارٍ وطوعٍ فقوله مخالف للسياسة الشرعية ، وكذلك مَنَعَ النبي صلى الله عليه وسلم الغالّ من الغنيمة سهمه ، وتحريق الخلفاء الراشدين متاعه ، ومنع المُسيء على أمين سلب قتيله ، وأخذ شطر مال مانع الزكاة ، وإضعافه الغرم على سارق ما لا قطع فيه ، وعقوبته بالجلد ، وإضعافه الغُرم على كاتم الضالة ، وتحريق عمر بن الخطاب حانوت الخمار ، وتحريقه قرية يباع فيها الخمر ، وتحريقه قصر سعد بن أبي وقاص لما احتجب فيه عن رعيته ، وحلقه رأس نصر بن حجاج ونفيه ، وضربه صبيغاً بالدرّة لما تتبع المتشابه فسأل عنه ، إلى غير ذلك من السياسة التي ساس بها الأمة فسارت سنة إلى يوم القيامة ، وإن خالفها من خالفها .

ولقد حدّ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في الزنا بمجرد الحَبْلِ ، وفي الخمر بالرائحة والقيء ، وهذا هو الصواب ، فإن دليل القيء والرائحة والحَبْل على الشرب والزنا أولى من البيينة قطعاً ، فكيف يُظنُّ بالشريعة إلغاء أقوى الدليلين ، ومن ذلك تحريق الصدّيق اللوطي ، وإلقاء أمير المؤمنين علي _كرم الله وجهه_ له من شاهق على رأسه ، ومن ذلك تحريق عثمان المصاحف المخالفة للمصحف الذي جمع الناس عليه ، وهو الذي بلسان قريش ، ومن ذلك تحريق الصدّيق الفجاءة السلمي ، ومن ذلك اختيار عمر رضي الله عنه للناس أفراد الحج وأن يعتمروا في غير أشهر الحج ، فلا يزال البيت الحرام معموراً بالحجاج والمعتمرين ، ومن ذلك منع عمر رضي الله عنه الناس من بيع أمهات الأولاد ، وقد باعوهن في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ، ومن ذلك إلزامه بالطلاق الثلاث لمن أوقعه بغم واحد عقوبة له كما صرح هو بذلك ، وإلا فقد كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وصدرا من أمارته هو يجعل واحدة ، إلى أضعاف ذلك من السياسات العادلة التي ساسوا بها الأمة ، وهي مُشتَقَّة من أصول الشريعة وقواعدها .

وتقسيم بعضهم طرق الحكم إلى شريعة وسياسة كتقسيم غيرهم الدين إلى شريعة وحقيقة ، وكتقسيم آخرين الدين إلى عقل ونقل ، وكل ذلك تقسيم باطل ، بل السياسة والحقيقة والطريقة والعقل كل ذلك ينقسم إلى قسمين : صحيح ، وفساد ؛ فالصحيح قسم من أقسام الشريعة لا قسيم لها ، والباطل ضدها ومنافياها ، وهذا الأصل من أهمّ الأصول وأنفعها ، وهو مبنيٌّ على حرف واحد ، وهو عمومُ رسالته صلى الله عليه وسلم بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه العباد في معارفهم وعلومهم وأعمالهم ، وأنّه لم يُخوِّج أمته إلى أحدٍ بعده ، وإنّما حاجتهم إلى من يُبَلِّغُهُم عنه ما جاء به ، فلرسالته عمومان محفوظان لا يتطرق إليهما تخصيص : عمومٌ بالنسبة إلى المرسل إليهم ، وعمومٌ بالنسبة إلى كلّ ما يحتاج إليه من بعث إليه في أصول الدين وفروعه ؛ فرسالته كافية شافية عامّة ، لا

تُحوَجُ إلى سواها ، ولا يتم الإيمان به إلا بإثبات عموم رسالته في هذا وهذا ، فلا يخرج أحد من المكلفين عن رسالته ، ولا يخرج نوع من أنواع الحقّ الذي تحتاج إليه الأمة في علومها وأعمالها عمّا جاء به.

نتيجة

نرى أنّ كثيراً من التدابير السياسية راجعٌ للمصالح المُرسَلة وأنّ المنصوص عليه في السياسة الشرعية قليل، ممّا يجعل المجال مفتوحاً للاجتهد والاختيار على ما تقتضيه المصلحة، فالأصل في السياسة الشرعية الإباحة والابتداع من وسائل الضبط وما يتحرى به العدل وما يكون أقرب لتحقيق مصالح الرعية إلا ما دل الدليل على حرمة

الفصل الخامس

خارطة الطريق للمنهج الحركي الرشيد

رؤية وحلول أولية لتصحيح مسار عمل الإسلامى

لا يمكن للحل أن يُنشأ عن طريق كتابة بنود وتنظير على الورق ، هو يتمخض عن حركة أمة و سيرورة أحداث ، ليندفع المولود الجديد بعد مخاض قد يكون مؤلماً وعسيراً .

الأمم التي ترتع في الفساد زمنا وتقطع فيه مسافة تحتاج أن تقطع نفس المسافة في الإصلاح ، خصوصاً أنّ الرأي العام لا يتشكل الأمن قراءة الأحداث لا من قراءة الأفكار .

هذا و ليس بالضرورة أن يكون كياناً حزبياً ولا منهجاً فكرياً انفرادياً ، قد تكون دعوة تجديد على غرار دعوات العلماء والمصلحين !

و المُجدِّدون على رأس كل قرنٍ ليس بدعاً، بل من رحمات الله بأمم لم يعد فيها نذير.

نحتاج إلى لِيْنٍ وأخلاق وآداب "جماعة التبليغ" وهم يعتبرون [مدرسة سلوكية وتربوية]

نحتاج إلى فهم وعلم وعقيدة "أهل الحديث" وهم يعتبرون [السلفية وطلاب العلم الشرعي]

نحتاج إلى الفهم السياسي وفقه الواقع عند "الإخوان وأمثالهم" فهم مدرسة [أحزاب سياسية]

نحتاج إلى الخبرة العسكرية والقتالية عند "الجهاديين" وهم مدرسة [السلفية الجهادية]

نلاحظ أن كافة المدارس والأحزاب الإسلاميّة لا تستطيع النّجاح بمفردها ولا بإقصاء غيرها.

"معادلة بسيطة "

[عالم + داعية + سياسي + مجاهد = بناء الدولة]

- التاريخ لا يسير باتجاه واحد

في الوقت الذي كان يَنْحَسِرُ مُلْكُ المسلمين العرب عن الأندلس كان المسلمون الأتراك ينساحون في القسطنطينية وشرق أوروبا.

ما يتعلق بهذا الطرح كثيرٌ جداً و شائك ، والساحة مُغرقةٌ بالتيارات وهذا من أسباب المآسي . إنشاء تيار جامع قد يكون مستحيلاً بالمعطيات وحتى منطقيّاً ، وإنشاء تيارٍ مستقلٍ عودةً ودخولٌ مُجدِّداً في دوامة الحزبيات المرهقة لكاهل المسلمين!

ألا ترون معي إخواني أنّ هذا الاختيار يعني أننا سنمشي على نفس الخطوات التي سارت عليها التيارات السابقة، بل بنفس

المُبررات والدوافع = تيار جديد مخلص !

قد نتفادى المطبات ، ولكن لا يمكن تفادي أكبر مطبة ومُولدة المطبات وأمها ، الحزبيّة و بناتها المعروفات كالعصبية -الإقصاء-

الانحصار - التصارع - التمنهج الحزبي ، الخ ، و من ثمة الابتعاد رويداً عن الأصل الذي لا بدّ العودة إليه والذي " لا يقوم إلا

على الشمولية والاستيعاب والتمسك بأول العهد " فأنى يتحقق ذلك ، يلزمه مراحل صحيحة ، و لكن تقريباً كلّ الطرق اتُّخذت و

الأساليب جُرِّبت.

جربت الأحزاب السياسية ، التنظيمات الجهادية ، إقامة دولة ، فمنهم من يحاول سدّ ثغرة فيُحدثُ ثغرة أخرى ، يحاول التركيز

على جزء من الشريعة مفقودٍ فيفقد بسببه جزء آخر ، يحاول الاستيعاب يقع في اللاواقعية والصدام مع باقي الأحزاب والحاضنة ،

الأمثلة كثيرة في كل التيارات ، بين الدعوية و الجهادية و السياسية و التعليمية و و ، و الميلان مستمرّ رغم رغبة كلّ جديد في

تعديل القوام!

هل يجب لفظ كل التيارات و ما حملته ، أم هل يجب الاستفادة من منجزاتها و الاعتبار من أخطائها . هل يجب تجميع نتائجها و البناء عليه ، هل و هل . قد قدموا ما عندهم و لهم ما كسبوا و جزى الله خيرا مُحسنهم ، لكننا لم نصل بعد للمطلوب ، و الحكمة الربانية بالغة.

هذه مجرد ومضات ، و سيكون الخلاص ربانياً و من تدبير الرب حكيم.

استلهام التجربة والتاريخ

قراءة في حديث القرون الخيرية الأربعة

المتأمل في سيرورة الدعوة الإسلامية من فجرها الأول يلحظ أنها قامت على ثلاث محاور

1_ **محور العلم**، قال تعالى { **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ {1} خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ {2} اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ {3} الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ {4} عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ {5}**

كانت أول منازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أوماً إلى العلم بالإشارة إلى وسيلته وهي القراءة .
2_ **محور العبادة**، قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا تَقِيلًا (5) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا {** لن يكون للإسلاميين عز السلف مالم يكن أئمتهم كآئيل السلف .

3_ **محور الدعوة**، قال تعالى { **يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) {**

وكان من سمات هذه الدعوة هو الربانية، وكان الجهاد الرباني خادماً للدعوة وفرعاً عنها، وكان الجهاد أيضاً جهاداً ربانياً واليوم عندنا دعوة و جهاد ولكنها دعوة حزبية و جهاد حزبي لا يمت للربانية بصله الأعلى مستوى بعض الأفراد هذه السور الثلاث كانت أول منازل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي التي رسمت معالم الدعوة الأولى

جاء حديث القرون الثلاث والذي ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خيرُ الناسِ قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال : ثم يتخلف من بعدهم خلفٌ تسبقُ شهادةُ أحدهم يمينه ويمينه شهادته "

روى البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم: " خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، قال عمران : لا أدري أذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعد قرنين أو ثلاثة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنَّ بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ولا يُستشهدون ، ويذرون ولا يفون ، ويظهرُ فيهم السمنُ "

المتدبرُ للحديث ورواياته يقف على ملاحظتين :

1_ المتدبر للحديث يجد أنَّ المراحل والقرون هي ثلاثة أو أربعة على حسب ما شك الراوي ، هناك من بنى على الأقل، ولكن طالما أنَّ الكلام عن الخيرية _والطمع في الخير فطرة للإنسان_ سوف نبني على الأربعة وليس على الثلاثة .

2_ وأنَّ الخيرية غير مقرونة بصفة أو مزية ، لأنَّ الله عزَّ وجل عندما تحدث عن خيرية الأمة ربط ذلك بالمزية، قال تعالى: { **كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** } آل عمران فما هي المزايا التي تميَّز بها كلُّ قرن حتى حاز هذه الخيرية؟ ولماذا لم تُجَمَلِ القرون الأربعة بحكم واحد في الخيرية؟ الآن نأتي لسبب هذه القرون الأربع :

- **القرن الأول** وهو عصر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، في هذا العصر كانت الخيرية في أنَّ المحاور الثلاثة (العلم - العبادة - الدعوة) كانت تسير بشكل متوازي لا يطغى فيه جانب على آخر .

في العبادة كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس اجتهاداً في العبادة وقيام الليل ، وفي العلم كان العدد محصوراً فيمن يفتي، وبدأت تتشكل مدرسة النص ورائدها عمر رضي الله عنه ومدرس الرأي ورائدها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

أمَّا الدعوة فقد تضاعف عدد المسلمين أضعافاً كثيرة وكان دخول الناس في الإسلام أحبَّ إلى عمر رضي الله عنه من جلب الجزية .

- **أمَّا القرن الثاني** الذي برزت فيه الدعوة والجهاد ، ولا نقول أنَّ العلم والعبادة غائبة ، ولكن كانت الدعوة هي الجانب

الأمير حيث بلغت دولة الإسلام من بواتيه إلى الصين ودخل الناس في دين الله أفوجاً وكسب الإسلام شعوباً كاملة ووصل عقبه إلى المحيط .

- **في القرن الثالث** أواخر الدولة الأموية وأوائل الدولة العباسية تراجعت العبادة والدعوة ولم يذكر التاريخ أن العباسيين كسبوا أراضاً أو شعوباً جديدة إلى الإسلام وكان جهادهم هو للحفاظ على حدودهم وهمتهم منصرفة إلى العلم والتصنيف، وقد ظهر جليا الأئمة الأربعة وقوي التأليف والتدوين والترجمة، ولكن الترجمة كانت ترجمة استجلاب من الثقافات الأخرى ولم تكن تصديراً لعلومنا الإسلامية وخدمة للدعوة وتسهيل الفهم على الأعاجم .

- **في القرن الرابع** وهو بداية مرحلة الانحدار، مالت الأمة إلى الملذات والترف وظهر كردة فعل العباد من المتصوفة والزهاد وحلق الذكر، ولا نقول أنها لم تكن موجودة ولكنها في هذا القرن كانت أوضح وأجلى، فكان الجنيد وأبو علي الدقق وذي النون المصري ورجال الرسالة القشيرية .

- **ثم جاء القرن الخامس** فإذا بالأمة قد توقفت الدعوة عند حدودها التي بدأت تتناقص، وصار العلم متوقفاً على الفروع المذهبية وأغلق باب الاجتهاد ومال المتصوف والعباد فيها إلى التخريف، وهي المرحلة التي انتهت بالسقوط العسكري للأمة أمام حجاج التتار .

واليوم إن أرادت الحركات الإسلامية أن تُصَحَّح مسارها وتسترشد طريقها لأبداً أن تعود لما بدأت به قرون السلف وتفعيل المحاور الثلاثة، رحم الله الإمام مالكا يوم قال : " لن يَصْلَحَ آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها " .

صراع الكليات والمواجهة الشاملة لأجل ترشيد الحركات الإسلامية :

من أسباب الهزائم المتلاحقة للحركات الإسلامية أنهم يخوضون معركة جزئية مع عدو يمارس حرباً شاملة، حتى إن كثيراً من طاقات هذه الحركات تُصرف في النزاعات البيئية بدل أن تتوجه للخصوم الذين يضعونهم اليوم بكفة واحدة، الأمر الذي أفقد الحاضنة الشعبية والثقة بمشاريع هذه التيارات، حتى قال البعض :

لو كانت الحركات الإسلامية قادرة على حلّ مشاكل الأمة لحلت مشاكلها البيئية أولاً!

فما يكسبونه بالجهاد يخسرونه بالسياسة، وما يكسبونه بالسياسة يخسرونه بالاقتصاد، وما يكسبونه بالاقتصاد يخسرونه بالفكر .

إلغاء ونسف الحركات الموجودة على الساحة مُحال، وإيجاد حركة بديلة زيادة في التحزب وإضافة جديدة للانقسام ، والحق ماثوث في جملة الأحزاب .

التكامل بين هذه الحركات موجود ولكن التواصل غائب :

هناك من يطرح رؤية لا أعرف مدى نجاعتها :

المُتأمل بالحركات الإسلامية اليوم يجد كل فئة تُضخّم عندها جزءاً من أجزاء الدين وغالت فيه على حساب المشهد الكلي .

لو حولنا عمل هذه الحركات إلى حركة عضوية متناسقة من خلال نزع بذور الصراع بينها أولاً ثم اعتبار كل ما تقوم الحركة الأخرى مُكَمِّلاً لما يقوم به غيرها. المزج بين هذه المناهج والمشاريع يُحدث شيئاً من التوازن، وذلك بتوظيف جهد الآخرين بدلاً من تضليله ، بهذا المزج ينخفض عند جماعة العمل السياسي المصلحي ما غالوا فيه ويرتفع عندهم معدل التزكية والجهاد ، وكذلك ينخفض معدل الغلو في الجهاد عند البعض ليرتفع معدّل السياسة، وينخفض عند الثالث الإغراق في التنظير ليفتح عينه على الواقع .

وهكذا نصل إلى حركة إسلامية تمتاز بالشمول والتوازن وتتنظر للمخالف على أنه المُكَمِّل وليس النَدْب .

لكن هذا الأمر يحتاج منا إلى دعامتين:

أ_ أن يتولى حمله والترويج له علماء ربّانيون هم محل ارتضاء من الجمهور الأوسع من الأمة، لم يُحسبوا على حزب بعينه .

ب_ أن نتلمس هذا الاعتدال من خلال الوقوف بين صريح وصحيح النصوص وليس بين مناهج الجماعات .

فإنه مما يعلو به صوت النكير والنذير العريان على أحزاب تتصارع على الجزئيات في الزمن الذي يتصارع العالم فيه على الكليات، ويغيب اتفاقنا على الموجود ويشند نزاعنا على المفقود .

تحديد الثابت والمتغير في الشريعة

في كل منظومة فكرية أو أيديولوجية هناك الدائرة الصلبة والدائرة المرنة وكذلك في الإسلام هناك دائرة صلبة { لا أعبد ما تعبدون }

وهناك الدائرة المرنة التي يناور فيها السياسيون (أمخها يا علي ، اكتب محمد بن عبد الله) الخوارج ومن ينتج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرة واحدة صلبة فتكسروا لأنهم لا يستطيعون المناورة، فيكفرون . والمرجئة ومن ينتج فكرهم جعلوا من الإسلام دائرة واحدة مرنة فتميعوا ومناوراتهم تكون على كل الدائرة فيقعون بالكفر .

مُرعاة تراثبية البناء

الاجتهادات متعدّدة في فكر الجماعات الإسلامية في هذا الشأن

الشيخ الألباني نادى بالتصفية والتربية وقال: سيأتي يوم ندخل فيه معترك السياسة، أمّا الآن فمن السياسة ترك السياسة . أمّا الإخوان المسلمون فقالوا إنّ مراحل الدعوة الثلاث التي حددها الإمام حسن البنا - رحمه الله - وهي التعريف والتكوين والتنفيذ .

أمّا السلفية الجهادية أيضاً قامت على ثلاثية الهجرة ثم التربية ثم الجهاد .

أمّا حزب التحرير فهو مغرق في التنظير وحمل بضاعته لأهل الشوكة والتمكين من أجل تحويل مشروعه من النظرية إلى التطبيق ، ولكن ليس له رؤية للوصول إلى التمكين إلا من خلال طلب النصر .

إذاً من خلال الاستقراء نجدُ الإجماع منعقدًا عند كلّ الجماعات الإسلامية على أن يكون البدء ببلورة المشروع قبل عرضه وتنظيم المؤيدين له والسير بهم نحو تحقيق أهدافه .

هذه هي المراحل التي نجدها عند مجموع الجماعات الإسلامية

1- التأسيس 2-التصفية 3-التربية 4-التكوين 5-التنفيذ

- 1_ التأسيس يجب أن يكون لمنهج الاصطفاة السُنِّيّ وليس للتحزّب والمناهج الحزبيّة القاصرة .
- 2_ التصفية لكلّ أسباب النزاع بين الجماعات السُنِّيّة الإسلاميّة وترسيخ مفهوم الأُمَّة بدلاً من مفهوم الطائفة والجماعة .
- 3_ التربية على منهجٍ وخطابٍ يستوعب الأُمَّة ويخرج من الدائرة الحزبيّة ويتصف بالشمول .
- 4_ في هذه المرحلة يجب أن يبتعد أهل السنة عن تكوين التنظيمات الممنهجة ويحلّوا التنظيمات الموجودة ويتجهوا إلى التنظيمات الورشية على أساس من الاختصاصات الكفائية أشبه ما تكون بالمنظمات المهنيّة، والاتجاه للننتاج المادي ووسائل الانعتاق والتحرر قبل حسم الخلافات المنهجية .
- 5_ التنفيذ : تقوم هذه الورشُ بإنجاز ما تحتاجه الأُمَّة من خدمات وتقديم هذه الخدمات للجميع ، وتركز على جانب الإعداد والإنتاج المادي ، مما يُفوّي قابلية الأُمَّة للمقاومة والمواجهة بدون أن تمُدّ يدها ويُصادر قرارها السياسيّ ، وحتى تمتلك قرارها السياسيّ عليها أن تستقل بالكفاية الاقتصاديّة ، وتكون هذه الخدمات بعيدة عن الدعاية الحزبيّة والمآرب السياسية النفعية وتقدم للأُمَّة بدون شروط مسبقة أو تمييز .

هناك من الحركات ما زالت في دائرة التأسيس لمشروع الخلافة لم تخرج منه، واقتصر خروجها هو للبحث عن نصير

لمشروعهم !

السلفية العلمية لم تخرج من التصفية للبدع والتربية على الهدي الظاهر، ولا زالت تراوح بينهما !
الصوفية وجماعة التبليغ اتجهت إلى التربية والتزكية متجاوزةً للتأصيل وتصفية المنهج من الدخن فرَبَّت اتباعها على مناهج
تشرَّبَت بالدخن !

الحركات الإسلاميَّة التي خاضت غمار السياسة توجهت نحو التجميع بدون تربية ، فكَّوت حاضنة شعبية نفعيَّة سرعان ما
تنقلب ضدها !

الحركات الجهادية انطلقت إلى التنفيذ وممارسة صلاحية ولي الأمر على مجتمع لم يَلْ حظُّه من التربية والدعوة، فدخلت
بصراعٍ دامٍ مع المجتمع الحاضر .

حركة التجديد والانبعاث

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- " إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةٍ
سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا " . الناظر إلى موضع هذا الحديث في أبواب السنن _ وخصوصاً في سنن أبي داوود _ نجد أن الإمام
أبي داوود - صدره في أول باب من كتاب الملاحم ، فقال : " كتاب الملاحم ، باب : ما يذكر في قرن المائة . حدثنا سليمان
بن داوود المهري ، " فذكر الحديث .

والملاحم جمع مَلَحَمَة ، ويراد بها المعارك والأحداث الجسام التي تقع في المستقبل بين المسلمين وأعدائهم ، مأخوذة من
التَّحَام الجيَّشين المتحاربين ، لذا يذكر أئمة الحديث في هذا الباب الأحاديث النبوية الواردة في قتال المسلمين للترُّك والرومان
واليهود وغيرهم ، ونسأل هنا : لماذا كتب أبو داود هذا الحديث في هذا الباب ؟ نقول : إنَّ هذا من فقه أئمة الحديث وبراعتهم
في التصانيف . وذكُرُ أبي داوود لهذا الحديث في هذا الموضع في لطائف نراها ، ومنها :

1_ أنَّ المُجَدِّد ليس بعيداً عن الأحداث الجسام التي تتعرض لها الأمة ، وعن الحروب المعلنة على الإسلام ، فليس مكان
المُجَدِّد في الأبراج العالية بعيداً عن الأحداث التي تعصف بالمسلمين ، كما أنَّه ليس بعيداً عن ذروة السنام : الجهاد ، وليس
المُجَدِّد بالذي لا يضع يده في يد المسلمين في جهادهم ضد أعداء الإسلام .

2_ أنَّ من معاني تجديد الدين انتصار الدين في تلك الملاحم والحروب التي قامت وستقوم لمحاولة هدم الدين . وكان الإمام
أبي داوود بتقديمه هذا الحديث على كل أحاديث الملاحم ، يريد أن يؤكِّد السُّنن الرِّبانيَّة القائلة بانتصار الدين الإسلامي في
نهاية تلك الحروب . فأورد حديثَ التجديد الذي يُبشِّرُ بالمكانة والريادة لأمة المسلمين .

3_ أنَّ الملاحم والحروب التي أخبر عنها الرسول - صلى الله عليه وسلم - تهدف بالأساس إلى القضاء على هذا الدين ، أو
تشويهه . فمن يأتي دور المُجَدِّدين للدفاع عن هذا الدين، وعن ثوابته ، ويُحيون ما اندرس منه من المعالم بفعل أعداء
الإسلام وحروبهم .

4_ أنَّ عملية تجديد الدين عملية جهاديَّة من الدرجة الأولى ، وهي تغيظ أعداء الإسلام، لما يقوم به المُجَدِّدون من إحياء
الفرائض الغائبة والسُّنن المُغيبَة ومَحَقِّ البدع والخرافات الدَّخيلة ، لا سيما تلك الأفكار الخبيثة التي دسها أعداء الإسلام في
عقول العرب وسلوكياتهم وأخلاقهم . لذا كان الإمام أبو داوود فقهياً حقاً عندما كتب هذا الحديث في باب يتحدث عن الجهاد
ضد رايات الكفر اليهودية والصليبية .

5_ حاجة الأمة الإسلاميَّة إلى المُجَدِّدين تكون أشدَّ وأعظم في زمان الفتن والملاحم ، لا سيما تلك الحروب المعلنة على
الإسلام ، إذ وظيفة المُجَدِّد هو النهضة بهذه الأمة، والخروج بالأمة من عثراتها . سالمة غائمة منتصرة .

في هدف الحديث:

"يهدف هذا الحديث إلى بعث الأمل في نفوس الأمة .

فهو يريد أن يرسل رسالة إلى أتباع هذه الدنيا مفادها أن هذا الدين لن يموت، وأن الله يُقَيِّضُ لهذه الأمة كلَّ فترة زمنية من يُجَدِّد فهمها وأفكارها نحو هذا الدين ، وأن الله - عزَّ وجلَّ - لن يدع هذه الأمة تتيه بعد وفاة رسولها _ صلى الله عليه وسلم_ ، فقد قرَّر - عز وجل - أن يُرسل لهذه الأمة من يوقظها من سبات ، ويجمعها من شتات، وينصرها من هزيمة، ويحررها من طغيان . وبالتالي فإن هذا الحديث الجليل يقف ضد موجة اليأس والانهزام والقنوط ، التي يبثها المثبِّطون والمعوقون ، الذين يوحون إلى الناس بأن الإسلام في إديار والكفر في إقبال وأنه لا فائدة ولا أمل في التمكين للمسلمين في الأرض، كما مكَّن الله الرعيل الأول من أتباع محمد _ صلى الله عليه وسلم_ . ومن ثم تأتي وظيفة هذا الحديث وأمثاله _ من المُبَشِّرَات _ بقذف قمم اليأس التي خيمت على النفوس، وحرقت أشجار القنوط الخبيثة . (يَابَنِي آدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَأْسُوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَبْيَأْسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ) [يوسف : 87] . والحق أن في السنة النبوية الكثير والكثير من الأحاديث المبشرة بنصر الإسلام والتمكين له ، وكلها أحاديث تتكاتف مع حديث المُجَدِّد من حيث وحدة الهدف ، في كون هذه الأمة منصورَةً، مُمَكَّنًا لها ، ومن أمثلة تلك الأحاديث الكريمة : قول الرسول _ صلى الله عليه وسلم_ :

1_ " بَشِّرْ هذه الأمة : بالتيسير، والسناء، والرفعة بالدين ، والتمكين في البلاد، والنصر . فمن عمل منهم بعمل الآخرة للدنيا فليس له في الآخرة من نصيب"

2_ " مَثَلُ أُمَّتِي ، مَثَلُ الْمَطَرِ ، لَا يَدْرِي أَوَّلُهُ أَحْيَرُ أَمْ آخِرُهُ ."

3_ " لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدبرٍ ولا وَّبرٍ إلا أدخله الله هذا الدين بعزٍّ عزيزٍ أو ذلٍّ ذليلٍ، عَزًّا يُعَزُّ اللهُ به الإسلام وذلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكفر"

4_ "تسمعون ويُسمع منكم ، ويُسمع ممن سمع منكم"

5_ "تكون النبوة فيكم _ ما شاء الله أن تكون_ ، ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة _ ما شاء الله أن تكون_ ، ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون ملكاً عاضاً، فتكون ما شاء الله أن تكون ، ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون ملكاً جبرية فيكون ما شاء الله أن يكون ، ثم يرفعها الله تعالى ، ثم تكون خلافة على منهاج نبوة " ثم سكت .

6_ "إنَّ الله زوى لي الأرض ! فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا ما زُويَ لي منها".

وبالجملة فإن هذه الأحاديث لا سيما هذا الحديث العظيم (أي حديث المُجَدِّد) من البشائر التي وعد بها النبي _ صلى الله عليه عليه وسلم_ وإنَّ هذا الحديث العظيم ليمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد بنصر الله لعباده المؤمنين ، ويمنحه _ فوق هذا _ دفعة قوية محرّكة للعمل والبذل والجهاد والتضحية رجاء أن يَكْتُبَ له المولى _ تبارك وتعالى _ ثواب المُجَدِّدِينَ .

في لطائف الحديث:

1_ أول ما يستوقف المتأمل في هذا الحديث الكريم ؛ هو قول النبي _ صلى الله عليه وسلم_ : " يبعث الله ! " وهو بذلك يقذف في قلب المستمع من أول وهلة سيلاً من الثقة والإيمان يثني بعناية ورعاية المولى _ تبارك وتعالى _ للمُجَدِّد ، وكلمة البعث هنا توحى بأنَّ الله تعالى يرسل لهذه الأمة من يصطفيه ويجتبيه من عباده ليحمل أمانة التجديد وتبعية النهضة ومسؤولية الإحياء ، وكأنَّ المُجَدِّدِينَ هم رسل الله بعد الأنبياء غير أنَّه لا نبي بعد محمد _ صلى الله عليه وسلم_ !

2_ وانظر إلى قوله : " لهذه الأمة " ، نعم ، قوله : " لهذه الأمة " ، فالتجديد الإسلامي يهدف بالأساس مصلحة هذه الأمة

جمعاء ، وكل مصالحها السياسية والاقتصادية والفكرية والتربوية ، الخ ، كما أنّ المُجدّد ليس بالذي يعيش لنفسه ، أو يعيش معزولاً عن الأمة، حبيسَ الكتب والمكتبات ، إنّه بذلك يعيش من أجل نفسه بل من أجل شهواته ، يعيش من أجل أن يُشبع بطنه بحبر قلمه ! ولكنّ المُجدّد الحقيقيّ هو الذي يعيش بكل كيانه لهذه الأمة ، ولأبناء هذه الأمة مهما كان مكانهم ومهما كان حالهم ومهما كانت أرضهم ، " إنّنا نعيش لأنفسنا حياة مضاعفة ، حينما نعيش للآخرين " .

3_ ثم قال : " على رأس كل مائة سنة " ، ومعروف أن رأس الشيء أعلاه ، ورأس الشهر أوله ، ورأس المال أصله ، هنا يتساءل الشراح عن بداية المائة ، فقال المناوي : " يحتمل من المولد النبوي، أو من البعثة، أو من الهجرة، أو الوفاة، ولو قيل بأقربية الثاني (أي البعثة) لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث " (أي الهجرة) .

وذلك لأنهم في حديثهم عن المُجدّدين اعتبروا التاريخ الهجري هو الأساس ، وهو معقول ، لأنّه التاريخ الذي ألهم الله المسلمين منذ عهد عمر أن يؤرّخوا به دون غيره ، فلم يعتمدوا المولد ولا البعثة ولا الوفاة . هذا وقد قال بعضهم في قول النبي _ صلى الله عليه وسلم_ : " على رأس كل مائة سنة " ، يعني في أولها، وقال آخرون بل في آخرها ، كما يلاحظ أن أكثرهم جعلوا العبرة بوفاة المُجدّد في رأس القرن ، كما يظهر ذلك في وفيات الذين عينوهم : فعمربن عبد العزيز توفي _رحمه الله_ في سنة 101هـ، والشافعي توفي - رحمه الله - في سنة 204هـ ، وابن سريج (ت306هـ)، والباقلاني (ت403هـ)، والغزالي (ت505هـ)، والرازي (ت606هـ)، وابن دقيق العيد (ت703)، والعراق (ت808هـ)(12) . لكنهم لم يذكروا إماماً مثل ابن تيمية برغم حركته التجديدية الضخمة في الفكر الإسلاميّ بمختلف جوانبه، لأنّه تأخرت وفاته عن رأس المائة (ت728هـ).

فالحق أنّ النبي _ صلى الله عليه وسلم_ لم يُقل : إنّ الله يتوفى المُجدّد على رأس القرن ، بل يبعثه على رأس القرن . ومعناه: أنّ مهمة المُجدّد تبدأ في رأس القرن ، كما أن مهمّة كلّ نبيّ تبدأ من أول يوم بعث فيه . ولقد فطن إلى هذه الحقيقة المناوي _رحمه الله_ فقال : وهنا تنبيه ينبغي التفطن له، وهو أنّ كل من تكلم على حديث " إن الله يبعث " الخ، إنّما يقرّره بناءً على أنّ المبعوث على رأس القرن يكون موته على رأسه. وأنت خبير بأن المتبادر من الحديث إنّما هو: أن البعث _ وهو إالرسال_ يكون على رأس القرن ، أي أوله . ومعنى إرسال العالم : تأهله للتصدي لنفع الأنام، وانتصابه لنشر الأحكام . وموته على رأس القرن أخذ لا بعث ! فتدبّر بإنصاف . ثم رأيت الطيبي قال : المراد بالبعث من انقضت المائة وهو حي عالم مشهور مشار إليه . والكرماني قال : قد كان قبيل كل مئة أيضاً من يصحح ويقوم بأمر الدين، وإنّما المراد من انقضت المائة وهو حي عالم مشار إليه) . ثم ذكر المناوي : " أنّه قد يكون في أثناء المائة من هو كذلك، بل قد يكون أفضل من المبعوث على الرأس وأنّ تخصيص الرأس إنّما هو لكونه مَظنة انخرام علمائه غالباً وظهور البدع ونجوم الدجالين" . وهو بذلك يؤكد حقيقة أن المُجدّد لا يُشترط فيه أن يُبعث أو يظهر أو يموت على رأس المائة ، وهذا يصدقه التاريخ والواقع. وهو الراجح والله أعلم . كما أنّ الظاهر والله أعلم أنّ عدم تحديد المقصود بالرأس، وعدم تحديد المبتدأ، يشي بأنّ الله تعالى يبعث المُجدّدين كلما دعت الحاجة إليهم ، لاسيما في أزمنة النكبات والفتن والملاحم . ومن ثم يظهر المُجدّدون في أي يوم من أيام السنة ، وفي أيّ سنة من سنوات القرن ! وذلك فضل الله تعالى يؤتيه من يشاء .

4_ أمّا قوله صلى الله عليه وسلم : " من يُجدّد لها دينها " . فهذا يدلّ أن الدين المُجدّد هو ذلك الذي يعتقدّه الناس ، لا الدين الخالص الذي أنزله الله ، ولذلك قال : " يُجدّد لها دينها " فنسب الدين إلى الأمة ، ولم يقل مثلاً : يجدد لها الدين أو يجدد لها دين الله ! فههدف المُجدّد هو تجديد الدين الذي يتصوره ويعتقده الناس بحيث يتفق والدين الخالص الذي أنزله الله غصاً طرياً على نبيه صلى الله عليه وسلم .

أما بشأن كلمة " من " في الحديث ، والسؤال التقليدي : هل من هنا للفرد أم للجماعة ؟ فأعتقد أن " من " تنطبق على الفرد كما تنطبق على الجماعة ، فقد يكون القائم بالتجديد فرد ، وقد يكون جماعة أو حركة أو مدرسة . فقد يبعث الله تعالى رجلاً يجدد في الفقه السياسي أو الاقتصاد الإسلامي ، كما قد يبعث حركة إسلامية تجدد في المجال التربوي ، أو مدرسة تجديدية تنقي السنة ، أو تجدد في فهم كتاب الله تعالى ، أو تحمل راية الجهاد .

وفي هذا القرن الذي نعيشه نحتاج إلى حركة تجديدية شاملة متكاملة مستبيرة ، تنهض بهذه الأمة من عثرتها ، وترفعها من كبوتها.

الموقفُ الشَّرْطِيُّ المناسب للظرف التاريخي الحاضر

أطوار العقد الاجتماعي

لا يمكن لأيّ عملية تعصيب اجتماعي على عقد جامع إلا بعد دراسة سيفساء أفكار ورغبات وعصبيّات هذا المجتمع ومساحة هذه الأصوار على رقعته . يقسم الأستاذ مالك بن نبي الأطوار الحضارية إلى ثلاثة أطوار :

1_ **طُور الروح** (والإيمان حيث تتميز الأفكار وتجتمع الأمة حول فكرة جامعة تقوى بقوة الارتباط بها وتضعف بضعف الارتباط بها، وهذا ما كان عليه الحال منذ بعثة النبي صلى الله إلى موقعة صقّين التي شكّلت أول حالة من الاصطدام بين أبناء الأمة، وكانت الخلافة من قبلُ ترتبطُ بتقديم من يحمل الدين، وكان الاختيار يتم لمن هو الأكثر ارتباطاً بالفكرة الإسلامية ولم تسمى الدولة باسم حاكمها فلم نسمع من قال الدولة البكرية أو الدولة العمرية وإن كانت تظهر بعض العصبية العابرة لكنها لم تكن تعبر عن السمة العامّة للأمة ثم لتدخل الأمة في الطور الثاني) .

2_ **طور العقل** (في طور العقل تتراجع الأفكار قليلاً ويتقدم الإنسان، وهنا دخلت الأمة في حقبة الملك العضوض الذي لا يمكن أن يقوم إلا على العصبية، وظاهرة اليمانية والقيسية إبان الحكم الأموي هي أحد مُفرزاتها حيث صار اسم الدولة مرتبطاً باسم العائلة التي تحكم، هنا لا بُدّ للعصبية من استعمال مفرط للقوة لتصفية المعارضين واستعمال العصبية القبليّة في ضرب المعارضة وهذا الأمر لا يمكن إلا بسفك الدماء وتصفيت الخصوم لأن الفكرة الجامعة للأمة ضامرة .) في مرحلة العصبية لا يمكن أن تجتمع الأمة إلا بتشكيل هذه العصبية والهيمنة على العصبية الأخرى، وقد راعى الإسلام هذه الناحية فجعل الإمامة في قريش الأمر الذي فسره ابن خلدون أنه لِعلة العصبية لأنّ العرب لا يمكن أن تجتمع إلا على قريش .

3_ **طور الغرائز** ، في هذا الطور تزداد الفكرة ضموراً وينفرط عقد العصبية لتتفوق الأشياء (عالم المحسوسات) من المتاع كما هو الحال في مرحلة الملك الجبري الملك الجبري .

الملك الجبري يقوم بتوطيد الملك على أساس تجميع المنتفعين وأصحاب المصالح ، حتى النظام النصيري لم يكن طائفياً 100% بل إنّه استطاع تجميع أصحاب المصالح ومن كل الطوائف، ولم تكن العصبية للطائفة وإيجاد فكرة البعث إلا لتنظيم المصالح والتدرّء بها، حتى إنّ الرفاق عندما تعارضت مقتضيات الحكم مع وجود البعض قاموا بقتل رفاق النضال . بالعودة على بدء لا ننفي أنّ العصبية والغرائز لم تكن موجودة في الطور الأول ، من ميلاد الأمة كانت موجودةً وأحياناً تطفو إلى السطح بشدة، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يروضها بما يتناسب مع تدعيم الفكرة وتقويتها فمن مراعاته للعصبية كان كل رجل يقاتل تحت راية قومه ولكن الراية الجامعة هي لإعلاء كلمة الله وليس لإعلاء كلمة العشيرة، وكان يكرم كل كريم قوم ويؤمّره عليهم .

حتى قضية الغرائز والشهوات كان هناك مصرف من مصارف الزكاة للمؤلفة قلوبهم، وقد أثر النبي صلى الله عليه وسلم مسلمة الفتح وحرَمَ الأنصار من غنائم حُنين، ولكن لم تكن هذه العناصر لتصل إلى الدائرة الصلبة من الأمة، ولكنه ضَمِنَ بذلك ولاءها وحيَدَ عداها، ذلك أن من الناس من لا ينفاد إلا ببطنه وشهوته ومنهم من ينفاد بعقله وقلبه .

النتيجة

من العيب بمكان أن ندعوا أمة مُغرقة في الشهوات أن تتوحد بالاجتماع على الفكرة أو العصبية . والساحة السورية الآن تنتشر فيها المظاهر الثلاثة خصوصاً في مرحلة صراعات الأفكار والعصبيات والغرائز التي تموج بها الساحة، ولكي تتم الولادة السليمة لعقد اجتماعي تعبر فيه البلد للمرحلة القادمة لا بد من دراسة هذه الأطوار الثلاثة وتحديد سُبُل توظيفها بتحديد نسبتها وتأثيرها وإمكانية احتوائها وصهرها في المشهد القادم لأن الملاحظ أن هناك تنظيمات عصبية في الساحة وهناك تنظيمات مُدلّجة، وهناك تنظيمات مصلحة .

وعليه يجب أن نختار أحد الطريقتين في توحيد هذه المتباينات .

الطريقة الكيميائية في مزجها والخروج بمكافئ جديد أو التوظيف الفيزيائي في الجسم الآلي .

السقوط الحضاري لا يكون فجائياً وشاقولياً، وإنما يأخذ شكل منحني قد تطول مسافته ، فبعد حوالي مئة سنة من فتح المسلمين للأندلس بدأ خط الانحدار بعد معركة بلاط الشهداء حيث لم يتقدم الفتح الإسلامي خطوة واحدة وبدأ الانحسار تدريجياً ، وما يقال عن السقوط نقوله عن النهوض الذي يأخذ أيضاً شكلاً متدرجاً ثم يتسارع إلى الأعلى ليصل إلى الذروة لتكتمل الدورة الحضارية للأمة .

- من ملامح الحلول:

تشكيل العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفرعية .

عدم الاكتراث ببناء العقلية الأصولية التأصيلية بدلاً من العقلية الاختصاصية التفرعية ، تسبب في تفتيت الوحدة الثقافية للعاملين في الحركة الإسلامية فهم عرضة للاختصاص أمام ألقه اختلاف فرعي .

وهنا لا بد من وضع أصول تتميز بها أهل السنة عن غيرها دون الفرز على أساس الخلاف في الفروع .

الاجتماع على الأصول الكلية لأهل السنة والجماعة لأجل امتلاك الهوية :

اشتراط الموافقة في كل الفروع والمسائل الاجتهادية والظنيّة لكي نحسب مدرسة أو شخصية علمية على أهل السنة ستؤدي إلى جعل أهل السنة حالة افتراضية غير موجودة إلا في أذهان المُتنطّعين قياساً على تصوراتهم الخاصة .

الالتزام بالخطوط العريضة للإسلام وأركانها وشعائره يُسهّل تحديد الهوية للأمة دون الدخول في زوارب المناهج الحزبية التي تُضيّق معنى الهوية فلا تكاد تشمل أكثر من المنتسبين للحزب والجماعة لأنها تشترط شروط قياسية محدّدة بأصول الجماعة ومناهجها ولا تكتفي بالأصول العامّة للدين الحنيف .

من مشاكل المثقفين في بحثهم عن الوسطية أنهم يبحثون عنها بين مواقف الجماعات، لذلك لا يجدونها أبداً .

يعني هم يبحثون عن وسطية سياسية وليس وسطية شرعية التي يبحث عنها بين النصوص في الفهم الوسطي الذي ينأى عن الغلو والتفريط .

وسطية أهل السنة والجماعة :

وأهل السنة والجماعة وسط في نصوص الوعد والوعيد

فالمرجئة يأخذون بنصوص الوعد ويتركون نصوص الوعيد، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية ، أمّا الخوارج والمعتزلة فهم على النقيض من المرجئة ، أخذوا بنصوص الوعيد وتركوا نصوص الوعد .

أمّا أهل السنة فيرون أنّ نصوص الوعد لا يُخلفها الله تعالى ، أمّا نصوص الوعيد فقد يخلفها للعفو والرحمة .

وأهل السنة وسط

بين الظاهرية الذين يقفون على ظواهر النصوص ويُبتلون مسلك التعليل ، وبين الباطنية الذين يلوون أعناق النصوص ويغرقون بالمجازات الباطلة والتفاسير الإشارية وصولاً إلى الزندقة .

وأهل السنة وسط

بين المعطلة (الجهمية وبين النواصب الذين جعلوا من بغض آل البيت ديناً) الذين ينفون الصفات لله تعالى فيعبدون عدماً ، وبين المُجسمة (الحشوية) الذين يشبهون صفات الخالق بالمخلوق فيعبدون صنماً .

وأهل السنة وسط

بين القدرية الذين يقولون أن الإنسان خالق أفعال نفسه ،

وبين الجبرية الذين يقولون الأمر أنف

أهل السنة وسط في مسألة الإيمان والعمل

بين الخوارج الذين قالوا لا ينفع مع المعصية إيمان

وبين المرجئة الذين قالوا لا يضر مع الإيمان ذنب

أهل السنة وسط

بين الروافض الذين جعلوا من بُغض الصحابة ديناً

وبين النواصب الذين جعلوا من بُغض آل البيت ديناً

دعوة إلى الاصطفاف السني

لقد ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أمام بصر العقلاء وأولي الألباب أن الأحزاب أعجز وأضعف من أن تستطيع حمل مشاريع الأمة وأعجز من أن تستوعب الأمة في كياناتها .

الأحزاب المتدنية في سقوفها المتحجرة في مناهجها النخبوية في تنظيمها الاقصائية مع الجماعات الأخرى من إخوانها من أهل السنة .

الجماعات كلها روافد صغيرة يتشكل منها نهر الإسلام العظيم، وإن استثناء آية جماعة يؤدي إلى إضعاف لقوة التيار في ذلك النهر .

- يضيق مفهوم أهل السنة عند البعض فلا يكاد يتسع إلا لجماعته وأهل مشربه، طبعاً مفهوم الأمة الذي نعنيه ليس هو المفهوم الشائع عند المُنهجين والمتحزبين الذين يخضعون الأمر لشروط قياسية لا تنطبق الأعلى جماعتهم .
- البعض اليوم يرفع راية الجهاد النخبويّ الذي لا يستوعب إلا من يُسمّون أنفسهم إخوة المنهج ضمن شروط قياسية وانتقائية مُتمخّصة .
- هناك دعوة اليوم لصبغ جهاد الأمة ليكون سلفي الراية، وأن تكون قيادته سلفية التركيب، وأحكامه سلفية المنهج، وأن يكون كل شيء بالدليل، ولو قبلنا أن يجاهد معنا من ليس سلفياً فمن باب الحاجة !
- ولكن ليس لهم أن يكون لهم من القيادة أو أن تتعقد لهم البيعة شيء وإنما نقودهم لأداء فريضة الجهاد، طبعاً وليس كلّ السلفيات تصلح لذلك ، ولا يزالون يُضيقون حتى يقتصر الأمر على فئة بعينها ومرجعية بعينها وراية بعينها !
- ضرب من الانتحار التي تُقاد له الأمة في زمن الاصطفافات ليفرقوا بين المرء وأمه خصوصاً في جهاد الصائل ، فنحن اليوم نواجه كفراً بواحاً ، فهل من المنطق أن نفتح معركة من أجل بدعة !
- لم يكن الجهاد في يوم من الأيام مقصوراً محصوراً في التيار السلفي ، وقصره سيحوّلُ قسماً كبيراً من الأمة إلى الجهة المنقرجة لأنها ترفض الاصطباغ كشرط للجهاد ، وربما تتحول إلى الطرف المعادي والرافض.
- الأمة جاهدت تحت قيادة ومنهج الصوفية (محمد الفاتح عمر المختار)
- وجاهدت تحت راية الأشاعرة (صلاح الدين) (ابن قدامة المقدسي)
- وجاهدت تحت راية فاجر (الحجاج) (المهلب بن أبي صفرة)
- وجاهدت تحت راية فاسق (يزيد بن معاوية)
- والنبى صلى الله عليه وسلم جاهد مع المنافقين وجاهد مع من قالوا اجعل لنا ذات أنواط ولم تدخل المدارس الفقهية والكلامية إلى ساحات الجهاد في عصر السلف لتتجاز كل فئة إلى راية تُدُلُّ على انتمائها ومشربها .
- وقد جاهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع الصوفية والأشاعرة لردّ عادية التتار في شقحب، وسماههم الطائفة المنصورة .
- وقد حسم الأئمّة هذه المسألة لكي لا تكون ذريعة لتعدد الرايات والأحزاب ، فبَوَّبُوا باب الجهاد مع كل إمامٍ برّاً كان أم فاجراً ، وهو أصل من أصول أهل السنة والجماعة .
- الحزبية اليوم صارت أمّ المنكرات المتولدة عنها بيناتها المعروفة من الإقصاء والتمنّج وتركيز الفصيل والتغاضي عن الأخطاء وحماية المحدثين والتشبع بثوب الزور .
- بعد أن صارت الحزبية من أعظم المنكرات لن ينفع المتحزبين تأصيلُ حزبيّتهم بالتواري والتخفي وراء قوله تعالى :
- { ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير } ، كيف وبداية الآية تدعوا إلى الاتعصام بحبل الله تعالى لا بحبل الجماعات وتندّم الفرقة والحزبية شأن الأمم الهالكة { ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات } وقد جاء الوعيد الشديد للحزبية بقوله تعالى { وأولئك لهم عذاب عظيم } .
- هي دعوة لمن يريدون أن يُحْيُوا فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن يبدأوا بأعظم منكر عرفته الأمة في هذا العصر ألا وهو الحزبية .

الآن المرحلة مرحلة ما بعد الجماعات وهي الاصطفاف السنّي ، ومن خلال التجارب السّالفة كان الأولى أن نتعلم منها، ولكن كُرِّرَ الخطأ في الشام ، ولعل البعض يكابر وينتقد.

وهذا الوعي يفقده الكثيرون لقلّة تجاربهم وانحسار الأفكار بزواية ضيقة ، وأصلبنا كبنّي إسرائيل ضيقنا واسعاً وألزمنا أنفسنا بالزاماتٍ لم تفرض علينا ، وهو من التكلّف المُجانب لليسر الذي جاء به محمد ﷺ وشرّعه ، وقد عاب الله على بني إسرائيل ذلك (ورهبانيّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم) .

من خلال تجربة الجزائر ثم تجربة العراق وتجربة الشام بأنّ دماء ومصير الشعوب المسلمة لا يحلّ أن يكون حقل تجارب فاشلة يعبث به الغلاة الجهلة .

من السفهاء الذين يقومون بخرق سفينة الأمة ليصنعوا من حطامها قوارب صغيرة تتسع لإحزابهم عندما يقررون النجاة بها بعد أن تغرق سفينة الأمة المخرقة

أرى بوادر تشكّل تيار فكري سنّي مجتمعي ينبذُ الحزبيّة ويدعوا إلى الاصطفاف السنّي و يبدو أنّ ليل الأحزاب سيُبددُ نهارُ الأمة ، وعشاق العمل بالأجواء المظلمة سيُعرّيهم فجر الأمة الباسم ، فقد تنقل المُمنهجون في زوارب الفكر يمنة ويسرة وبقيت الحالة الشعبية ثابتة البوصلة والاتجاه في وسطية مهتدية بصفاء الفطرة لم تُكدرها الشبهات وفوضى الأفكار .
لن يكون التيار الجديد دعوة تنظيمية ولا دعوة حزبية جديدة وإنّما هو دعوة لاصطفاف الأمة كلّ الأمة في ساحة واحدة لتحمل عبء الجهاد وردّ الصّائل .

الجهاد مع المنافقين

هل كان هناك مشاركة سياسية وجهادية بين المسلمين والمنافقين في دولة المدينة المنورة؟ هل كان من سياسة رسول الله صلى الله عليه وسلم عزل المنافقين عن الجهاد والمجتمع أم دمجهم ؟
- لقد كانت المشاركة السياسية موجودة ، وقد استشار رسول الله رأس النفاق ابن سلول في معركة أُحد ، وكان حضورهم لغزوة الأحزاب ولم ينزع منهم السلاح بل أعطاهم سلاح بني قينقاع . وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بني الحارث بن الخزرج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنّ لي موالي من اليهود كثير عددهم ، وإنّي أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولّى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبيّ : إني رجل أخاف الدوائر ، لا أبرأ من ولاية موالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن أبيّ : " يا أبا الحباب ! رأيت الذي نفست به من ولاء يهود على عبادة ، فهو لك دونه " قال : إذن أقبل ، فأنزل الله : { يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى } إلى أن بلغ { والله يعصمك من الناس } (5 : 67) .

والعجيب أنّ الآية نزلت في المنافقين يستدل به على التكفير

- وقد كان المنافقون يعقدون الاجتماعات السرية باليهود ويتأمرّون على المسلمين ، واتخذوا مسجد الضرار ليكون لهم مقراً ومرصداً للكفار وتقريباً للصف .

- مع ذلك لم يسمح لهم رسول الله أن ينفردوا بمسجدهم فهدمه وكل ذلك يسعى رسول الله لدمجهم لا لعزلهم ولا استعمالهم في الجهاد ، بل كان يدعوهم لذلك ولا يدعو لمحاربتهم واستئصالهم وهكذا مضت السنّة في التعامل مع ظاهرة النفاق .

النخبة الإسلامية مبتلية بهوس الدفاع عن الأيديولوجيا التي تتبناها أكثر من دفاعها عن قضايا الأمة ، وهمها دائماً هو الاستثمار السياسي في كل حدث أو مصيبة تقع على الأمة ، لذلك تعتبر نخباً معناشةً على الأزمات .

- الأزمات تشكل حفل استثمار ثري للنخبة لكي تُرَوِّج إلى مناهجها وأفكارها وممارسة دور الوصاية على الأمة القاصرة .

- تحاول النخب أن تُرَوِّج أنّ مناهجها هي الحلول الناجعة لأزمات الأمة ، وأي حل لا ينطلق من أيديولوجيتها هو حلّ ساقط ومرفوض ومحارب منهما ، ويعتبرون أي حلّ لأزمة الأمة بعيداً عن مبادئهم هو سقوط لنظريّاتهم التي يعطونها حكم القطع والبعد العقدي .

- النخبة لا تهتم لطول أزمة الأمة وسرعة حلّها بقدر ما تهتمّ بنشر أفكارها وتحشيد الأتباع لها ولو على حساب صراع واحتراب داخليّ مع النخب الأخرى من التيارات الإسلامية المخالفة .

- في الوقت الذي تخوض فيه الأمة صراع الوجود والفناء والدفاع عن الضروريات وردّ الصائل تخوض النخبة الإسلامية الصراع من خلال أيديولوجيتها الحزبية ولأجلها ليس من خلال واقع الأمة واحتياجتها ، ومما يُدخلها بصراع تنافسي مع النخب الأخرى فيتحول الصراع بينهم لصراع سلطويّ يحاول كلّ منهم استدعاء الأمة لأيدولوجيته ومنهجه .

أمام تعدد التيارات النُخبويّة وعدم اجتماعها وصراعها ستقوم كل نخبة بخطف قطاعٍ من الشعب المقهور بأزمته ليكون الوقود المستهلك لتمرير مشاريعها الحزبيّة ، ولن تجد غضاضة حتى في زجّه بصراعٍ داخليّ جانبي بعيداً عن الصراع الاستراتيجيّ الوجودي للأمة .

- هذا الحال في الغالب يدفع قطاع كبير من الأمة لتعود وترتمي بأحضان الطغاة وإجهاض ثورته بعد أدلجتها .

- وهذا ملاحظ بشكل مُتّرد في الثورات ، إذ يرتفع خطها البياني عندما تكون شعبية موجّهة من النخبة ، وينحدر خطها البياني عندما تتحول إلى ثورة تتقاذفها الأدلجة والمناهج . النخبوية المُفرطة تؤدي للتنظير المُملّ في البروج العاجية ، والشعبوية المُفرطة تؤدي إلى الفوضىّة العارمة .

والحل أن تكون النخبة موجّهة ومرشدة ، وعدم إدخال الساحة في الاستقطاب والحزبيّة وما يُجرّ لِحَرْفِ البوصلة وهذّر الطاقات في الصراعات الانتهازية .

ترسيخ مفهوم إقامة الشريعة بدلاً من مفهوم تطبيق الشريعة :

المسلمون يمارسون حرب مفاهيم على دينهم وإسلامهم باختزال مفاهيمٍ شاملة لتدلل على جزئيات صغيرة مثل :

أولاً : من المفاهيم الخاطئة مفهوم تطبيق الشريعة فلا يقال تطبيق الشريعة ، وإنما يقال إقامة الشريعة لقوله تعالى { أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه }

التطبيق يأتي من نفسية تسلطية استبدادية وهي عبارةٌ تختزل الشريعة بالحدود ، أمّا الإقامة هي عملية بنائيّة تشبه إقامة البنين بالأساسات إلى المراحل التي تمر لإنجاز البنين من البناء الإيماني إلى البناء التربوي إلى البناء العلمي ، ثم تحقيق الضروريات للمجتمع ثم حماية المجتمع بسُور العقوبات من حدود وقصاص وتعزيرات .

النظام الإسلاميّ كلّ متكامل ،

يُطعم الجائع قبل أن يحدّ السارق ،

ويُعفّ العازب قبل أن يحدّ الزاني .

إنَّ اليد التي لاتجد لنفسها عملاً في الحلال لأبْد أن تمتدَّ إلى الحرام .

النظام الإسلامي يعالج الجريمة من أسبابها وليس من مفرزاتها ، الشريعة قد تكون من مفرزات الضياع الاجتماعي والفقير المدقع .
الشريعة رحمةٌ كلها عدلٌ كلها مصلحةٌ كلها ، فأَيّ مسألة خرجت من العدل إلى الجور ومن المصلحة إلى المفسدة ومن الرحمة إلى الشدة ، فليست من الشريعة وإن أُفجمت فيها بألف دليلٍ ودليل .

قال تعالى (ولا تقربوا الزنا) ولم يقل لا تزونا .

إفكار امرأة لا قيم لها في بيئة مفتونة دفعها إلى الفاحشة .

مَنْ انْحَرَفَ إِلَى الشَّهْوَةِ لَيْسَ كَمَنْ انْحَرَفَ إِلَى الشَّبْهِةِ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن من جادت بنفسها بالحدِّ (لقد تابت توبة لو وُزَّعت على أهل المدينة لَكَفَّتْهُمْ) .

وقال عن القتلى من المارقين (الخوارج) (شر قتلى تحت أديم السماء)

الحدود لا توجد المجتمع الفاضل وإنما تحميهِ ، لذلك كانت التربية الإيمانية للمجتمع هو خطوة غير منفصلة عن إقامة الشريعة .

يقول أحدهم بعد عمل سنة كاملة في المحاكم الشرعية : ما وجدت أحداً تحت الشرع من الفصائل .

الخشوعُ للشرع عند الفصائل يتناسب عكساً مع تعاضم الشعور بالقوة ونُقْصانه .

{ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ * أَنْ رَأَاهُ اسْتَكْبَرَ } {العلق:6-7}

العقلية المتحرّبة ليست متمرّدة على الشرع ، ولكنها تُنقِضُ الالتفاف عليه ، فأغلبها يحكم على الشرع وليس الشرع من يحكم عليه .

ملاحظ بشكل مطرد كلما تقدمت الجماعات الإسلامية بتطبيق الشريعة في الفروع كلما ضُيعت مقاصد الشريعة الكلية ،

الأمر الذي يدل أن ما يطبق هو الذريعة وليس الشريعة ، وأنَّ المطبقين غارقين في الفروع غافلين عن المقاصد .

شُبْهَةٌ وَرَدُّ

- الإخوة الكرام في معرض الردّ على الغلاة عندما يرمون بشبهة أنّ الدين اكتمل ، فلا يجوز أن تستدل بفعلٍ لرسول الله صلى الله

عليه وسلم قبل اكتمال الدين كطوافه حول البيت مع وجود الأصنام ؟

الردّ :

يجب أن نميّز دائماً بين نوعين من الاكتمال

1_ اكتمال الدين كشرائع وأحكام وفرائض وواجبات

2_ واكمال الظروف والمكّنة والاستطاعة لتطبيق هذه الشرائع والأحكام .

فلا يلزم من اكتمال الشرائع اكتمال الاستطاعة على تطبيق هذه الأحكام والشرائع ، لذلك أناط الله تعالى هذه المسألة تحت شرط

الاستطاعة والقدرة ، وتحديد هذا الأمر هو اجتهاد محض ، قال تعالى : (فاتقوا الله ما استطعتم) .

وهناك من الأدلة الكثيرة التي تربط التكليف بالقدرة والاستطاعة . ومن هنا نرد على قضية التدرج في إقامة الشريعة :

التدرج ليس مقصوداً لذاته ، والرأي الحق بين من ينفي التدرج مطلقاً ، وبين من يثبتته مطلقاً .

إنَّ التدرج مَنُوطٌ بالقدرة والاستطاعة ، فكلما استطعنا من تطبيق حكم وجب الوصول إليه .

الإسلام ليس نظاماً سياسياً فحسب ، وليس نظاماً اقتصادياً فحسب ، وليس حركةً جهاديةً فحسب ، وليس تربيةً روحيةً فحسب ،
وليس امتداداً جغرافياً وليس نظامَ عقوباتٍ فحسب ، إنه النظام الرباني الذي يستوعب حاجات الإنسان والمجتمع ، وهذا ما لم
تستوعبه الأحزاب المجتمعة على 'حدى جزئياته ثم تضخيمها إلى درجة التورم المشوه للصورة الكاملة.

لم تعرف البشرية حروباً غيرت وجه الدنيا ومسار التاريخ بأقل ثمن في الدماء والأموال، مثل حروب النبي صلى الله عليه وسلم . والسبب في تلك النتيجة المبهرة هو أنها حروب جسدت روح الجهاد رسالةً وغايةً وأخلاقاً وأحكاماً .

فالحرب في الإسلام اضطرار لا اختيار، وأحمق من يسعى إليها بطراً، وجباناً من يتهرب منها إذا فُرِضت عليه. فليس الإسلام دين السيف ولا دين الخشب، بل هو دين القيام بالقسط سلباً وحرماً، وقد جنّب الإسلام المسلمين موقفاً مُناقفاً شائعاً في ثقافات وديانات أخرى يدين الحرب ويخوضها، ويتبرأ من العنف ويمارسه، ويرفع راية المحبة ويخوض في دماء الأبرياء .

فالسُّلمُ مقصدٌ من مقاصد الإسلام الكبرى، ومظلةٌ شرعيةٌ يجب على كل المؤمنين الدخول فيها والاستئصال بظلالها ، قال تعالى {يا أيها الذين آمنوا أدخلوا في السلم كافة} (سورة البقرة، الآية 208). لكن هذه الغاية محكومة بغاية أخرى أجلّ وأسمى، وهي العدل الذي أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لتحقيقه، فقال {لقد أرسلنا رُسُلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط} (سورة الحديد، الآية 25). فلا سلّم في الإسلام من غير جهاد الظالم والأخذ على يده بقوة، وما سوى ذلك فأحلامٌ زاهيةٌ وأفاصيصٌ ورديةٌ تصلح مادةً للتمدح الساذج، لا قاعدة عملية للحياة. فلو لم يكتب الله تعالى الجهاد على العباد، لفرّت أعين الظالمين بخنوع المظلومين.

وقد صدق الفيلسوف الشاعر محمد إقبال حين قال "إنّ الدين من غير قوة مجرد فلسفة". فالمدافعة سنة من سنن الله في الحياة البشرية، وهي التي تعصم من الفساد بنص التنزيل: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض} (سورة البقرة، الآية 251). فلا يحصل العدل وتتحقق الحرية بوعظ الظالم أن يترك ظلمه، بل بإقناع المظلوم بأن ينتزع حقه. ولم يخدم قومٌ الإنسانية، ولا أثر قومٌ في مسار الحياة البشرية أكثر مما خدّمها وأثر فيها أولئك الذين راهنوا بحياتهم في سبيل الحق والعدل والحرية .

لقد حصر الإسلام مسوّغات القتال في ثلاثة أمور:

أولها - حق الدفاع عن النفس ورفع الظلم عنها، وهذا واضح من أولى آيتين نزلتا في الجهاد: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نصرهم لقدير. الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله} (سورة الحج، الآيتان 39-40)، ثم فيما تلاهما من حيث التنزيل مؤكداً لهما: {وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا} (سورة البقرة، الآية 246)

ثانيها- نصرّة المستضعفين العاجزين عن الدفع عن أنفسهم: {وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من أدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً} (سورة النساء، الآية 75)

ثالثها- ضمان حرية العبادة للجميع دون قهر أو إكراه ليكون الدين لله خالصاً : { ولولا دفعُ الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع وصلواتٌ ومساجدٌ يُذكر فيها اسم الله كثيراً } (سورة الحج، الآية 40). فالإكراه في الدين ينقل

الناس من الكفر إلى النفاق، وهو أحط من الكفر: { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ } (سورة النساء، الآية 145).

وقد جعل الإسلام كل قتال لرفع الظلم جهاداً، فقال صلى الله عليه وسلم "من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون أهله، أو دون دمه، أو دون دينه، فهو شهيد" (أبو داود بسند صحيح)، وفي رواية "من قُتِل دون حقه فهو شهيد" (أبو يعلى بسند حسن)، وفي رواية أخرى "من قُتِل دون مظلمته فهو شهيد" (أحمد والنسائي بسند صحيح)، وفي رواية "دون مظلمة" بلا إضافة، وهو ما يجعل المعنى أعم وأتم، فيشمل مظلمة النفس ومظلمة الغير.

فالجهد ليس موقفاً اعتقادياً ضد الكافرين، بل هو موقف أخلاقي ضد الظالمين . وعلى عكس ما تراه بعض الجماعات الإسلامية المولعة بصياغة الأمور العملية صياغةً اعتقادية، لم يجعل الإسلام اختلاف الدين مُسوِّغاً شرعياً للقتال، فالجهد في الإسلام ليس قتال الكافر، بل هو قتال الظالم مسلماً كان أو كافراً، فهو موقف أخلاقي مع العدل والحرية ضد الظلم والقهر، والمجاهد يقاتل الظالم لظلمه لا لعقيدته أو مذهبه، ولذلك كان من الجهد الذي أمر به الإسلام : قتال الباغي المسلم، وصدّ الصائل المسلم، والأخذ على يد الظالم المسلم .

ونصوص القرآن المحكمة صريحة في حصر القتال في نطاق صدّ العدوان، وفي اعتبار ما وراء ذلك عدواناً: {وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين} (سورة البقرة، الآية 190). أما النصوص الواردة في قتال "الكفار" أو قتال "الناس" من غير تحديد، فإن أداة التعريف "ال" فيها عهدية وليست استغراقية، وهي من العام الذي أريد به الخصوص ، وقد خصصها سياق الزمان والمكان لأنها تتحدث عن "الكفار" و"الناس" الذين كان بينهم وبين المسلمين يومذاك حرب مشروعة لها مُسوِّغ من المسوغات الثلاثة المذكورة أعلاه، وهي مسوغات مبنية على معادلة العدل والظلم، لا على معادلة الإيمان والكفر.

فالقائلون اليوم بقتال الكفار بإطلاق - ممن لا يميزون بين الصيغتين العهدية والاستغراقية في نصوص الجهاد - إما أنهم غير مُلمين بلسان العرب ودقائق استخدامه، أو أنهم غير مطلعين على تفاصيل التجربة النبوية التي شملت موادعات مع قبائل عربية وثنية، ومعاهدات مع يهود المدينة، ونصارى نجران، ومجوس هجر، تحولت بموجبها الطوائف الثلاث جزءاً من شعب الدولة الإسلامية في العصر النبوي، مع احتفاظها بدينها المخالف لدين الإسلام .

ولم يكتف النبي صلى الله عليه وسلم بمسالمة الكفار المسالمين، بل استعان بالعديد منهم سياسياً وأمنياً ودعائياً: أفراداً مثل أبي طالب، والمطعم بن عدي، وعبد الله بن أريقط، وصفوان بن أمية، ومعبد الخزاعي، ودُولا مثل الحبشة، وقبائل مثل خزاعة، قال ابن هشام: "وكانت خزاعة عبيّة نُصِح رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلمها ومشركها، لا يُخفون عنه شيئاً كان بمكة" (سيرة ابن هشام 312/2).

وإنما اغتر القائلون بتعميم القتال اليوم بجوانب من الفقه الإمبراطوري الموروث الذي نشأ في سياق تاريخي اتسم بحرب الكل على الكل، وكانت الخطوط الفاصلة بين الإمبراطوريات يوماً خطوطاً دينية في أساسها. ولو أنّ هؤلاء ردوا هذا الفقه الإمبراطوري إلى نصوص الوحي والتجربة النبوية، وحاكموه بهما بعيداً عن ربة التقليد، لاكتشفوا جوانب الضعف والخلل فيه، وبعده عن روح الإسلام وقيمه الكلية، مثل العدل والحرية .

إنّ أمتنا صبورة شكورة، لكن الاستبداد وظهيره الدولي أوغلا في إذلالها بهمجيتهما، وأرغماها على حمل السلاح، وقديماً قالت العرب "احذر غضبة الحليم". وقد برهنت الأعوام الأربعة التي تصرّمت منذ اندلاع الربيع العربي المجيد أنّ الثورات ضد المستبدين الفاسدين قد تكون سلمية، لكن الثورات ضد القتل السفاحين لا يمكن أن تكون إلا عسكرية. كما برهنت هذه الأعوام على أنّ الأمة مُصِرّة على رفع الظلم مهما تكن التضحيات. لقد رفض المستبدون وظهيرهم الدولي أنسام الربيع، فعليهم أن يواجهوا عواصف الخريف وزمهير الشتاء، بعد أن انبعثت روح الجهاد في الأمة اليوم بشكل لا نظير له في تاريخها القريب .

بيد أن هذه الطاقة الجبارة يُساء استخدامها أحياناً بسوء التسديد، وضعف النظر الشرعي، وفقر الحكمة السياسية. فالعزيمة الصلبة والاستعداد للشهادة في سبيل الله لا يُغنيان عن العمق الشرعي، والانضباط الأخلاقي، وحسن التقدير والتدبير. وإذا لم تكن للمجاهدين أخلاق وقيم أنبل من أخلاق الظالمين وقيمهم، تحوّل القتال من حرب بين ظالم ومظلوم إلى حرب بين ظالمين، وإذا لم تكن لدى المجاهدين رؤية سياسية واستراتيجية ناضجة، تحوّلت تضحياتهم انتحاراً على أعتاب العدمية.

فنحن اليوم في مسيس الحاجة إلى إحياء سنن الجهاد وبيان رسالته الأخلاقية وحكمته السياسية في السياق المعاصر. وسنكتفي هنا من ذلك بإشارات ذات صلة بسياق الثورات العربية اليوم، أملين التوسع في الموضوع في جهد لاحق بعون الله:

أولاً- لأن مناط الجهاد في الإسلام هو رفع الظلم حصراً، فليس من المصلحة أن يصوغ المجاهدون قتالهم بلغة اعتقادية صارخة، هي لغة الحرب بين الكفر والإيمان، والولاء والبراء. لقد جعل الإسلام كل قتال لرفع الظلم جهاداً كما بيّنا، فثورات التحرير الوطني، وثورات التحرر السياسي - مثل الربيع العربي - من أعظم الجهاد، لأنّها قتال ضد الاستعمار والاستبداد، وكلاهما خوض في دماء الناس وأموالهم وحقوقهم بغير حق.

ومن أعظم الجهاد أن تهب جماهير الأمة للقتال دفاعاً عن حريتها وكرامتها، وحقوقها الإنسانية، وثروتها المهدورة، وأوطانها المستباحة. وليس من اللازم أن يرفع الناس راية دينية ليكون قتالهم جهاداً، بل يمكن القتال أيضاً تحت راية الوطن والكرامة والحرية والاستقلال، دون أن يُخلّ ذلك بمعنى الجهاد، أو بقبوله عند الله تعالى، فكل إعلاء للحق والعدل هو إعلاء لكلمة الله تعالى.

وتزداد المصلحة في تجنب لغة الكفر والإيمان حينما يصطف الأحرار من أهل الوطن الواحد مسلمين وغير مسلمين ضد غاز خارجي أو مستبد داخلي، فالعبرة بالمقاصد والمعاني، لا بالألفاظ والمباني. وربما يكون أنبل المجاهدين في الثورات العربية اليوم هم من يجاهدون إيماناً واحتساباً لتحرير الناس لا لحكمهم، ودون مراعاة دينية، أو جعجة سياسية .

ثانياً- إنّ الجهاد ضد الاستبداد فعل اجتماعي جامع يحتاج إلى لَمّ الشمل وحرص الصف، فهزيمة المستبدين وإقامة دولة الحرية والعدل أصعب من أن تنوء بهما طليعة مجاهدة. وإذا كانت الانقلابات الساعية إلى حكم الشعوب والتحكم فيها

تكفيها طليعة حزبية أو أيولوجية منظمة، فإن الثورات الساعية إلى تحرير الشعوب لا تقوم إلا على أكتاف الشعوب .

فلن تنجح منازل غاز خارجي، ولا ثورة على مستبد داخلي، إلا تحت راية جامعة، تلمم شتات الأمة، وتوحد أحرارها على مطلب الحرية والعدل للجميع. ولن تنتصر الهبة الجهادية الحالية ضد الاستبداد إلا إذا تحولت تياراً اجتماعياً جامعاً، كما كانت الحركات الجهادية ضد الاستعمار، وهذا ما يدعو علماء الاجتماع السياسي "الكتلة الحرجة". فالجهاد جهد أمة، لا جهد حزب أو طليعة أو نخبة، ولا مستقبل لجماعة جهادية انفصلت عن عامة الناس، وتعاليت عليهم، واتهمتهم بالردة أو البدعة أو الانحراف. وقد كان في وسع بعض هذه الجماعات أن تكون طليعة الربيع العربي الضاربة، لكنها تحولت عيباً عليه بسبب ضيق أفقها الشرعي والسياسي .

ثالثاً- إن قتال حكام الجور لا يمنح الثوار المجاهدين شرعية سياسية وحقا تلقائياً في حكم الناس رغماً عنهم، فغاية الثورة تحرير الناس لا حكمهم، ولا يحق للمجاهد أن يفرض نفسه حاكماً للأمة بسابقته الجهادية. فالأمر في الإسلام شورى، وللأمة أن تختار المجاهدين حكاماً لها، أو أن تختار غيرهم ممن هم أبصر بشؤون الحكم. وليست البراعة القتالية مرادفة للبصيرة السياسية، وقد رأينا في بعض التجارب الجهادية أشجع المقاتلين وأسوأ السياسيين، فلكل طرف رجاله، وكلٌ ميسرٌ لما خلق له .

ومن الخطيئة الشرعية والخطل السياسي أن تُنصّب حركة جهادية نفسها حاكمة للأمة، مستبدة بتدبير شأنها، فتفتتت على عامة الناس، وتتجاوز مبدأ الشورى القرآني، فتستبدل ظلماً بظلم. وهل ظلمٌ أكبر من أن تُطلق جماعة صغيرة أيديها في شؤون أمة كاملة دون رضى منها، أو ينصّب فرد نفسه خليفة على مليار ونصف مليار مسلم دون استشارة منهم؟! وأي عبثية أسوأ من أن يكون المقاتل ضد الاستبداد مستبداً!؟

نعم، يحق للعسكري المتمرس أن يبادر باستلام القيادة دون تفويض في حالة الفراغ القيادي بساحة الحرب، وقد فعل خالد بن الوليد ذلك في غزوة مؤتة بعد استشهاد الأمراء الثلاثة، وبوّب الإمام البخاري للأمر بعنوان "باب من تأمر في الحرب من غير أمره إذا خاف العدو". لكن هذه حالة حربية استثنائية لا يمكن تعميمها من جيش إلى أمة، ولا نقلها من ساحة القتال إلى ساحة الحياة العامة. أمّا من تأمر من غير تأمير الأمة له فيما وراء ذلك، فقد تجاوز أمّهات القيم السياسية الإسلامية، وخالف الشرع من حيث أراد خدمته .

رابعاً - إن كل ما سبق لا يعني أن نطالب المجاهدين بالمستحيل، أو أن نحاكمهم بمعايير الملائكة، فهم بشر يصيبون ويخطئون، واحتمال الخطأ في الرأي غير مانع من الاجتهاد، واحتمال الخطأ في الممارسة غير مانع من الجهاد. لكن الخطيئة غير الخطأ، والأصرار على الباطل بعد تبيين وجه الحق ضلالة. وليس المجاهد فوق النقد، بل يجب تصحيح خطئه إذا أخطأ، والتبرؤ من فعله إذا أساء.

وليس مجاهدونا اليوم بأكرم على الله ورسوله من خالد بن الوليد، وقد تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من فعل خالد، فقال "اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد" ثلاثاً (صحيح البخاري). والرجوع إلى الحق أولى من التماذي في الباطل، وأولى الناس بالرجوع إلى الحق هم المجاهدون، لأنّ المجاهد مراهن بروحه، فهو أجدر الناس بالحرص على شرعية الغاية

والوسيلة ليتقبله الله، وفي الحديث "إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً" (الترمذي بإسناد حسن)

على أنّ أخطاء المجاهدين وخطاياهم - مهما عظمت - ليست بمسوّغ شرعيّ لتعطيل الجهاد. فقد تبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من فعل خالد، وصحّ الفعل بدفع ديات القتلى، لكنه أبى خالداً قائداً من قادة المسلمين، ثم أبى أبو بكر الصديق خالداً في الصدارة رغم مأخذه عليه، وحينما "أشار عليه عمر بعزله قال أبو بكر: فمن يجزئ عني جزاء خالد؟" (ابن حجر، الأصابة، 218/2). (وفي سياق آخر قال أبو بكر "والله لا أشيم [أي لا أعمد] سيفاً سلّه الله على عدوه" (مصنف ابن أبي شيبة، 547/5)

فلم يُقرّ الصديق فعل خالد ولا برّره، لكنه نظر إلى الصورة الكلية، وقرّر أنّ لا يترك الأمة منكشفة أمام خطر وجودي من أجل تصحيح تجاوزات جزئية من خالد، وذلك باب من أبواب الفقه السياسي دقيق المسلك .

ومهما يكن من أمر، فإن المجاهدين المسلمين اليوم لا ينقصهم الإقدام والتضحية، وإنّما ينقصهم التبيّن الشرعي والسياسي، والله تعالى يقول {يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا} (سورة النساء، الآية 94). فالمجاهد الباحث عن الموت في مظانّه عصيّ على الهزيمة أمام أعتى جيوش العالم، إنّما تهزّمه أخطاؤه وخطاياهم، ويحميه من الهزيمة أن يكون جهاده على بصيرة شرعية وحكمة سياسية.

الخاتمة والنتائج

نحن نتكلم عن أمة إن اقتصرنا العمل على موقع وزاوية فإن الالتفاف علينا من السهل بمكان لإجهاض ما قمنا به، وهكذا سندور في حلقة مفرغة ، وستجد الغرب انكبوا علينا تحت أي ذريعة لتقويض المشروع في طور إخراج الشطء قبل أن يصل إلى الاستغلاظ والاستواء على السواق .

نحن نخوض معارك نازفة لأجل إسقاط الدولة الظاهرة ، والدولة العميقة متماسكة ومتغلغلة حتى في أحزابنا هذا يتطلب منا إدارة صراع خفي في مفاصل هذه الدول المستغربة التي تعمل كالغدد السرطانية .

نحن لا نتملق الغرب ونشهد ارتبائه ومحاولته لنصرته أوريا حتى يتخلص من معضله الحاضنة الغير قابلة لمشروعه ، هذه نقطة ضعف لم نستغلها مع أن الأبواب كانت مُشَرَّعة ، والخواء الروحي كان فراغاً هائلاً للتحرك فيه واشباعه بالدعوة في مساحة حرية الرأي والاعتقاد .

الأنظمة العربية ما هي إلا نواظير وراعية لمصالح الاستعمار، بل إنها زادت عليه بالبطش والعسف ، المعركة معهم غير منفصلة عن الاستعمار ولكن استعداد الغرب وجره إلى المواجهة ليكون حليفاً مقاتلاً مع هذه الأنظمة يجب أن لا يكون من أولوياتنا الآن ، لأن الغرب في النهاية جاهز للتخلي عن حلفائه إذا ما تحولوا إلى عبء ثقيل عليه .

الأحزاب رايات ، فمن دخل فيها بحكم الاضطرار ليس كمن صنع الراية ورفض الاصطفاف مع الأمة ، الأمر يختلف بين الإثنين :

نحن لا نتكلم عن إقامه كيان جزئي ، فهذا سيتهشم بسهولة ، نحن نتكلم عن تصدير مشروع إسلامي . القضية أكبر من أن نحتويها كما كنا بالسابق عبر قيام دولة تحتضن الأمة لأنّ الالتفاف كامل على المسلمين ، نحن نحتاج مشروعاً قابلاً للتصدير بسرعة يستدعي المحيط الإسلامي ليتحصل على إحاطة الأمة له وتقليده .

هذا ما يخوفون منه

تجربة أردوغان غير قابلة للتصدير ، قيام تركيا كدولة عظمى أمر مشكوك فيه .

التطور العسكري لدى الغرب قد يتدخل ليحسم قضية تركيا ، ولا اظن أنّها ستخوض صراعاً من أجلنا ، صربيا تتجهز واليونان وإيران ، ونحن نلقي الحمل بالكامل على الأتراك ، سيكونون أمام خيار مواجهة العالم لأجلنا الكسالا أو الانجرار تحت سلسلة من التنازلات التي لن تنتهي حتى تهدم تركيا .

علينا الخروج بمشروع وليس كيان ، هنا التخطيط الاستراتيجي لصالح الأمة وهناك التخطيط النفعي الحزبي . الفرق بين الفكرين واضح .

أيتها الأحزاب الإسلامية ، لم تتقاتلون إذن ؟ وراياتكم مختلفة؟

لا أعتقد أن الإسلام نزل على أكثر من رسول ويحمل أكثر من كتاب ،

فلا تخبرني أن فهمي يختلف عن فهم فلان ، فلذلك آثرت أن تكون لي راية وله راية .

الصحابة اختلفوا ولم تختلف رايتهم لأنّ فهمهم أرقى من اختلافهم .

تحزّب الأحزاب في وقت اصطفاف الأمة لا يخرج من بين ثلاثة :

1_ خيانة ، وقد وجدت كتائب خائنة

2_ هوى متبّع وشبهة ، وقد وجد من يقيس الأمة على حزبه

3_ سلطة ، وقد وجد من دعى لنفسه

حكم تفرق الرايات يدخل فيه المجاهدون بحالة الاضطرار، لكن ما حكم القادة؟ هل ينطبق عليهم نفس الحكم؟ أليست الفرقة من أكبر الكبائر التي تتسبب باستباحة بيضة المسلمين ؟

ماحكم من يشق صف الأمة؟

وحكم المجاهد في تعدد الرايات أنّه مضطر ، لأنّ هذه وسيلته بالجهاد، لكن ما حكم من ينزع الأمة إلى رايات القادة؟ هل يقعون بحكم الاضطرار إن توفر لهم التوحد ورفضوه تحت أعدار اختلاف فهم؟

الأمة قاتلت تحت راية سلفي وصوفي وأشعري وفاجر ،

هل اختلاف الفهم هو قياس صحيح بين المذاهب ؟

ألم نشهد توحّد الأشاعرة والصوفية خلف ابن تيمية ؟

ألم نشهد توحد الأمة خلف العز بن عبد السلام؟
ألم نشهد توحيدها خلف الوزير نظام الملك؟
ألم نشهد توحيدها خلف المماليك ومنهم المقتصد ومنهم الفاجر؟
مالذي اختلف الآن؟

قضية تعدد الفهم هي سماعة تتخفى خلفها الأحزاب ، والحقيقة أنّ السلطة وفتنتها توغلت عن نخبة النظام الحزبي فجعلت من اختلاف الفهم سائر يتخفى خلفه الكثير ليتوصلوا إلى أهداف سلطوية .
طبعاً كلامنا لا يشمل جميع الكتائب التي لا تحمل أيديولوجية حزبية وتقاتل مخلصاً ولا تعنيها هذه الصراعات ولم تدخل في دوامة النزاع الفكري .
المنقّب في خلافاً الأحزاب يجدها خلافاً على مفقود ، وهي إمّا خلافاً تاريخية وقعت ومضت عفى عليها الزمن ، وإمّا خلافاً مستقبلية لا زالت بعيدة المنال عن متناول الكل ، كالاختلاف على شكل الدولة الإسلامية في المستقبل اختلاف على مفقود يؤدي لعدم التعاون على الموجود من أزمات واستحقاقات تحتاج للمواجهة .
لا يجوز بحال أن ننشغل بصراع الجزئيات في عالم يتصارع على الكليات ، إنّه تقزيم للأمة والرسالة والمعركة واتجاه نحو الهزيمة التي رسخت حالة من الإحباط لكثرة تكرارها ومرّ حصادها وعظم غرمها ونكران متسببها .

الذين نقصدهم هم الذين وجدوا من سوريا أرضاً خصبة لمشروعهم السلطوي فانساقوا خلفه ، فانشغلوا بخصومهم المنافسين لهم أكثر من عدوّهم المتربّص بهم حتى يتصارعوا بعد أن غاب عنهم المقصد الأساسي .
الذي يريد أن يُقيم الإسلام لا يفكر بالدولة ، بل يفكر بالأمة لتقيم هي الدولة بروح التشاركية ، ولكن التصلب المنهجي يأبى عليهم هذا فتغلب عليهم روح الاجتثاث للمخالف ، ولم يعد الأمر يتوقف عند الإقصاء والإبعاد وانقطاع التعاون والحوار .
الإسلام ليس جغرافياً فقط ، فإن تحول لجغرافياً فإنّه سيكون مُعرّضاً للتمدد والانكماش وفق الصراع الحضاري . الذي حوّل الإسلام جغرافياً هم ملوك المسلمين الذي كانت مهمّتهم تقتصر على حماية الثغور، ومتى غلبوا حضارياً زالت دولهم كزوال دولة بني أمية وبني العباس ومن تبعهم .
هذا الموروث السلطوي الخاطيء ورث من تلك الحقبة الملكية العضوض ، الإسلام ليس دولة فقط ، ولن يكون دولة فقط ، ومن قرّمه بدولة فليتحمل الصراع الحضاري وليكن أهلاً له ، فمن لا يملك أدوات الحضارة الذي أنا متأكد أنّ كلّ المسلمين لا يملكون معشارها فليقيم له دولة لتتحسر على زوالها بأيام معدودة للأسباب التي قلناها .
لا تقزّموا الإسلام بالمشاريع الحزبية الضعيفة ، فتعرضوا على المسلمين مصطلحات لا يفقهونها حتى تحدثوا فراغاً تدخلوا من خلاله ، ليس هذا سبيل المصلحين ، بل حدثوا الناس بما تفقهوا وأدعهم لما يستطيعون ، وقدموا حفظ نفوسهم وأعراضهم كما قدمها الإسلام عن أهوائكم ومشاريعكم .
ساحة الشام هي ثورة شعب مسلم ، وفي النهاية لا بُدّ أن تفهم الجماعات جميعاً أنّه لا مجال لمشاريعها الخاصة في هذا الوقت وإلا سوف تبوء بالفشل جميعها .
هذه بعض الخواطر مما نقلته عن بعض الافاضل في ارض الشام ومما جاد بها خاطر من خضم التجربة الشامية المباركة
أسأل الله تعالى أن يكتب فيها الخير والنفع

هذا وما كان خطأ فمن نفسي ومن الشيطان وما كان صواباً فبتوفيق الله
والحمد لله رب العالمين

فاحضروا

الأغرار كلما رأوا مجسماً كتب عليه
مشروع إسلامي قالوا:
(هذا ربي هذا أكبر)
فإذا أفل قالوا لا نحب الأفلين..

عباس أبو تيم شريفة

لا يحملنك خبث العلمانيين ان ترتمي بدم الغلاة
ولا يحملنك اجرام الغلاة ان ترتمي بروث العلمانيين
فكلاهما خبث
وطن النفس على الحق
عسى الله ان يخرج من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين
وما ذلك على الله بعزیز

مركز الدراسات الاستراتيجية
Center for strategic studies